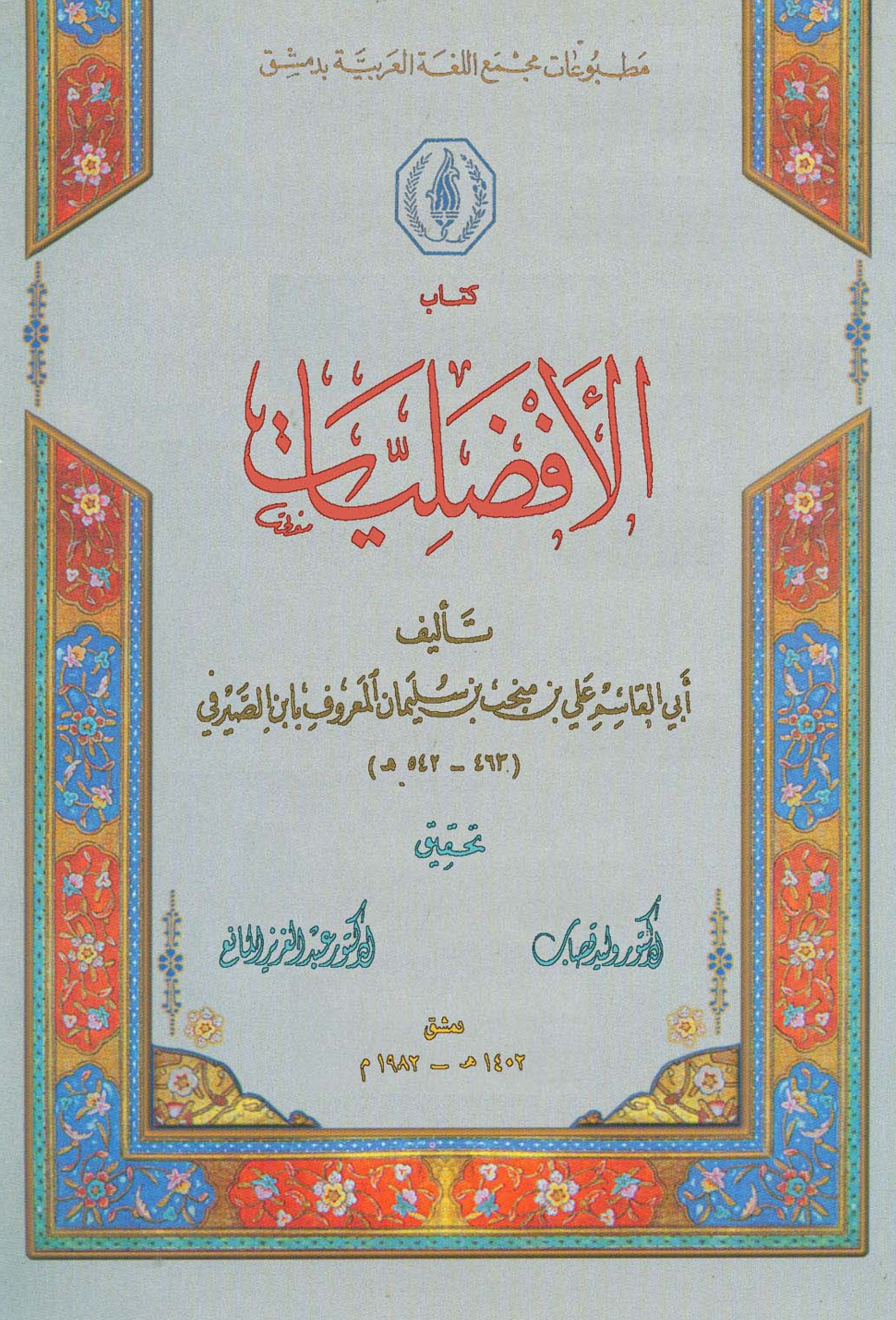

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق
كتاب
الأفضليات
تأليف
أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان المعروف بابن الصيرفي
(٤٦٣ - ٥٤٢ هـ)
تحقيق
الدكتور وليد قصاب
الدكتور عبد العزيز المانع
دمشق
١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق



كتاب



الأفضليات

تأليف

أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان المعروف بابن الصيرفي

(٤٦٣ - ٥٤٢ هـ)

تحقيق

الدكتور وليد قصاب　　　الدكتور عبد العزيز المانع

دمشق

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

التعريف بابن الصيرفي (١)

أنشأ ابن الصيرفي هذه الرسائل التي ننشرها اليوم للملك الأفضل شاهنشاه ، وهو أحمد بن بـدر الجمالي ، أبو القاسم الملقب بالملك

(١) انظر في ترجمة ابن الصيرفي المصادر التالية :
- معجم الأدباء : ١٥/٧٩ ـ ٨١
- أخبار مصر لابن ميسر : ٢/٨٧ ـ ٨٨ ، ومواضع متفرقة في ٢/٤٠ ، ٢/٦٧ ، ٢/٦٨ ، ٢/٧٤
- وفيات الأعيان : ١/٢٧٠ ، ٢/١٧٧ ، ٣/٣٣٤ ، ٤/٣٧٤ ، ٧/٣١ ، ٧/٢٧ .
- حسن المحاضرة : ١/١٩ ، ٢/١٣٩
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ٢/٥٣

وانظر كذلك :
- هدية العارفين : ١/٦٩٨
- الأعلام : ٥/١٧٦
- معجم المؤلفين : ٧/٢٤٦

الأفضل (١) ، أمـــير الجيوش المصرية • كان أبوه بـدر من الرجال المعدودين في ذوي الآراء والشهامة وقوة العزم ، وقد استنابه الخليفة المستنصر صاحب مصر بمدينة صور ، ولما ضعف حـال المستنصر ، واختلت دولته وصف له بدر الجمالي ، فاستدعاه ، وولاه تدبير أموره ، فاستطاع إصلاح الدولة أحسن إصلاح ، وكان وزير السيف والقلم ، وكان يلقب أمير الجيوش، ولم يزل كذلك الى أن توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة؛وفي أثناء مرضه سنة سبع وثمانين وزر ولده الأفضل موضعه• وكان الأفضل كأبيه حسن التدبير ، فحل الرأي ، قوي الشكيمة ، وقد استطاع بسلطانه أن يقيم المستعلي بعد أبيه المستنصر ، وأن يكون له من دونه الأمر كله ؛ إذ لم يكن للمستعلي معه أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة • ولما مات أقام الأفضل ابنه أبا علي المنصور الملقب بالآمر بعده ، وكان ابن الصيرفي ــ كما ذكر ابن ميسَّر ــ هو الذي كتب السجل بانتقال المستعلي وولاية الآمر ، وقرىء كتابه على رؤوس كافة الأجناد والأمراء ، وكانت سن الآمر خمس سنين وشهراً وأربعـة أيام ، فقام الأفضل بتدبير دولته ، وتولى أمره ، حتى حجر عليه ومنعه من ارتكاب الشهوات ، فإنه كان كثير اللعب • ويبدو أن هذه الوصاية التي أراد أن يفرضها على الآمر قد أغضبته ، فأوثب عليه جماعة ، فقتلوه عندما

---

(١) انظر في ترجة الأفضل :

ــ وفيات الأعيان : ٢/٢٤٨

ــ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزي: ٢٨١ــ٢٨٤

ــ أخبار مصر : ٢/٤٠ ، ٢/٥٧ ، ٢/٦٠

ــ الكامل لابن الأثير : ١٠/٥٨٩

ــ الأعلام : ١/٩٩

خرج من داره التي بمصر على بحر النيل يوم الأحد سنة خمس عشرة وخمسمائة (١) •

وإذن فالأيام الأفضلية تمتد بين سنة (٤٨٧ ـ ٥١٥ هـ) فترة وزارة الأفضل إلى أن قتل ، وفي هذا التاريخ صنف ابن الصيرفي رسائله (الأفضليات) ••

وصاحب هذه الرسالة هو ابو القاسم علي بن منجب بن سليمان التنوخي ، المعروف بابن الصيرفي • والمعلومات التي بين أيدينا عنه نزرة يسيرة ، فلم يفرده أحد من المصنفين بترجمة مستقلة إلا صاحب معجم الأدباء • وذكر ابن ميسر عنه نبذة قصيرة في كتابه أخبار مصر ، وكان يمر ذكره عرضاً في بعض المصادر الأخرى كوفيات الأعيان ، وحسن المحاضرة ، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ونعرف من هذه النتف اليسيرة أنه كان من فضلاء المصريين وبلغائهم وأدبائهم في القرنين الخامس والسادس •

كان أبوه صيرفياً ، ومن هنا جاءه لقبه الذي كان يعرف به ، ولكن جده كان كاتباً ، فأصبح كجده كاتباً بليغاً مشهوراً ، ويبدو أنه كان شديد الاهتمام والحذق بكل ما يتعلق بالكتابة وفنونها وأدواتها حتى اشتهر بذلك ، وعلا شأنه في هذا الميدان حتى لصق به لقب الكاتب ، فقد ذكره ابن خلكان في أكثر من موضع في وفيات الأعيان مقروناً بهذا اللقب ، كما كان معروفاً بخطه المليح الحسن حتى سلك فيه طريقة غريبة كما يقول ياقوت • ويبدو أنه اشتغل في أول مره بديوان الجيش، فأخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج صاحب

---

(١) ذكر ابن ميسر : ٥٧/٢ سبباً آخر في مقتل الأفضل •

ديوان الجيش ، كما اشتغل بديوان الخراج مدة ، ثم اتصل بالأفضل ابن أمير الجيوش السابق ذكره فاستخدمه في ديوان المكاتبات ، وكان عنده ذا حظوة ومكانة حتى رفع من قدره وشهره ، وصار واحداً من كتاب ديوان الإنشاء بمصر في أيام الآمر بأحكام الله ، وكان هذا منصباً مرموقاً ، فقد عظم أمر ديوان الإنشاء في أيام الدولة الفاطمية ، ووقع الاعتناء به ، واختيار بلغاء الكتاب له ، فلم يكن يتولى هذا المنصب إلا أفاضل البلغاء ومجوّدوهم . وكان معه في ديوان الإنشاء — كما ذكر ابن ميسر — سناء الملك أبو محمد بن محمد الحسيني الزيدي ، وأبو الحسن علي بن أبي أسامة الحلبي الذي خلفه ولده أبو المكارم بعد وفاته ، وابن أبي الدم اليهودي ، ثم تفرد ابن الصيرفي بالديوان فصار فيه بمفرده ، ولا ندري متى حدث ذلك على وجه التحديد ، ويبدو أنه لم يحدث في حياة الأفضل ، فقد ذكر ياقوت أن ابن أمير الجيوش أراد أن يعزل ابن أبي أسامة عن ديوان الإنشاء ، ويفرد ابن الصيرفي به ، واستشار في ذلك بعض خواصه ومن يأنس به ، فقال له : إن قدرت أن تفدي ابن أبي أسامة من الموت يوماً واحداً بنصف مملكتك فافعل ذلك ، ولا تخلِ الدولة منه فإنه حمّالها . على أن جفوة ما لبثت أن حدثت بين الأمير وكاتبه ، فأفسدت ما كان بينهما من ود وصفاء ، ولا ندري سبب هذه الجفوة ، لعل حساداً ووشاة تدخلوا بينهما ، وكان لهم يد فيما حدث ، فقد نقم الأفضل على ابن الصيرفي أمراً فطرده من ديوان الإنشاء ، ولكن الكاتب راح يكتب إليه طالباً الصفح والمغفرة ، فخط إليه عدداً من الرسائل الأدبية هي هذه الأفضليات التي ننشرها اليوم ، وقد استطاع بفصاحته وبلاغته أن يكتسب صفح الأمير وعفوه ، فرضي عنه ، وأعاده ثانية إلى ديوان الإنشاء . وظل ابن الصيرفي في خدمة الآمر حتى بعد مقتل الأفضل

سنة (٥١٥ هـ) ونجده يكتب بعد ذلك لوزيره المأمون بن البطائحي ، فقد ذكر ابن ميسر أنه في سنة (٥١٨ هـ) أمر المأمون ابن الصيرفي الكاتب بإنشاء سجل يقرأ على منبر مصر فكتبه ، كما أمره المأمون في السنة نفسها أن يكتب لابن الصبّاح كتاباً طويلاً يدعوه فيه إلى الحق ، فيرجعه عن القول بإمامة نزار ، ويحتج عليه بأمور ...

وعندما توفي الآمر سنة خمس وعشرين وخمسمائة انتقل إلى خدمة الخليفة الحافظ لدين الله ، وقد علت مكانته ونَبُه شأنه ، ولعله قد تفرد في أيامه بديوان الإنشاء ، ولقب بتاج الرياسة .

وابن الصيرفي بعد ذلك رجل متعدد الجوانب ، غزير المواهب ، فلم يكن كاتباً بليغاً من كتاب الدواوين فحسب ، ولكنه كان بالإضافة إلى ذلك مؤرخاً وشاعراً ، فقد أرخ لملوك مصر ، وأنشأ عنهم ديوان رسائل تزيد على أربع مجلدات ، كما أرخ لوزراء مصر فألف عنهم كتاباً سماه (الإشارة إلى من نال الوزارة) وقد ذكر فيه وزراء المصريين إلى عصره ، وقد نقل عنه ابن خلكان في عدة مواضع ثقة بأمانته وعلمه .

وكان شاعراً . ومن شعره قوله :

لما غدوتَ مليك الأرض أفضلَ مَنْ
جلَّتْ مفاخره عن كلِّ إطراءِ

تغايرتْ أدواتُ النطق فيكَ على
ما يصنع الناسُ من نظمٍ وإنشاء

ولـــه :

لا يبلــــغ الغايةَ القصوى بهمتـــه

إلا أخو الحـرب والجُرْدِ السلاهيبِ

يطوي حشاه إذا ما الليـــلُ عانقـــه

عــلى وشيـجٍ من الخطيِّ مخضـوبِ

ولـــه :

هـــذي مناقبُ قد أغنـــاه أيسرُها

عن الذي شَرَعَتْ آبـــاؤه الأُوَلُ

قـد جاوزت مطلـعَ الجوزاء وارتفعت

بحيث ينحطُّ عنهـا الحوتُ والحَمَلُ

وفي رسائله التي ننشرها مجموعة أخرى من أشعاره .

ولادته ووفاته :

عاش ابن الصيرفي ما يقـــارب التسعين عاماً ، فقـــد ولـد بمصر سنة ثلاث وستين وأربع مئة يوم السبت لثمان بقين من شعبان . واختُلِف في سنة وفاته ، فذكر ابن ميسَّر أنه توفي يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة ، بينما ذكر ياقوت أنه توفي بعد سنة خمسين وخمس مئة في أيـــام الصالح بن رُزّيك . رحمه الله .

مؤلفـــاته :

تكشف مؤلفات ابن الصيرفي عن اهتمـامات متنوعـة ، فمن مصنفاته الأدبية :

١ ـ رسالة العفو •

٢ ـ رسالة رد المظالم •

٣ ـ رسالة لمح الملح •

٤ ـ رسالة منائح القرائح

٥ ـ رسالة مناجاة شهر رمضان •

٦ ـ رسالة عقائل الفضائل •

٧ ـ رسالة التدلي على التسلي •

هذه الرسائل السبع هي (الأفضليات) التي ننشرها اليوم •

٨ ـ كتاب عمدة المحادثة •

٩ ـ كتاب في الشكْر •

١٠ـ كتاب استنزال الرحمة،وما ندري إن كان هو رسالة العفو، أم أنه كتاب آخر ؟ ••

١١ـ المختار من شعر شعراء الأندلس ، وقد نشره محققاً الأستاذ هلال ناجي في مجلة المورد العراقية •

١٢ـ وله اختيارات كثيرة لدواوين عدد من الشعراء ، كديوان ابن السراج ، وأبي العلاء المعري وغيرهما •

١٣ ــ وله قانون ديوان الرسائل ، ألفه كما قال في مقدمتــه ــ ليكون دستوراً يتبــع في اختيار من يؤهل للتوظف في ديوان الرسائل رئيساً كان أو مرؤوساً • وقد نشره محققاً الأستاذ علي بهجة ، وطبع بمطبعة الواعظ بمصر عام١٩٠٥م•

١٤ــ وورد في حاشية الورقة ١٢٢ من الأفضليات أن له ديوان رسائل في النثر والإنشاء يقع في عشرين مجلداً ••

ومن مصنفاته التاريخية :

١٥ــ كتاب (الإشارة إلى من نال الوزارة) وقد طبع بتحقيق الأستاذ عبد الله مخلص بمطبعة المعهــد العلمي الفرنسي في القاهرة سنة ١٩٢٤ م •

١٦ــ وله رسائل أنشأها في ملوك مصر تزيد على أربع مجلدات •

نسخة الأفضليات :

اعتمدنا في تحقيق هــذا الكتاب على مخطوطة واحدة فريدة في مكتبة الفاتح بالأستانة تحت رقم (٥٤١٠) ومن هذه المخطوطة مصورة موجودة في مكتبة جامعة الرياض (قسم المخطوطات) التي تكرمت مشكورة فزودتنا بنسخة من مصورتها ، وعند مراجعة فهرست معهد المخطوطات العربية المصورة التابع لجامعة الدول العربية كان في الأمر ما يدعو إلى التساؤل ، فقــد جاء في الفهرست الذي وضعه المرحوم فؤاد سيد أن النسخة الموجودة في المعهد ناقصة ، وقال في وصفها : « مجموع فيه الأفضليات ، وهي رسالة العفو ، رسالة رد المظالــم ، رسالة لمــح الملــح ، تأليف أبي القاسم عــلي بن منجب بن سليمان

الصيرفي ، نسخة كتبت في القرن السادس ، ولعلها بخط المصنف ، وقد جاء بأولها أن الأفضليات سبع رسائل والموجود فيها الثلاثة المذكورة فقط •• » وذكر الأستاذ سيد (١) أن عـدد أوراق هـذا المخطوط (٦٦ ورقة) وأنه موجود في مكتبة الفاتح تحت رقم (٥٤١٠) وهو نفس المكان والرقم الذي تحمله مصورة جامعة الرياض ، وقد أوهمنا ذلك أن نسخة المعهد هي واحدة أخرى ناقصة غير هذه التي عندنا ، وعندما رجعنا إليها وجـدنا أنها نفس مخطوطتنا ، وهي نسخة كاملة لا يعتورها أي نقص ، وتضم رسائل ابن الصيرفي السبع ، فكيف وقع الأستاذ فؤاد سيد في مثل هذا اللبس ؟ لعل النسخة التي اطلع عليها في أوائل الخمسينات (طُبِعَ فهرست معهد المخطوطات عام ١٩٥٤ م) كانت ناقصة ثم أتم المعهد تصوير النسخة فيما بعد ••

وعلى كلٍّ فهـي نسخة وحيدة كاملـة ، ولكنها نسخة جيـدة مكتوبة بخط نسخي جميل واضح مشكول ، وتقـع في مئتين وست وعشرين ورقة ، مقاس الورقة (١٧ × ١٤ سم) وعدد سطورها ما بين عشرة إلى أحد عشر سطراً ، وفي حواشيها تعليقات مهمة أثبتناها جميعها في الهوامش والتعليقـات ، ويعود تاريـخ نسخها إلى القرن السادس الهجري ، ولم يذكر عليها اسم الناسخ ، ولا تاريخ الفراغ من نسخها ، وقد رأينا الأستاذ فؤاد سيد يميل إلى أنها بخط المؤلف نفسه ، ولكننا لا نميل إلى هذا الرأي ، ويدل على ذلك ما جاء في حاشية الورقة (١٣٢) في التعليق على طريقة المُحْدَثِين في الكتابة ، وهو : « قلت : هـذه الطريقة التي يشير إليها مؤلف هذه الرسائل وهو علي بن منجب بن سليمان التنوخي المعروف بابن الصيرفي قبل تصنيف ديوان رسائله

---

(١) انظر فهرس معهد المخطوطات : ١/٥١٩ •

التي في النثر والإنشاء على عشرين مجلداً ، ونرى القاضي الفاضل يستمد منه كثيراً ــ وبالجملة فهو أستاذ زمانه ــ وهذه ــ أعني الطريقة المذكورة ــ سماها علماء البديع بالتطريز » فمن الواضح أن هذا التعليق للناسخ ، ومن غير المعقول أن يكون للمؤلف ، كما أنه قد جاء في أول الرسائل وفي آخرها ما يأتي : « قال الشيخ أبو القاسم علي ابن منجب .. » ويستبعد أن يكون هذا من كلام المؤلف نفسه ، بل نرجح أنه من كلام الناسخ . وأما التعليقات الكثيرة التي كانت ترد في حواشي النسخة ، فنحن أمام افتراضين في شأنها :

أحدهما : أن تكون للمؤلف نفسه ، ولا نستبعد أن يكون الناسخ قد نقل من نسخة المؤلف الأصلية ، وربما من مسودة نسخته بالذات ، وكان أميناً في هذا النقل ، فحافظ على النسخة ، ونقل كل شيء وجده فيها بدقة وأمانة ، بما في ذلك الحواشي والتعليقات ..

وثانيهما : أن تكون للناسخ ، وكان يعقب بها بين الحين والحين كلما وجد شيئاً يتصل بما هو فيه ، وهي عندئذ تكشف عن ناسخ ثبت ذي علم ومعرفة ..

وعلى كلٍّ فهي حواشٍ وتعليقات نافعة مفيدة ، ويتصل أغلبها بذكر صاحب شعر ورد ، أو التعريف به وكشف هويته ، وقد انتفعنا بها في تخريج بعض الأشعار التي لم يرد في المتن اسم قائلها .

ولا يعتور نسبة الرسائل إلى صاحبها أي شك ، فقد ذكر اسمه في أولها وفي آخرها ، وفي أثناء النسخة في إحدى حواشيها (انظر ورقة ١٢٢) . وصحيح أن من ترجموا لابن الصيرفي لم يذكروا أن له مصنفاً بهذا الاسم (الأفضليات) ولكنهم ذكروا لنا من مؤلفاته بعض هذه

الرسائل التي تضمها مخطوطة الأفضليات ، فقد ذكر ياقوت منها رسالة عقائل الفضائل ، ومنائح القرائح ، ورد المظالم ، ولمح الملح • ويبدو أن ابن الصيرفي قد كتب كل رسالة من هذه الرسائل على حدة ، وفي فترات مختلفة خلال تلك الأيام الأفضلية التي تحدثنا عنها ، ثم جمعها بعد ذلك في مصنف واحـد ، وقد يكون هو الذي أطلق عليها اسم (الأفضليات) نسبة إلى الأفضل ، وقد يكون الناسخ هو الذي أطلق عليها هذه التسمية ••





كتاب في الآداب والإشعار ...
رسائل

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان الكاتب

هذه الرسائل التي صنفتها منذ الأيام الأفضلية

فأولها رسالة العفو التي ترجمتها استنزال

ما حرم به المجلس العالي المالكي الأفضلي مملوكه فلان

الحمد لله راحم خلقه وإن عظمت ذنوبهم وكاشف ضرهم

مما طرقهم وينوبهم والمتفضل عليهم بنعمه

وهم غافلون والآمر في محكم كتابه وهو الذي

يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم

ما تفعلون وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الذي شرفه

بالقرآن الكريم ووصفه بالخلق العظيم وفضله

الوجه الثاني من الورقة الأولى، من النسخة المخطوطة المعتمدة



2

على كافة الانبياء الذين بعثهم ، ارسلهم وامرهم ،
في اصحابه بقوله عز من قايل فاعف عنهم واستغفر
لهم وعلى اخيه وابن عمه امير المومنين علي بن ابي طالب
الذي اجاب الى الايمان مسارعا مبادرا وصفح
عن عدوه وكان عليه قادرا واعرب بشيمه عن
الشرف الصريح وسعة كرمه ان اجهز على جريح
وعلى ابنيهما الطاهرين الذين طهرهم من الادناس
صلاة دايمة الاتصال مستمرة في الغدو والاصال
وسلم وكرم ومجد وعظم احمعين
على احلاف السنها والوانها وتغاير صورها
وتباين عقولها وارايها وتفاوت اغراضها

الوجه الأول من الورقة الثانية

ومنه أُدلي فلانٌ بحُجَّتِه إذا توصَّل بما أتى به إلى بُغيته وقال

قوله تعالى ثم دنا فتدلّى وهذه الآية من باب قوله سبحانه ما إنّ

مفاتحه لتنوءُ بالعُصبة أولي القوّة وهو من المقلوب

أي تنوء بها العُصبة أولو القوّة ، وثم تدلّى فدنا وقد قال الشاعر

لا تقلواها وادلواها دلوا إنّ مع اليوم أخاه غدوا

وتقلواها بتعداه وادلواها قرّبها والدلو

ومعنى هذا أنها تقرّب إلى الماء بعد بُعده . فقول عبدها

التدلّي على التسلّي إنما معناه التوصّل إلى السلوة بأشباهها

من التأسّي وطلب الثواب وغير ذلك وقول من قال الغلوة

في التدلّي لهوة إنما هو الوصول إلى غايتها والفرق بين من قصد

التوصّل وبين من بلغ الغاية لا يخفى على أحد فقد بان تضاد

الترجمتين وتنافي الغرضين وما ضرّ من انتقد لو صبر

الوجه الأول من الورقة الأخيرة

إلى أن يقف على الرسالة، بقول المختار، ولا يعجل بأن يضع مني
لحن ما صدر عني، والله المستعان، وصبر جميل

قال الشيخ أبو القسم: كانت وفاة الأجل المظفر رضي الله عنه
يوم الخميس تاسع جمادى الأولى من سنة أربع عشرة وخمس مائة
وكانت ولادته في سنة تسع وسبعين وأربع مائة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين وسلم تسليما
حسبنا الله ونعم الوكيل

الوجه الثاني من الورقة الأخيرة



التعريف بالكتاب

والأفضليات مجموعة رسائل أدبية من أدب العصر الفاطمي ، كتبها ابن الصيرفي أحد كتاب الدواوين المرموقين ، ورئيس ديوان الإنشاء للملك الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش المصرية ، ولذلك نسبت إليه ، وعددها سبع رسائل سبق أن عددناها . ويظهر أن جفوة قد حصلت بين الكاتب والأمير ، فكان يكتب إليه هذه الرسائل في محاولة لاسترضائه ، وقد استطاع الكاتب بما أوتي من فصاحة وبلاغة ، وحسن لسن وكلام أن يؤثر في الأفضل ، فرضي عنه ، وأعاده إلى ديوان الإنشاء . وقد جاء في نهاية رسالة (لمَتَح المُلَح) تصريح بذلك ، ففي ختام الرسالة ما يأتي : « وعند عرض هذه الرسالة رضي عنه ، وأعاده إلى ديوان الإنشاء : ورقة ١٢٤ » .

وهذه الرسائل تمثل لوناً من ألوان الكتابة في العصر الفاطمي بمصر ، ونوعاً من أدب الإنشاء في هذه الفترة ، وهي لكاتب مشهور من كتاب هذا العصر ، وأديب من أدبائه كانت له طريقة خاصة في الكتابة عُدّ فيها أستاذ زمانه ، حتى وجدنا القاضي الفاضل يتأثره ويستمد منه كثيراً كما مر معنا في غير هذا الموضع .

والكتاب يطبع لأول مرة باستثناء رسالة واحدة منه هي الرسالة الأولى (رسالة العفو) فقد طبعت في دار الرسالة في بغداد عام ١٩٧٦ م ، بتحقيق الأستاذ المحقق هلال ناجي .

وقد بذلنا في إخراج هذا الأثر جهداً نسأل الله أن يكون مثمراً معطاء ، فحررنا النص تحريراً دقيقاً استقامت معه العبارات ، وراعينا علامات الترقيم مراعــاة دقيقة ، وضبطنا النص بالشكل كلما أشكل الكلام أو وجدنا ضرورة لذلك ، وخرّجنا النصوص والأشعار ، وعرفنا بالشخصيات الكثيرة غير المعروفة ، وأشرنا إلى مصادر ترجمتها .

ونرى واجباً علينا أن نتقدم بالشكر إلى مجمع اللغة العربية بدمشق لما أولانا من رعايته في نشر هذا الكتاب ، مساهمة منه في إحياء التراث العربي والعناية به .

كما ونشكر الأستاذ محمد مطيع الحافظ على قيامه بالاشراف على طباعة الكتاب وإخراجه . وعمل الفهارس الفنية له .

كما ونتقدم بالشكر للسيد محمد سعيد الدقاق لما قدم من جهود طيبة في طباعة الكتاب وإخراجه .

ونسأل الله أن يكتب السداد لما اجتهدنا فيه ، وأن يكون خالصاً لوجهه الكريم ، ولخدمة هذا التراث الإسلامي العربي الكريم ..

والحمد لله رب العالمين ..

المحققــــان

رسَالَةُ ٱلعَفْوِ



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخُ أبو القاسم عليُّ بنُ منجبِ بنِ سليمانَ الكاتبُ :
هذه الرسائل التي صنفتُها منذ الأيام الأفضلية،فأولُها رسالةُ العفو التي ترْجَمْتُها استنزالَ ... (١) مما خدم به المجلسَ العاليّ المالكيّ الأفضليّ مملوكُه فلان، الحمدُ لله راحمِ خلقه وإن عَظُمت ذنوبُهم، وكاشفِ ضرهم فيما يطرُقُهم وينوبُهم ، والمتفضّلِ عليهم بنعمه وهم غافلون ، والقائل في محكم كتابه : « وهو الذي يقبل التوبةَ عن عبادِهِ ويعفُو عن السيئاتِ ويعلمُ ما تَفعلونَ » (٢) وصلى الله على سيدنا محمدٍ نبيه الذي شرّفه بالقرآن الكريم ، ووصفه بالخُلُق العظيم ، وفضّلَهُ [٢] على كافة الأنبياء الذين بعثهم وأرسلهم ، وأمره في أصحابه بقوله ـ عزّ من قائلٍ ـ : « فاعفُ عنهم واستغفر لهم »(٣) وعلى أخيه وابنِ عمه أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالبٍ الذي آجاب إلى الإيمان مُسارِعاً مُبادِراً ، وصفح عن عدوه وكان عليه قادِراً ، وأعربت شيمُه عن الشرف الصريح،ومنعه كرمُه أن يُجهِزَ على جريح، وعلى آلهما الطاهرين الذين طهّر بهم من الأدناس صلاةً دائمةً

(١) هكذا وردت ، ويبدو أن كلمة سقطت فأفسدت الكلام ، وأضاف صاحب مطبوعة رسالة العفو كلمة (رحمة) ليستقيم الكلام .

(٢) الشورى : ٢٥

(٣) آل عمران : ١٥٩

الاتصال . مستمرةً في الغُـدُوِّ والآصال ، وسلَّم وكرَّم ومجَّد وعظَّم . أجمعت البريَّةُ على اختـلاف ألسنتها وألوانهـا ، وتغايُرِ عصورها وأزمانها ، وتبايُنِ عقولهـا وآرائها ، وتفـاوُت أغراضها وأهوائها أن أفضلَ ما اكتسبه المرءُ في وُجُودِه،وأشرفَ مامُنِحَهُ من كرمِ الله تعالى وَجُودِه ما يُوَفَّقُ له من إصلاحِ أخلاقِ النفسِ وتهذيبِها ، وتبليغها غايةً تجود الخواطرُ فيها وتهذي بها ، وإن مَنْ أدرك ذلك فقد نال الرتبة العليَّةَ ، وحاز السعادة الحقيقيَّةَ ، لأنه حصل على فضيلة الذات ، ووصل بها إلى أعظم اللذَّات ، وهذه قضية لا تنتقِضُ ، ومقدمـة لا يخالِفُ أحـدٌ فيهـا ولا يعترِضُ . فأما النتيجةُ عنها فهي فعلُ الحَسَنِ والمثابرةُ عليه ، والتنزُّهُ عن القبيح وإن دعتِ المكافأةُ إليه [٣] وأفضلُ الحَسَنِ ما بقَّى ذكرَ المرء بعدَه ، وجعله بالوصف قريباً وإن أطالتِ الأيامُ عهدَه ، إذ كان بقاءُ ذكرِ الإنسان عمراً يستجِدُّه ، وكنزاً يَدَّخِرُهُ لوارثه ويُعِدُّه . ومن أمثالهم : (البِشرُ أحد الجُودين ، والذكرُ أحد الخُلودين ، والبيانُ أحد السِّحرين ، والثناءُ أحد العُمْرَين) وما أحسنَ قولَ أبي الطيب (١) :

كَنَـلَ الثناءُ له بردَّ حياتِـه لمـا انطوى فكأنَّه مَنْشُورُ

وقد سبقه إلى هذا المعنى غيرُه . قال التيميُّ (٢) :

---

(١) ديوانه : ٢/١٣١ . من قصيدة يرثي بها محمد بن إسحاق التنوخي ، وأولها :

إني لأعلـمُ واللبيبُ خبـيرُ أن الحياةَ وإن حرَصتُ غرورُ

(٢) صوابه التميمي ، وهو عبد الله بن أيوب ، ويكنى أبا محمد . والبيت في شرح حماسة أبي تمـام للتبريزي : ٣/٨ ، في منصور بن زياد ،

رُدَّتْ صنائِعُهُ عليه حياتَه فكأنَّه في طيِّهِ مَنْشُورُ

وقال آخر (١) :

طَوَتْهُ المنايا والثناءُ كفيلُهُ

بردُ حياةٍ ليس يُخْلِقُها الدَّهْرُ

وبعد أبي الطيب قال مهيارُ (٢) :

أفنَى الثراءَ على الثناءِ لعلمِهِ أن الفناءَ مع الثناءِ خُلُودُ

وإذا تُؤمِّلَتِ المناقبُ التي تُخْلِدُ حسنَ الذكر ، وتَمَثَّلَتْ صوراً تُستَشَفُّ في مرآة الفكر ، وُجِد أحسنُها منظراً ، وأشفُّها جوهراً ما كانت النعمة فيه تتعدَّى ، والآمالُ تتعرض نحوه وتتصدَّى، فلذلك عُظِّم ربُّ المنائح والصِّلات ، وفُضِّل المُتَنَفِّلُ بالصدقة

وروايته :

ردت صنائعه إليه حياته فكأنه من نشرها منشور

وهو بلا نسبة في الأوائل للعسكري : ١/٤ ، وهو في الكامل للمبرد : ٤/٢٩ مع جملة أبيات تنسب لكثير في رثاء عمر بن عبد العزيز ، ولكنها غير موجودة في ديوانه . وهو في الموازنة : ١/١٢١ منسوب للعتابي .

(١) البيت في المختار من شعر شعراء الأندلس : ١٠٨ ، وهو لموسى بن عمران البصري .

(٢) ديوانه : ١/٣٢٩ وروايته :

أفنى الثراء على الثناء وعلمه أن الفناء مع الثناء خلود

وهو من قصيدة كتب بها إلى الوزير كمال الملك أبي المعالي وأولها :

تهوى ـ وأنت مُحَـلأٌ مصدودُ ـ ماءَ النقيب وإنه مورودُ

علـى المتنفّل بالصّلاة ؛ وذلك [أن] (١) المصليَ لا تتجاوزه مثوبتُه ما صَنَعَ ، والمتصدِّق فقد نفع غيرَه وهو لا محالةَ قد انتفـعَ .
وهذا أمر قائم الدليل ، واضحُ برهانِ التفضيل . ثم إن هذه النعمة [٤] المشتَرَكةَ بين مُنْعِمٍ عليه بها ، ومُنْعِمٍ يُثاب بسببها ، تنقسم في قسمين أيضاً : أحدُهما البرُّ المعهودُ والصدقةُ المعروفة ، والآخرُ العفوُ عن الجرائم التي تأبى احتمالَها الطباعُ العزوفةُ . وتفضيلُ من يعفو عـلى من يتصدَّقُ فرضٌ واجب ، وترجيحُه عليه أمر متعـيّن وحق لازِب ؛ لأن المتصدِّقَ لا يتجـاوز حالاً مختلَّـة يَسُدُّ خَصاصَتَها وفاقَتَها ، والعافيَ عن الذنوب فقد يحقن دماءً يُوجِب العدلُ سفكها وإراقَتَها . فالأول يُولي جميلاً ويُحْسِنُ صنيعاً ، والثاني يُحيي نفيساً « ومنْ أحياها فكأنّما أحْياَ الناسَ جميعاً » (٢) فبينهما هـذا التفاوت الـذي لا يخفى قَدْرُهُ ، والتبايُنُ الـذي لا يستَتِرُ على ذي تصوُّرٍ أمرُهُ ، فقد استقر بهـذه السِّياقة أن العفوَ أكرمُ الخصالِ ، وأعلى منازل الكمالِ ، وأحمدُ الأفعال عاقبةً في العاجلة والمآلِ . ومن لطائف الله تعالى بأهل هذا العصرِ ، ومواهبهِ التي تتعدى مدى الإحصاءِ والحصرِ ؛ أنْ جعل هذه الفضيلة التي قام بها البرهانُ على أنها الأُولى في العددِ ، وارتفع الخلاف في كونها الأَوْلى بتعظيم كلِّ أحد ، أغلبَ الخِلالَ عـلى خلائق مولانا الملكِ السيِّد الأجلِ الأفضلِ أمـيرِ الجيوش ، سيفِ الاسلام ، ناصرِ الإمام ، كافلِ قضاة المسلمين ، وهادي دعاةِ المؤمنين ، عَضَّدَ اللهُ ملكَه بالتخليد ، وشدَّ ببقائه [٥] أَزْر الإيمان والتوحيد ، الذي ملأ جمالُه العيونَ ، وصدَّق إحسانُه الظنونَ ، ووَضَحَتِ الدلائل على أن مثلَه لم يكن قطُّ ولن يكونَ :

(١) زيادة يستقيم بها السياق .

(٢) المائدة : ٣٢

هَيْهَاتَ قامت معجزاتُ العُلا
فيه وماتتْ آيةُ الانفراد

جَلَّ عن الناسِ فما عابَهُ
شيءٌ سوى تشبيهِهِ بالعباد

ثم إنه بسط اللهُ اقتدارَه ، وأعز أولياءَه وأنصارَه لم يعرضَ من الصفح بما أَلِفَ ، ولم يقنعْ من العفو بما عَرِفَ مما يجود منه على الجاني ببقاء روحِهِ ، ويحول به بين المجرم وبين سُكنى ضريحِهِ ، حتى أبان من التذَاذِهِ بالغفرانِ ، وإحسانه إلى من قابل نعمته بالكفرانِ ماجعل المذنبين يتقرَّبون إليه بالجرائر، والمسيئين يتوسَّلون عنده بالكبائر ، فحمدوا خطأَهم وما عَهِدْنا الخطأ مع غير كرمه يُحْمَدُ ، وجحدوا براءَتهم وما عرفنا البراءَةَ لولا فيضُ فضله تُنْكَرُ وتُجْحَدُ ، وصارت إساءتُهم من مواتِّهم إليه وشوافِعِهم ، وجنايتُهم من حرماتِهم لديه وذرائِعِهم . فما أصدقَ ما قال أحدُ شعراءِ مجلسه العالي شيَّدَ اللهُ مبانيَه ، وبلَّغَ كلاً من مماليكه آمالَه وأمانيَهُ (١) :

وَسِعَتْ مراحمُكَ الجُنَاةَ بأَسْرِهم
وأَقَلْتَ كُلاً منهُمُ عثراتِهِ

وجَزَيْتَ مرتكبَ الكبيرةِ منهُمُ الـ ....
.... حُسْنَى فأصبحَ شاكراً زلاتِهِ

---

(١) في الحاشية إنهما لابن الحوَّاري .

وهذا المعنى وإن كان مجيدو الشعراءِ قد ألموا به ، وأبدعوا فيه ، وسلكوا منه مذهباً لا يسلُكُهُ [٦] غيرُهم ولا يقتفيه ، كقولِ مهيارَ (١) ــ وهو من المُستَحسَنِ المختارِ ــ :

وإذا الإباءُ المُرُّ قال لك : انتقمْ
قالتْ خلائِقُكَ الكرامُ : بل احلُمِ

شَرْعٌ من العفوِ انفردْتَ بدينِهِ
وفضيلةٌ لسواكَ لم تتَقَدَّمِ

حتى لقد ودَّ البريءُ بأنَّه (٢)
أدلى إليك بفضلِ جاهِ المجرمِ

فإنه في أوصاف مولانا ــ أدام اللهُ ملكه ــ صدقٌ وحق ، وفي مدائح غيره من الملوك زُورٌ ومذْق ، ولسنا نطلق هذا الحكمَ خالياً من شاهد يصحِّحه ، ولا عاطلاً من قياس يُبَيِّنه ويوضِّحه . فنقول : إن كلَّ خَلَّة شريفة ، وكلَّ فضيلةٍ لملك أو خليفة ، مما يُتَدَاول بالروايات ، ويتَنَاقل بالأخبار والحكايات ، مثل ما اشتَهَر من عدل كِسرى أنوشروانَ (٣) . وانْتَشَر من وَرَع عمرَ بنِ عبد

(١) ديوانه : ٣/٢٣٥ من قصيدة يمدح بها مؤيد الملك أبا علي الرُّخَّجي ، ويشكر توالي أياديه عنده ، ويهنئه بمقدمه إلى بغداد من واسط بالنيروز . وأولها :

ما المجد إلا بالعزيمة فاعزم — من لم يغامر لم يفز بالمغنم

(٢) في الديوان : لَوَ انَّه .

(٣) في الأصل : نو شروان .

العزيز بنِ مروانَ ، ومثل ما ذُكِر من حزامة الجعدي ، وشُكِر من سماحة المهدي ، ووُصِف من صبر المُعتَضِدِ ، وعُرِف من سياسة المُعتَضِدِ ، إلى غير ذلك من الفضائل التي شهدت لهم بحسن الأثَر ، وتضمنها ما ثبت من أخبارهم في التواريخ والسِّيَر ، ولم نعلم أحداً اشتَهر بالعفو اشتهارَ المأمونِ حتى كأن هذه المَنْقَبَةَ عليه موقوفة ، وكأن الأمة مدفوعــةٌ عنها مصروفة . وأبهرُ ما حوتْه من آياتــه ، وأكثرُ ما تضمنتْه من معجزاته ، عَفْوُهُ عن ابراهيمَ بنِ المهديِّ عَمِّه ، وتكرمُه [٧] في تجرع غيظه منه وكظمِه ، وقد شاع ذلك عنه وذاعَ ، وملأ ذكرُهُ ووصفه الأسماعَ ، وإنما هو شخص مُفْرد ، ورجل واحد ، وصِنْوٌ لأبيه . وكــلُّ عمٍّ أبٌ ووالد . وقد كان استشار فيه منْ ثبت عنده عقلُه وفهمُه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أكرهُ أن يُقَالَ يوماً : أخوه ، ويوماً : عَمُّه . وهذا كلام يرفع القلبُ له حجابَه ، ويعلم سامعُه صحتَه وصوابَه . فلو انتقم منه لظاهَرَ بالقساوة والعقوق ، ولو شفى غيظه لجاهر بالإضاعة للحقوق ، وأيضاً فإنه وصل إلى بغدادَ عُقَيْبَ استخفاء إبراهيمَ واستتارِه ، واستقر بها بعد خمول ذكره وخمود نارِه ، فما ظفر به حتى انكسرت مغائظُه ، وتناقصت حُقُودُه وحفائظُه ، وتمكن له من السلطان ما ترفَّع معه أن يأتيَ الانتقامَ ، وحصل له من الاقتدار مارغبتُه في ثناءٍ إذا تَقَضَّت الأيامُ ثبت وأقامَ ، ومــع ذلك فما كان يقين إبراهيمَ بعفو المأمونِ حسناً ، ولا اعتقادُه في صَفْحِه قوياً من قلبه ولا متمكناً ، ومن دلائل ذلك أنه كان عند وثوبه اقترض مالاً كثيراً مــن التجار ، وكــان فيه لعبد الملك الزياتِ والدِ محمدٍ عشرةُ آلاف دينار ، فلما لم يَتِمَّ

أمرُه لَوَاهُمْ أموالَهم ، فعمل محمدُ بنُ عبدِ الملك (١) الزياتُ [٨] قصيدة يخاطب بها المأمونَ ، وقال فيها عند ذكر إبراهيمَ ابنِ المهديّ :

ووالله ما مِنْ توبةٍ نَزَعَتْ به
إليكَ ولا حُبٌّ نواه ولا وُدُّ

فلا تتركنْ للناسِ موضعَ شُبْهَةٍ
فإنكَ مَجْزِيٌّ بحسْبِ الذي تُسدِي

فكمْ غَلَطٍ (٢) للناسِ في نصبِ مثلِه
بمنْ ليس للمنصورِ بابْنٍ ولاالمَهْدِي

فكيفَ بمنْ قد بايَعَ الناسُ فالتَقَتْ
ببيعتِه الركبانُ غَوْراً (٣) إلى نَجْدِ

ومنْ صكّ تسليمُ الخلافةِ سمعَهُ
يُنادَى به(٤) بينَ السماطَيْنِ من بُعْدِ

وأيُّ امرِىء سمَّى بها قطُّ نَفْسَهُ
ففارقها حتى يُغَيَّبَ في اللَّحْدِ

---

(١) في الحاشية : (الوزير قبل وزارته) والأبيات في ديوانه : ٢٢ ، من قصيدة طويلة يهجو بها ابراهيم بن المهدي ، وانظر الخبر مع بعض الأبيات في العمدة : ١/ ٦٤
(٢) في الديوان : فقد غلطوا للناس .
(٣) في الديوان : ركبان غور .
(٤) في الديوان : تنادى بها .

فإنْ قلتَ قد رامَ الخلافةَ غـــيرُهُ
فلمْ يُؤْتَ فيما كان حاولَ مَن جَدٍّ

فلم أَجْزِهِ ــ إذ خَيَّبَ اللهُ سعيَهُ ــ
على خَطَأٍ قد كانَ منه (١) ولا عَمْــدِ

وَلَمْ أرضَ بعد العفوِ حتى رفَدْتُه
وللنِّعَمُ أولى بالتَّغَمُّــدِ والرِفْــدِ

فليس سواءً خـــارجيٌّ رمى بـــه
إليك سَفَاهُ الرأيِ والرأيُ قد يُرْدِي

وآخـــرُ في بيتِ الخلافـــةِ تلتقي
به وبك الآباءُ في ذِرْوَةِ المجــدِ (٢)

وعرضها على إبراهيمَ ، ولم يكن محمد حينئذ من أهل النباهة ، ولا من أرباب الوجاهة ، فسأله إبراهيمُ كِتمانَها، واستحلفه على ذلك ، وأدّى مالَ أبيه دون مال جميع التجار . فلو كان واثقاً بعفوِ المأمونِ لما التفت إلى هذا الإغراء ، ولا عَرَّجَ على هذا الافتراء ، وكيف يثقُ به وهو لم يخلُ في أيامه من الترويع ، ولا سَلِمَ من مخاوف التعنيف والتقريـــع ؟! لا جَرَمَ أنه ما أمِنَ حتى قضى المـأمون نَحْبَهُ ،

---

(١) في الديوان : إذ كان منه على عمد .

(٢) في ديوانـــه :

وآخر في بيت الخليفـــة جنـده   وهل يجمع القينُ الحسامين في غمد

ولا اطمأن إلى أن مضى [٩] ورضوه ... (١) حتى قال أحدُهم في بعض ما خَدَمَ به من القصائد :

فإنْ تعفُ عنهم فانفِهمْ عن ديارِهم

وإن تنتقمْ فاضربْ مَنَاطَ القلائدِ

فخالف — خلَّد الله ملكَه — منْ أتى بهــذا القول مشيراً ، وشملهم من العفو بما بَدَّل ناعيَهم بشيراً . عــلى أنَّا ما علمنا ملكاً حُرِّضَ على مُحَرَّمٍ فَعَفَّ ، ولا خليفةً حُمِل على مكروه مُسيءٍ فتأخر عنه ولا كَفَّ . هــذا سُدَيفُ بنُ ميمونٍ (٢) دخــل على أبي العباسِ السفَّاحِ وعنده سليمانُ بنُ هشامٍ فأنشده :

لا يَغُرَّنْكَ ما ترى من أُنــاسٍ

إنَّ بــين الضلوعِ داءً دَوِيَّا

فَضَعِ السيفَ وارفَعِ السَّوْطَ حتى

لا ترى فوق ظهرِها [أمويــا] (٣)

فقال سليمانُ قتلتَني يا شيخُ ، قتلك اللهُ ، ونهض أبو العباسِ فوضع المنديل في عنق سليمانَ ، وقُتِلَ من ساعته . ودخل شبل بن

---

(١) حدث سقط في الكلام لا ندري مقــداره أدى إلى خلل في السياق كما هو واضح .

(٢) البيتان في شعر سديف بن ميمون : ٣٠ ، والعمدة : ١/٦٢ ، والشعر والشعراء : ١/١٨٠ ، وسديف شاعر حجازي غير مكثر ، وهو مولى لبني هاشم، وكان شديد التحريض على بني أمية (انظر الأعلام : ٣/١٢٦) .

(٣) غير مقروءة في الأصل ، وقد أثبتناها من شعر سديف والعمدة .

عبد الله (١) على عبد الله بن علي (٢) فأنشده محرضاً على بني أمية وعنده منهم ثمانون رجلاً (٣) :

أصبحَ الملكُ ثابتَ الأساسِ
بالبهاليلِ من بني العبَّاسِ

منها :

لا تُقيلَنَّ عبدَ شمسٍ عِثاراً
واقطعَنْ كل رقلةٍ (٤) وأواسي (٥)

ذُلُّها أظهرَ التوددَ منها
وبها منكُمُ كحزِّ المَواسي

ولَقَدْ غاظني وغاظَ سوائي
قربُها مِنْ نمارقٍ وكراسي

أنزلُوها بحيثُ أنزلها اللـ
ـهُ بدارِ الهوانِ والإتعاسِ [١٠]

---

(١) فوقها تعليق : (المعروف بالهراش) وفي الحاشية : (شبل هذا من موالي بني هاشم) .

(٢) فوقها تعليق : (السفاح) والخبر والأبيات في العمدة : ١/٦٣ مع تغيير طفيف في رواية بعض الأبيات .

(٣) وردت هذه الأبيات في شعر سديف: ٢٢ منسوبة له ، وكذلك في الأغاني: ٤/٣٤٧ ولكنها وردت منسوبة لشبل بن عبد الله الهراش في العمدة : ١/٦٢ ، والعقد الفريد : ٤/٤٨٦

(٤) في الحاشية : (الرقلة ، النخلة الطويلة) .

(٥) فوقها تعليق : (وغراس) وهي رواية أخرى وردت في بعض المصادر . وفي الحاشية : (والأواسي جمع آسيّة ، وهي الأسطوانة) .

واذْكُرُوا مصرعَ الحسينِ وزيدٍ

وقتيلاً بجانبِ المهراسِ (١)

والقتيلَ الذي بحرّانَ أمْسَى

ثاوياً بينَ غربةٍ وتناسِ

نِعمْ شبلُ الهراشِ مولاكَ شبلٌ

لو نجا من حبائلِ الإفلاسِ

فلما سمع ، تنكّر ، وأمر بهم فقُتِلوا ، وألقَى عليهم البُسطُ ، وجلس للغداء ، وإنّ أحَدهم لَيُسْمَعُ أنينُه لم يَمُتْ بعدُ . وقد قيل : إن المخاطب بهذه الأبياتِ أبو العباس السفاحُ ، ويروى أنه قال لشبل : لولا أنك خلطتَ كلامَك بالمسألة لأغنمتُك جميعَ أموالهم ، ولعقدتُ لك على جميع موالي بني هاشمٍ . وقال العبديُّ الشاعرُ :

دخلتُ على عبد الله بن عليٍّ السفاحِ ، وعنده من بني أمية اثنان وثمانون رجلاً ، والغَمْرُ بن يزيدَ بنِ عبدِ الملك جالسٌ معه على مُصَلاه ، فاستنشدني ، فأنشدتُه قصيدتي الرائيةَ (٢) :

وقف المتيَّمُ في رسومِ ديارِ

وهو مُطرق حتى انتهيتُ إلى قولي :

---

(١) في الحاشية كلام لم يقرأ .

(٢) الخبر والأبيات جميعها في العمدة : ١/٦٣ ، والخبر مع البيت الأول في عيون الأخبار : ١/٢٠٧

أما الـــدعاةُ إلى الجِنَانِ فهاشمٌ

وبنو أميَّـــةَ من دعـــاةِ النـارِ

أَأُمَيَّ مالكِ من قـــرارٍ فالحقي

بالجِنِّ صاغرةً بأرضِ وَبَـــارِ [1]

ولئن رحلتِ لتَرْحَلِنَّ ذميمـــةً

وكَذا المقـامُ بذِلَّةٍ وصَغَـــارِ

قال : فرفع الغمر رأسه إليَّ وقال : يابنَ الفاعلة ، ما دعاك إلى هذا ؟ فضرب عبد الله بقلنسُوتِه الأرضَ ، وكانت العلامة بينه وبين أهل خراسانَ ، فوضعوا عليهم العُمُدَ حتى ماتوا ، وأَمر بالغمر فقتل صَبْراً • [١١] •

وكان ابنُ حزمٍ أميراً على المدينة ، فتحامل على الأحوصِ الشاعرِ تحاملاً شديداً ، فَشَخَصَ إلى الوليـــد بنِ عبد الملك ، فأنشده قصيدةً رائيةً أيضاً يمتدحه فيها ، فلما بلغ منها إلى قوله الذي يشتكي ابنَ حزم ويتَظَلَّمُهُ :

لا تَرْثِيَنَّ لحزميٍّ ظفـــرتَ به

يوماً ولو أُلْقِيَ الحزميُّ في النارِ [2]

---

(١) في الحاشية : (وبار قبيـــلة بادت كما بادت جرهم ، وأرضهـــم من معازف الجن) •

(٢) ديوان الأحوص : ١٣٢ ، ورواية البيت :

لا تأوين لحـــزمي رأيت بـــه ضرا ولو طرح الحزمي في النار

النّاخسينَ بمروانٍ بـذي خُشُبٍ
والداخلينَ عـلى عثمانَ في الدارِ (١)

فقال له الوليد : صدقتَ ، والله غفلنا عن حزمٍ وآل حزم . ثم كتب عهد عثمان بن حيّانَ المُريّ على المدينة ، وعزل ابن حزم ، وأمر باستصفاءِ أموالهِ وأموال آله ، وإسقاطِ جميعهم من الديوان .

وهذه الحكاياتُ والأخبار فلها أشباهٌ كثيرة وأنظار لو تُوُسِّعَ فيها لطال بابُها ولم يتضمنْ مع ذلك استغراقُها واستيعابُها .

وبعدُ فكل ملك إذا أخذ أهبة مملكته تكبَّر ، وإذا انتصب في مقر عظمته طغى وتجبَّر ، ومولانا ـ خلَّدَ الله ملكَه ـ إذا علا دَسْتَهُ وَرَقِيَ سريرَه رأى الناسُ أفضل الملوك سيرة ، وأحسنَهم مع الله سريرة ، لا يعجل بالعقاب ، ولا يؤجِّل الثواب ، ولا يتجاوز في حكمه الصواب ، ولا يمنع أحداً يستقصي الحجَّة ويستوفي الخطاب [١٢] هذا على انبساط قدرته ، واعتلاء شأنه وانتشار هيبته ، واتساع سلطانه ، وإنه إذا استقر في منصبه ، وحفَّ الأكابر والعظماء به ، وحضر رسل الملوك وسفراؤهم لديه ، ووقف الأماثل سماطَيْنِ بين يديه ، وأُذِن لمن ببابه من أعيان الوفود ، وغصت الأماكن الفسيحة بالعساكر والجنود ، وتعرض الخدم لامتثال المراسم ، واشتكت إليه الأرض من وقع المياسم ، رأيتَ شرف الدنيا وعِزَّ الأبدِ ، وسلطاناً عظيماً قويَ المَدَدِ ، وملكاً كثيراً لا ينبغي لأحد ، ونظرتَ الأنوار قد سطعتْ وأشرقتْ ، والأبصار قد خضعت وأطرقت ، وشاهدت

(١) في الديوان : والمقحمين على عثمان في الدار . وانظر الخبر والأبيات في العمدة : ١/٦٤

مقاماً مَهيباً ، ومنظراً هائلاً ، وأَلْفَيْتَ كل لسان معقولاً بالمخافة وقد كان جائلاً قائلاً ، وتمثلتَ ضرورةً بقول الله تعالى في محكم الكتاب : « هذا عطاؤُنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغيرِ حسابٍ »(١) فالله تعالى يجعل مملكته مخلّدة ، وسُعُودَه أبداً مجدَّدَة ، وقلوبَ الأداني والأقاصي جنوداً في طاعته مجنّدة بفضلِه وقدرتِه وجودِه ومشيئته .

وإذ قد قام الدليلُ على شرف العفو وفضله ، وتعيَّن بالواجب تعظيمُ من كان من أهله ؛ فلا بد في هذه الرسالة من ذكر شيء مما جاء فيه ، وإيراد [١٣] طَرَفٍ في الاستعطاف والاسترحام ؛ إذ كانا من أسبابه ودواعيه .

فَصْل

مما جاء في العفو

قال اللهُ عَزَّ من قائل : « فاعفُ عنهم واصفحْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسنينَ »(٢) .

وقال : « وَلْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا ألا تُحبونَ أنْ يغفرَ اللهُ لكمْ »(٣) وقال : « فَمَنْ عفا وأصلحَ فأجْرُهُ على اللهِ »(٤)

(١) سورة ص : ٣٩

(٢) المائدة : ١٣

(٣) النور : ٢٢

(٤) الشورى : ٤٠

وجاء في الحديثِ عن النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم أنه قال : (إذا كان يومُ القيامة يُنَادِي مُنادٍ ألا فليقمْ مَنْ كان أجرُه على الله ، فلا يقومُ إلا منْ عفا) وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لو لم تُذْنِبُوا لجاء اللهُ بقوم يُذْنِبُونَ ثم يستغفرونَ فيغفرُ لهم) وما أحسنَ قولَ بعض الزهّاد : إن الله ـ عزّ وجلّ ـ أمر بالعفو ، وهو لا يكون عن البريء ، وإنما يكون عن المذنب المُسيء . ألم تسمعْ إلى قول الله تعالى : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » (١)
فوالله ما قال : على إحسانهم ، ولا على عدلهم .

الحسنُ بن هانئٍ وهو آخر شعر قاله (٢) :

يا ربِّ إنْ عَظُمَتْ ذنوبي كثرةً
فَلَقَدْ علمتُ بأنَّ عفوَكَ أعْظَمُ

إنْ كانَ لا يرجوكَ إلا مُحْسِنٌ
فمنِ الذي يرجُو ويدعُو المجرمُ ؟

أدعوكَ ربِّ كما أمرتَ تَضَرُّعاً
فإذا رددْتَ يديْ فَمَنْ ذا يَرْحَمُ ؟

مالِيْ إليكَ وسيلةٌ إلا الرَّجا
وعظيمُ عفوِكَ ثم أنّي مُسْلِمُ [١٤]

---

(١) الرعد : ٦

(٢) الأبيات في ديوانه : ٦١٨ . ورواية البيت الثاني :
فبمن يلوذ ويستجير المجرم .

حُكِيَ عن بعض ملوك العجم أنه أُتِيَ بأسير عظيمِ الجُرم ، فقال له : لو كانَ هواي في العفو عنك لخالفتُه الى قتلك ولكن لما كان هواي في قتلك خالفته إلى العفو عنك . وعفا عنه . فمن بركة العفو أنه صرف هذا الملكَ عن موافقة هواه ، وعَدَلَ به إلى متابعة هداه وتقواه .

ذُكر أن أحد خدم الملوك قال له يوماً : إني لأتعمَّدُ الخطأ في خدمتك ، وليس ذاك جهلاً بشرف طاعتك ، [فقال : وما يَحمِلُكَ على ذاك ؟ فقال رأيتُك شديدَ السرور] (١) إذا عفوتَ ، فقصدتُ ما يؤدي إلى مسرتك . ومن ها هنا أخذ ابنُ القمّي قوله :

وعبدُك إنْ يأتِ الذنوبَ فإنما
تَعَمَّدَ أنْ يهفو لأنْ تتغَمَّدا

وكان أبو محمدٍ الخازن (٢) قد بَعُدَ عنِ الصاحب وفارق خدمته ، ثم عاد إليه ، فتلقَّاه بالترحيب ، وجعل إقالته العثرة سالمة من اللوم والتثريب ، فكتب إلى أبي بكرٍ الخَوَارِزْمِيّ كتاباً منه : ولقد كنتُ أحسب العفو عني حِلْماً ولا أُقَدِّر ما جنيتُ يُعقِبُ حِلْماً ، فكأني ما خطوت إلا في التماس قُرْبَة ، ولا أخطأتُ إلا لتأثيل إيثارٍ ومحبّة (٣) .

---

(١) إضافة من الحاشية .

(٢) هو عبد الله بن أحمد الخازن من شعراء أصبهان . له ترجمة في اليتيمة : ٣/٣٢٥ ـ ٣٢٩

(٣) رسالة الصاحب بن عباد هذه مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ في اليتيمة : ٣/٣٢٧

ولما وصل الفتكين الشرابي غلام معز الدولة أبي الحسين أحمد بن بويه إلى الشام في خلافة العزيز بالله عليه السلام ، وسيّرت العساكر إليه تقرّر الصلح بينه وبين القائد جوهر على أن ينادي بشعار الدولة ثم نقض [١٥] ذلك ، ولم يزل يقرّره ثم ينقضه ، حتى خرج العزيز بالله عليه السلام إليه ، وتولى قتاله بنفسه بعد أن أبى ما أعطاه من الأمان ، وبذل له من الإحسان . فلما ظفر به ضرب له فازة (١) ، وأمر بأن تحمل إليه أنفس الفرش والآلات ، ورد إليه كل ما عرفه من المنهوب له ، وكان جماعة قد أشاروا بأن يشهر على الفيل ، وبأن يجعل في قفص ، فأبت خلائقه إلا عفواً ، وموارد كرمه إلا صفواً . ويقال إنه أنفق في توبته إلى أن حصل في قبضته ألفي ألف دينار .

وحكى بعض البغداديين قال : كنت ببغداد في سنة ثمان وستين وثلاث مئة حين ورد كتاب أحد التجار بما فعله العزيز بالفتكين ، فوقعت ضجة ، واجتمع خلق لا تحصى ، ورفعوا أصواتهم بالدعاء له ، وخرجوا إلى مسجد براثا (٢) يدعون ، وأظهر الشيعة ما في نفوسهم من الولاء فما أمكن الملك فناخسرو (٣) إنكار ذلك لكثرة الناس . قال أبو الفتح بن المقدّر المتكلم : استدعى الصاحب أبو القاسم في بعض الأيام شراب السكر ، فأحضر قدح منه ،

---

(١) بناء من خرق تستعمله الجنود ، وهي كذلك مظلة تمد بعمود .

(٢) محلة كانت في طرف بغداد في قبلة الكرخ ، وكان لها جامع مفرد تصلي فيه الشيعة (معجم البلدان : ١/٣٦٢) .

(٣) هو عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة ، تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، وكان عالماً بالعربية وينظم الشعر (انظر ترجمته في وفيات الأعيان : ٣/٢١٨ ، والأعلام : ٥/ ٣٦٤) .

فلما أراد أن يشربه قال له أحد خواصّه : لا تشربْه ، فإنه مسموم . وكان الغلام الذي ناوله إياه واقفاً ، فقال للرجل المحذِّر له منه : وما الشاهدُ على صحة قولك ؟ قال : [١٦] أن تجرِّبَه على منْ أعطاكه، فقال : لا أستحسن ذاك ولا أستَحِلُّه . قال : فعلى دجاجة . قال : إن التمثيل بالحيوان لا يجوز . وردَّ القدحَ ، وأمر بأن يُقْلَبَ ما فيه ، وقال للغلام : انصرف عني ، ولا تدخلْ داري . وأمر بإقرار جاريْه وجِرايته عليه ، وقال : لا يُدفَعُ اليقين بالشك . ولا تَحْسُنُ العقوبةُ بقطع الرزق .

ابنُ حَيّوس (١) :

لعمريْ لقد بذَّ الملوكَ جميعَهُمْ
بأربعةٍ في غيرِهِ لن تألّفا

بأمنٍ لمنْ يخشى ، وقهرٍ لمنْ طغى
وسبقٍ لمنْ جارَى ، وعفوٍ لمنْ هفا

مَلِيٌّ بأن يأتي الجميلَ خليقَةً
إذا ما أتَاهُ المحسنون تكلّفا

---

(١) الأبيات في ديوانه : ٢/٣٩٢ ، من قصيدة يمدح بها سابق بن محمود ابن نصر بن صالح وأولها :

تخلّف عنه الصبر فيمن تخلفا ... وقد وعد القلبُ السلوَّ فأخلفا

إبراهيمُ بنُ المهديّ (١) :

لعفوتَ عما لــم يكنْ عن مثلِـــهِ
عَفْوٌ ولـم يُشْفَعْ إليك بشافــعِ

إلا العُلُوَّ عن العقوبـــةِ بعــدَما
ظفرتْ يداك بِمُسْتَكــينٍ خاضعِ

ورحمتَ أطفـــالاً كأفراخِ القَطَا
وحنــينَ والهةٍ كَقَوْسِ النازِعِ

أبو سعيدٍ الرُسْتُمِيّ (٢) :

يا بنَ الــذينَ إذا بَنَوْا شادُوا وإنْ
أسْدَوْا يداً عادُوا، وإن يعِدُوا يَفُوا (٣)

إنْ حاربوا لم يُحْجِمُوا ، أو قارنُوا (٤)
لم يندَمُوا ، أو عاقبُوا لم يشْتَفُوا

---

(١) الأبيات في الأغاني : ١٠/١٢٤ من قصيدة طويلة . ورواية البيت الثالث : وعويل عانسة . وهو إبراهيم بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور العباسي .

(٢) هو محمد بن محمد بن الحسن بن علي بن رستم ، من أبناء أصبهان وأهل بيوتاتها ، وهو من شعراء اليتيمة . والأبيات من قصيـدة في الصاحب بن عباد أولها :

كفّتك عن عذلي الدموع الوكّفُ ونهتك عن عتبي الدموع الرجف

انظر اليتيمة : ٣/٣٠٤

(٣و٤) في اليتيمة : وفوا ، قاربوا .

وَمتى استُجيرُوا أسعَفُوا ، ومتى اسْتُنْـ
لُوا أسرفُوا ، ومتى استُفيدُوا أضعَفُوا

مِهيــار :

وكــم آبقٍ من رقِّ ملكِكَ غامِطٍ
لنعمــاكَ لم ينهضْ بما قَدْ تَحَمَّلا
عفوتَ مراراً عن تمــادِي ذنوبِه
وأبطرتَه بالعفْوِ حتى تَوَغَّــلا (١)

فَصْل

في الشفاعة والاستعطاف

[١٧] لما قَتَل الحارثُ بنُ أبي شَمِرٍ الغسانيُّ المنذرَ بنَ ماء السماء ـ وهو المنذرُ الأكبرُ ، وماءُ السماء أمه ـ أَسَرَ جماعةً من أصحابه ، وكان فيمن أسر شَأْسُ بنُ عَبَدَةَ في تسعين رجلاً من بني تميمٍ ، وبلغ ذلك أخاه عَلْقَمَةَ بنَ عَبَدَةَ الشاعرَ فقصد

(١) ديوانه : ٣/١٩٦ من قصيدة قالها بعد أن سجنه الملك شاهنشاه جلال الدولة ركن الدين أبي طاهر بن بويه بسبب وشاية ، ثم أطلق سراحه ، فهو يشكر نعمته ويعرض بالساعي ، وأولها :

أما وهواها عذرة وتنصلا   لقد نقل الواشي اليك فأمحلا

الحارثَ ممتدحاً بقصيدته المشهورة التي أوَّلُها (١) :

طَحَا بكَ قَلْبٌ في الحسانِ طَرُوبُ
بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مَشِيبُ

فأنشده إياها حتى بلغ إلى قوله ·

إلى الحـارثِ الوهّابِ أعملـتُ ناقتي
لكَلْكَلِهـا والقُصْرَيَيْنِ وجيبُ

إليك ــ أبيت اللعن ــ كان وَجيفُهـا
لمشتَبِهـاتٍ هولُهُنَّ مَهِيـبُ

هـداني إليك الفرقـدانِ ولا حبٌ
له فوقَ أعـلامِ المِتـانِ عُلُوبُ (٢)

فلا تَحْرِمَنِّي نائـلاً عن جنايـةٍ
فإني امرؤٌ وسْطَ القبـابِ غريبُ

وفي كـلِّ حيٍّ قد خبطتَ بنعمـةٍ
وحُقَّ لشأسٍ من نَـداكَ ذَنُوبُ

---

(١) ديوانه : ١٠٥ ، والخبر مع الأبيات في العمدة : ١/٥٧

(٢) في الديوان : أضواء المتان · وفي حاشية النسخة : (ويروى : أجواز المتان · علوب : آبار وطرائق) ·

فقال الحارثُ : نعم ، وأذْنَبَة" ، وأطلق له شَأْساً أخـاه وجماعةَ أسرى بني تميم ، ومن سأل فيه من غيرهم .

ومن الشفاعات التي تضاعف الانتفاعُ بها لتصحيف اتفق فيها ، وقلما يُنْتَفَعُ بالتصحيف ، ما حكاه أبو عبد الله حمزةُ بنُ الحسين الأصبهانيُّ قال : ورد على الفرزدق البصرَة مولىً له من البادية ، فأخبره أنه خلّف بِسَفَوَان (١) امرأةً قد عاذت بقبر أبيه غالبٍ ، فرد الفرزدق مولاه من فوره إلى سفوان (٢) .... [١٨]

عليُّ بنُ الجهمِ (٣) :

---

(١) في الحاشية : (سفوان على أميال من البصرة) .

(٢) بعد ذلك سقط في الكلام لا ندري مقداره ، وتتمة القصة أنه عندما حضرت المرأة سألها الفرزدق عن سبب استجارتها بقبر أبيه فقالت : إن لي بالسند ابناً قد جمّر منذ سنين ، وقد فزعت في فكه إليك لتتلطف في استيهابه . فكتب الفرزدق الى تميم بن زيد القيني عامل خالد القسري على السند أبياتاً طويلة منها :

فاقفل حبيشاً واتخذ فيه منّةً لغصة أم ما يسوغ شرابها

فاطلق تميم كل من كان اسمه : حبيش ، أو خنيس ، أو حنيش ، وعددهم أربعون فأمر لكل منهم بخمسمائة درهم ، وقال : فنفوا جميعاً الى حضرة أبي فراس (انظر الخبر في التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني : ١٤) .

(٣) ديوانه : ٧٧ من قصيدة كتب بها الى المتوكل وهو محبوس . أولها :

عفا الله عنك ألا حرمة تعود بعفوك أن أُبعَدا

لئِنْ جلَّ ذنبٌ ولم أعْتَمِدْ (١) :

لأنتَ أجلُّ وأعلى يَدَا

أقِلْني أقالَكَ مَنْ لم يزلْ

يَقِيكَ ويصرفُ عنك الرَّدَى

سعيدُ بنُ حميدٍ (٢)

اغتفِرْ (٤) زلَّتي لتحرزَ فَضْلَ ال ....

....عَفْوِ عنّي ولا يَفُوتُكَ أجرِي

لا تَكِلْني إلى التَّوَسُّلِ بالعُذْ ....

.... رِ لعلّي أنْ لا أَقُومَ بعُذْرِي

كاتبُ بكرٍ :

ولو أنَّ فِرْعونَ لمَّا طَغَى

وقالَ على اللهِ إفْكاً وزُورَا

أنابَ إلى اللهِ مُسْتَغْفِراً

لَمَا وَجَدَ اللهَ إلا غَفُورَا

---

(١) في الديوان : أعتمده .

(٢) كاتب مترسل ، ولد ببغداد ، قلده المستعين العباسي ديوان رسائله . توفي سنة ٢٥٠ هـ . والبيتان في كتاب رسائل سعيد بن حميد وأشعاره : ١٢٨

(٣) في شعر سعيد : اغتنم .

الشهْزُوري (١) :

يَسْتَوْجِبُ العفوَ الفتى إذا اعتَرَفْ

بِمَا جَنَاهُ وانْتَهَى عَمَّا اقْتَرَفْ

بقوله : (قـل للـذين كفـروا

إن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لهم ماقد سَلَفْ)

مهيار (٢) :

أُعيذُكَ بالمجـد المُحَسَّدِ أن يُرى

جَنَابُكَ عني ضيقاً وهْوَ واسـعُ

وأعجبُ ما حُدِّثْتُه حفظُكَ العُـلا

وعبدُكَ (٣) في أيـام ملكِكَ ضائعُ

أبو إسحق الصابي (٤) :

---

(١) هو أبو حفص الشهزروري ، من شعراء اليتيمة مـن ظرفاء الأدباء والشعراء ، وكان في بصره سوء ، وقد ورد على الصاحب وأنشده شعراً . والبيتان في اليتيمة : ٣٩٢/٣ ، وهما كذلك في اليتيمة : ٣١٦/١ وقد نسبا هناك لعبد المحسن الصوري .

(٢) ديوانه : ١٩٦/٢

(٣) في الديوان : ومثلي .

(٤) البيتان في اليتيمة : ٢٩٦/٢ من قصيدة كتب بها الصابي الى عضد الدولة وقد خرج الى الزيارة بالكوفة ، وأولها :

توجهتَ نحـو المشهـد العلـم الفَرْد

علـى اليُمْن والتوفيـق والطـائر السعـد

أمولايَ مولاكَ الــــــذي أنتَ ربُّه
إليكَ على جَوْرِ النَّوائِبِ يَسْتَعْدِي

وَهَــذي يدي مُدَّتْ إليكَ بقصَّةٍ
أُعِيذُكَ فيها من إبـــاءٍ ومِنْ رَدِّ

والمملوك مقرِّر هذه الرسالة خدمة كان رفعها إلى المجلس العالي المالكي ــ خلد اللهُ سلطانه وشيَّد أركانَه ــ وهي : « وأيوبُ إذْ نادى ربَّــه أنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمــــينَ [١٩] فاستجبْنَا له فكشفْنَا ما به من ضُرٍّ » (١) لو كان للمراحــم عن الشِّيَم الشريفــةِ الأفضلية مَعْدِل ، أو للعواطف عنها مرجعٌ أو موئِل ، لما مَنَعَ ذلك ذوي العقول من قصد الجنابِ الكريم المالكي الأفضلي وقوفاً بآمالهــم في رحيبِ ساحاتِه ، وتخييماً برجائهــم في مَصُونِ عَرَصَاتِه ، إذ كان كلُّ مملوك فإلى مالكه معاذُه ومفزعُه ، ولسلطان عصره ملاذه وإليه مرجعُه . فكيف وأنواعُ الرأفة إلى مولانا ــ خلَّــد اللهُ ملكـــه ــ منسوبةٌ ، وأقسامُ العواطف من سمائه مُسْتَنْزَلَةٌ مطلوبةٌ ، والجرائم عنده ــ وإنْ عَظُمَتْ ــ مسموحٌ بها مرهوبةٌ على أن سطوتَه بالإجماع مَخُوفَةٌ ، وهيبته مرهوبة . لا جَرَمَ أن الله تعالى خصه من الرحمة بما هو معدود من صفاته ، وأفرده من الخصائص ببدائع الفضل ومعجزاته . والله أحكم بتدبير خلقه ، وأعلم حيث يجعل رسالاتِه . والمملوك يُقَبِّلُ الأرض بالمقام الكريم ، ويُنهي ما هو عليه من ضر قد قصَّر عنه جَلَدُهُ ، وضاق فيه بروحــه جَسَدُهُ ، وأصار راحمَه من كان يَحْسُدُهُ . وقــد

---

(١) الأنبياء : ٨٣ ــ ٨٤

تهكَتْه العطْلَةُ والبَطالَة ، وأطـال الزمانُ دفاعَه عن الحظ ومطَالَه ، وله حُرمةُ من نشأ في ظل دولته القاهرة ، وفاضت عليه سحائب مكارمه الغامرة [٢٠] ورُبّيَ في دواوين مملكته السعيدة ، وتبيَّن بالمسير تحت ركابه في الأسفار القريبة والبعيدة، وما نعرف ذنباً أتاه كَفَرَ به نعمتَه وإحسانَه ، ولا أنه خرج في الإخلاص له والعبودية عما هو عليه لله سبحانه ، لكنه يعلم أن أحداً من المماليك لا يكون في أمر يكرهه ويَسُوؤُه إلا لذنب متقدّمٍ أحصاه الله ونَسُوه ، فلذلك يعترف بين يديْ مولاه ومالكه بمثل ما اعترف به أول مخلوق إلى بارئه وخالقه ، فيقول : « رَبَّنَا ظلمنا أنفُسَنَا وإنْ لَمْ تغفِرْ لنا وترحمنا لنكونَنَّ من الخاسرينَ »(١) • ومعلوم أن كلَّ كبيرة تَغْرَقُ في بحار رحمته ، وكلَّ عظيمة تضيع في واسع مغفرته ، فيسوضع الله من قلبه إلا رَحِمَ منه ذليلاً ضعيفاً بين الميتِ والحيِّ ، وعبداً مملوكاً لا يقْدِرُ على شيء ، ومسكيناً يقول في استرحامه ومناجاته مثلَ ما قاله الأعرابيُّ في استغفاره ومناداته : اللهم اغفرْ لي ؛ فإنك تجِدُ من تحاربه غيري ، ولا أجد منْ يغفر لي غيرَك • وقد تَحَرَّمَ بصدق الرجاء في نجح طلبه ، واستشفع بمن لا يخيب من استشفع به :

شفيعيْ إليك اللهُ لا شيءَ غيرُهُ
وليس إلى رَدِّ الشفيعِ سبيلُ [٢١]

وقد ختم المملوكُ رسالته بهذه الخدمة تجديداً لشكوى حاله ، وطلباً للرحمة الشاملة لأمثاله ، فقد واللهِ اشتدَّ ضُرُّه وزاد ، وبلغ به الدَّثُورَ أو كاد :

---

(١) الأعراف : ٢٣

ومنْ كانَ في أيـــامِ ملكِكَ خامِـــلاً
ففي أيِّ ملكٍ يَسْتَرِيشُ ويَسْتَعلِي (١) ؟

بَقِيْتَ بلا بعـد يُرَجَّى (٢) انتظـــارُه
كما أنتَ إن عُدَّ الملـــوكُ بـلا قَبْلِ

آمينَ آمينَ آمينَ « وآخِرُ دعواهُمْ أنِ الحمـدُ للهِ ربِّ العالمين » (٣) وصلى اللهُ عـلى سيد المرسلين محمدٍ نبيه وعـلى آله الطاهرين ، وسلَّم تسليماً . اللهُ حَسْبُ المملوك ونعم الوكيلُ .

(١) البيتان لمهيار كما في ديوانه : ٣/٤٣ من قصيدة أولها :

أروم الوفاء الصعب بالمطلب السهـــل
وأرتاد جـــود الحب في منبت البخـــل

(٢) فوقها : (يراعى) ولعلها رواية أخرى .

(٣) يونس : ١٠

رِسَالَةُ رَدِّ ٱلمَظَالِمِ



رسالة

سماها رد المظالم

الحمدُ لله العادلِ في أحكامه ، الشامل بإنعامه ، الجاعلِ مملكةَ أرضه فيمن يستكمله ويرتضيه ، والمستخلف في تدبير خلقه من توجبه الحكمةُ وتقتضيه ، والكافلِ بالخيرة لعباده وإن كان منها ما يُباين إراداتِهم ، والفاعل فيها ما يشاء من تفاوت رتبهم وتباعد درجاتِهم ، والقائلِ في كتابه الكريم حُجَّةً للمفَوِّضين،وردّاً على المعترضين« نحنُ قسمْنا بينهم معيشتَهم في الحياةِ الدُّنيا ورفعْنا بعضَهم فوقَ بعضٍ درجاتٍ ليتَّخِذَ بعضُهم بعضاً [٢٢] سُخْرِيّاً ورحمةُ ربِّك خيرٌ ممَّا يجمعونَ » (١) .

لا إلهَ إلا هو ، له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحُكْمُ وإليه يُرجعون . وصلى الله على سيدنا محمدٍ رسولِه الذي شرَّفه واجتباه ، وأظهره على من خالف دينَه وأباه ، وفضَّلَه على مَنْ سبقه من الأنبياء وتقدَّمَه ، ومكَّنَه ممنْ عصاه وأباح بحد سيفه دمَه ، وعلى آله الأئمةِ الطاهرين الذين أوجب لهم على عباده إيثاراً وحباً ، وقال — عزَّ من قائلٍ — : « قلْ لا أسألُكُمْ عليه أجراً إلا المودَّةَ في القُربَى » (٢) وسلَّم عليهم أجمعين سلاماً متصلَ الدوامِ ، باقياً ببقاء الليالي والأيامِ . قد اتفق أولو الدِّراية والعقل ، وأجمع ذوو الرواية والنقل ، على أن أحوال الأزمنة معلومة من سِيَرِ ملوكها ، وأن

(١) الزخرف : ٣٢

(٢) الشورى : ٢٣

هذا المُعْتَقَدَ طريقة لا ضَلالَ في سلوكها ، وذلك في تفاضل الأيام هو السبب والعِلَّة ، والحُجَّةُ التي قامت علـى صحتها البراهـينُ والأدِلَّة . وهـذا أصل قوي يعبِّد طريقَ الإفصاح عمـا قصدناه ، ومعنىً جلِيٌ يمهِّد سبيل الإيضاح لما أردناه ، فنقول : قد ثَبَتَ بالعيان والسماع ، وعُرِف بالوفاق والإجماع شرفُ هذا الزمن الذي عمت فيه السَّعَةُ ، وعظُمَتْ به المنفعةُ ، وأُمِنَ فيه ما يُخْشَى ويُتَوَقَّى ، وأَخَذَت مطالبُ أهليه تسمو وتترقَّى ، ولم يبقَ إلا من غدت [٢٣] أمانيُّه متحكِّمة عـلى زمانه ، وآماله متأكِّدةَ الثقة بكفالة الحظ وضمانه . وهذا بحسن سيرة مولانا الملكِ السيِّد الأجلِّ الأفضلِ ، أمير الجيوش سيفِ الإسلام ، ناصر الإمام ، كافلِ قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، الذي خضعت لدولته جبابرةُ الملوك ، وتنزَّهَ اليقـينُ بذلك عن اعتراض الشكوك ، وارتفعت صفاته عن استطاعة مخلوق وقدرته ، وثبتَتْ معجزاتُه فقامت بعذر المقصِّر في تقريظها وحُجَّتِـهِ ، فإذا طالعتِ الأبصارُ نور بهائهِ ارتـدَّت عنه وكلَّتْ ، وإذا سلكت القلوبُ نَهْجَ علائه حارت فيه وضلَّت ؛ لأن مناقبه أعلى من أن يسموَ إليها المدح والصفة ، ومفاخِرَهُ أعظمُ من أن يحيطَ بها الإدراكُ والمعرفة :

هـذي مناقِبُ قـد أغنـاه أيْسَرُها
عنِ الـذي شَرَعَتْ آبـاؤُه الأُوَلُ

قد جاوَزَتْ مَطْلِعَ الجوزاءِ وارتَفَعَتْ
بحيثُ يَنْحَطُّ عنهـا الحُوتُ والحَمَلُ (١)

(١) البيتان من شعر المؤلف ابن الصيرفي وهما في معجم الأدباء : ١٥/٨١

ومن أوضح براهينه لمن تمسَّك بالحق وتعلق بأسبابه ، وأقوى الدلائل على سرِّ الله الكريم وعنايته تعالى به ؛ أن المجتهد في وصفه لا يخشى من يناقِضُه ، ولا يَخَافُ من يعارِضُه ، ولا يتَّقِي من يحمِلُه على المبالغة والغُلُوّ ، ولايعلم أحداً ينسبه إلى الظلم والعُلُوّ ، بل لا يعدَم [٢٤] من إذا سمعه استقصر وتَدَمَّى ، وإذا استنزر ما أتى به نَكَصَ ولم يجد وزرا ، هذا إن اعتقد أنه وفَّى الامتداح حقَّه ، وعفَّى مذاهبَ الانتقاد وطُرُقَه ، وتيقَّن تأديته الفريضة مُكَمَّلَة ، وقضاءَه إياها مرضية (١) متقبَّلَة . فأما إذا سلك المحجَّة القويمة ، وتنكَّب السبيلَ المكروهة الذميمة ، واستعذَبَ قول الحق فأقر بعجزه ، واعتمد على تصريحه دون إشارته ورمزه ؛ فقد نافى ذوي التهمة والظَّن ، وأجَرَّ ألسنةَ أولي العيب والطعن . وهذه حالنا فيما نورده من أوصافه ، وقضيتُنا في شكر الله سبحانه على تسليكه علينا واستخلافِه. ونحن الآن نذكر المُراد بهذا الجزء الذي جعلْنا الخدْمةَ به قُرباناً ، ورجونا بما نحونا فيه سعادة أُولانا وأُخرانا .

فَصْلٌ (٢)

اعلم أن النظر يقتادُ كل عاقل مميِّزٍ ، ويضطر كل منتسب إلى العلم متحيِّز ، إلى الإقرار بأنه أشرفُ الملوك وأكملُهم ، وأعمُّهم

(١) فوقها تعليق : (مرتضاة) .

(٢) فوقها التعليق التالي : (في شرف السيد الأجل الأفضل في أنه أفضل من تقدمه من الملوك وأشرفهم) .

بضروب الرحمة وأشملهم . وبرهان ذلك أنه إذا تأمل الموجودات متيقظ . ورتبها في مراتبها .... (١) زمن الأهواء متحفظ ، فأشرفها [٢٥] بلا مخالفة في ذلك الحيوان ، ثم المخصوص بالنطق منه وهو الإنسان ، ثم مدبرو المدن الذين عضدتهم القوى الملكوتية ، وفاضت عليهم الأنوار الإلهية ، ثم الأقرب منهم فالأقرب . والأمثل فالأمثل ، ثم الجامع لذلك وهو مولانا الملك السيد الأجل الأفضل . وهذا مالا خفاء به ، ولا لبس فيه ، ولا ريب يبعده عن محض الحقيقة وينفيه ، فهو سيد أهل الأرض مذ فخرت البسيطة بظهوره ، وسلطان هذا الخلق مذ استقر في دسته ، واستوى على سريره ، وظل الله الممدود على كافة المقرين بكلمة التوحيد ، وصفوته الثابت علمها من جهة الاستدلال لا من جهة التقليد . فلا سبيل لعاقل أن ينكر ذلك ويجحده ، بل الواجب على كل ناطق أن أن يقوم بين يديه وينشده :

مَنْ شكَّ أنكَ مَخْلوقٌ لِتَملكَهُ

كمثلِ مَنْ شكَّ أنَّ اللهَ خلاَّقُ

على أن مقامه الشريف يجعل كل بليغ لكِناً ، ويعيده حَصِراً ، وقد كان فصيحاً لَسِناً :

هُوَ موقفٌ تُغضي العيونُ مهابةً

فيهِ ويَعْثُرُ بالكلامِ المنطقُ

(١) كلمة مطموسة في الأصل .

وقد ازدحمت بفِنائهِ ضروبُ الأمم، وتواصلت إليه ملوك العرب والعجم ، وهاجروا نحو بابه راجين مُهْطِعين ، وأمُّوا ظلَّه لاجئين إليه منقطعين [٢٦] ولقد ورد منهم اثنان مُتباعِدا الأُفقَيْن ، مُتَبَاينا المنطقين وهما ملكا غانةَ وفرغانةَ ، فأزال من قلب كلٍّ منهما أحقادَه على الدهر وأضغانَه ، فاعتبِروا يا أُولي الأبصار كيف أحسن حتى إلى الدهر فأصلح القلوب له ، وجعل ذلك من شكر الله على ما قَمَّصَهُ إياه وَسَرْبَلَه . وهذا إشارة إلى القدرة التي خُصَّ بها ، والعظمةِ التي استقر في أشرف منصبِها . وإذا تأملنا ما سَفَرَ فيه البيان وتبرَّج ، وأسفرَ به صبحُ الإبداع وتبلَّج ، وأخرجت منه الضمائر جواهرَ كانت مستترة ، ونظمت به الخواطر عقوداً ما زالت منتثرة ، وجدنا ضروباً من الأقوال مُتَّسعة ، وأصنافاً من المِدَح متشعبة متنوِّعة ، تدعو الناظرَ المحرِّر ، والمتأمِّلَ المتصوِّر . والعاملَ بفريضة العدل تَعَرُّضاً لجزائه ، والمناضلَ عن الحق رغبةً في انتسابه إليه واعتزائِه ، إلى القول إنَّ كلَّ لسان انطلق في أيامه بخدمة ملوكيَّة فما قصد غيرِ مدحِه ، وكلَّ بيان انبعث في أوصافه حقيقية فما أراد سوى تفصيلِ ذلك وشرحِه ، فلله در أبي نواس إذ يقول :

وإنْ جَرَتِ الألفاظُ يوماً بمدحة
لغيرك إنساناً فأنت [الذي نعني] (١)

(١) ما بين المعقوفين مطموس في الأصل ، وقد أكملناه من الديوان : ١٥٤ والرواية هناك : منا بمدحه . والبيت من قصيدة يمدح بها الأمين ، وأولها :

ملكت على طير السعادة واليمن   وحزت إليك الملك مقتبلَ السن

وما أحسنَ قولَ ابنِ الرومي (١) : [٢٧]

إن أَسْرِقِ الشعــــراءَ شعرَهُمُ
فجــزاءُ ما سَرقُوا من المجــــدِ

سرقُوكَ مجـــدَكَ وهو مُدَّخَرٌ
من قبــــلِ أنْ تلْقَى إلى المَهْدِ

وكَسَوْهُ قوماً لا يليقُ بهــــمْ
من ماجِدٍ وَسَطٍ ومنْ وَغْــدِ

فَرَدَدْتَ حقَّكَ غــيرَ مُعتذِرٍ
منهــمْ (٢) إلى حُرٍّ ولا عَبْــدِ

فَعَمدنا إلى هذا الباب ذاكرين منه أُنموذجاً لنظائره ، واقتصرنا عليه إذ لا طمعَ لنا في ذكر سائره ، واعتمدنا على ما لم يَبْتَذِلْه الاشتهارُ ، وقصدنا ما لم يكن للألسُن به استهتار ، واجتهدنا في إيراد ما لم تُخْلِقِ الأسماعُ جِدَّتَه ، وخدمنا بما لم تَسْلُبِ الروايةُ رُوَاءَه وبهجتَه • وقد يأتي في تضاعيفه ما ليس من شرطه حسب ما يُوجبه تَفَرُّعُ التصنيف ، ويقضي به تشعب التأليف • وسمينا ذلك رد المظالم لأنه حق لمولانا •

وقد حُلِيَتْ على غير أكفائه عروسُه ، وأُديرت على غير شَرْبه

(١) ديوانه : ٦١٥ ، من قصيدة في أبي سهل بن نُوبخت •

(٢) في الديوان : منه •

كؤوسَه ، فافتَضَّتْ أسماعُهم أبكارَه ، وشربت أفهامُهم عُقارَه . وهذا ظلم من ناظمه وقائله ، وتعدٍّ من سامعه وقابله .

ومن أقسام سيرته الشريفة العدلُ في إعادة الحقوق إلى أربابها ، واستخلاصها من دار ذُلّها واغترابِها . فاستعملنا بعض سيرته في وصفه ، ورجونا الله بذلك في دفع المكروه عنا وصرفه ، والله يسعدنا [٢٨] ويوفقنا وعليه توكّلُنا ومُعتَمَدُنا .

وهذه بدايةُ الكتاب :

قال محمدُ بنُ عيسى (١) :

مَلْكُ الورى والندى والبأسِ أنصُلُه

هِنْدِيّةٌ وعطاياهُ هُنَيْدَاتُ (٢)

---

(١) في الحاشية : (ابن اللبانة) وهو أبو بكر محمد بن عيسى ، أديب أندلسي شاعر ، من أهل دانية . كان من كبار دولة ابن صمادح ، وتوفي بميورقة (انظر ترجمته في الخريدة ، قسم شعراء المغرب والأندلس : ٢/١٠٦ ، ونفح الطيب : ٤/٢٥٦ ، ووفيات الأعيان : ٥/٢٦ ، والوافي بالوفيات : ٤/٢٩٧) .

(٢) في الحاشية : (هنيدة ، مئة من الابل ، لا تنون لأنها معرفة ، ولا تدخلها الألف واللام . يقال : له من الابل هنيدة ولا يقال : له هنيدة من الابل لأنها لا تكون من غر الابل) والبيتان في الخريدة : ٢/١٠٩ . والمختار من شعر شعراء الأندلس : ١٢٣

وبدرُ سبعٍ وسبعٍ تستنيرُ به السَّـ
ـبعُ(١) الأقاليمُ والسبعُ السماواتُ

ومن قصد بهذين البيتين وما يُجاريهما صفةَ مولانا فكأنه لقول الحق إنما تلا قرآناً ، وهما على الحقيقة كغيرهما من المدائح الشريفة لأنهما لما كان مآلهما إلى العرض بالمقام الأعظم ـ ثبَّت الله سلطانه ـ وكانا يشتملان على بعض صفاته صارا كلتاهما (٢) من خدم شعراء المجلس العالي وعفاتِه . وهذا حكم باب المآل ، ونهاية التصانيف للأقوال . قال الله عز وجل : « إنِّي أراني أعصِرُ خمراً » (٣) والخمر لا يُعْصَرُ ، وإنما يُعْصَرُ العنب ، لكنه لما كان المآل إلى الخمر سُمِّي المعصورُ خمراً .

ومثله قوله تعالى : « فالتقطه آلُ فِرعونَ ليكُونَ لهم عَدُوّاً وحَزَناً » (٤) وإنما التقطوه ليكون لهم سروراً وولداً ، لكنه لما كان مآله إلى العداوة جُعل علته للالتقاط .

قال عبدُ الله بنُ محمدِ بنِ سنانِ بنِ سعيدٍ الخفاجي الحلبي (٥) : [٣٩]

---

(١) في الحاشية : (الوجه السبعة لأن الأقاليم مذكر) .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) يوسف : ٣٦

(٤) القصص : ٨

(٥) صاحب سر الفصاحة (ت : ٤٦٦ هـ) والأبيات في ديوانه : ٩٦ ـ ٩٧ ، من قصيدة يمدح بها شرف أمراء العرب أبا سلامة محمود بن نصر وأولها :

هل غادر الشعراء من يترنم   إن كان يَسمع ما أقول ويفهم

لا يَدَّعي الفصحاءُ فيك غريبةً
والبيضُ تُنْثَرُ والأسنَّةُ تُنْظَمُ

إنْ أحسنُوا عنكَ الثناءَ فإنها
نَطَقَتْ بمدحِك قَبْلَ أنْ يتكلَّمُوا

عجباً لوجهِكَ كيف بارقُ بِشْرِه
تهمي سحائِبُهُ ولا يَتَغَيَّمُ

ومن العجائبِ أنَّ بِيْضَ سيوفِهِ (١)
تبكي دَماً وكأنها تَتَبَسَّمُ

فأما الأوَّلُ فمن مليح التوريةِ وقد أتى بها في قوله (٢) :

وصفوا بياضَ يدِ الكليمِ بِمعجزٍ
فيهِ وكَمْ لكَ من يدٍ بيضاءِ

واستطرفُوا إحياءَ عيسى ميِّتاً
فَرْداً وجودُكَ باعثُ الفقراءِ

وقال (٣) :

---

(١) في الديوان : سيوفكم ·

(٢) لم نجدهما في ديوانه ·

(٣) ديوان ابن سنان : ٣٨ ، من قصيدة يمدح بها أبا سلامة محمود بن نصر وأولها :

يحاربني في كل نائبة دهري كأن الرزايا تدرك الفخر في قسري

من القومِ صالَ (١) الدهرُ إلا عليهِمُ

وصالُوا ببيضِ الهِندِ حتى على الدهرِ

أشدّ احتقاراً بالردى (٢) من حُسامِهِ

وأدنى إلى سِرِّ الأعادي علـى (٣) الذعرِ

له خُلُقٌ في المَحْلِ غَيْثٌ وفي الصَّبَا

نسيمٌ وفي جُنْحِ الدُّجى غُرَّةُ البدرِ

وقد استَعمل تركيبَ هذا البيت في موضع آخر فقال (٤) :

ما هـزَّهُ طـربُ العُقَار وإنما

أعطتْـه نشوةَ كأسِها الأخـلاقُ

هيَ في الهوَى وعْدُ الوصالِ وفي الكرى

طيفُ الخيـالِ وفي الوداعِ عِنَاقُ

وهو مأخوذ من قول ابنِ نُباتَةَ :

إنّهـا في السَّحَابِ وَبْلٌ وفي الرَّ

ريـح نسيمٌ ونَشْوَةٌ في الشَّرَابِ

(١) في الديوان : صار .

(٢) في الديوان : للردى .

(٣) في الديوان : من .

(٤) ديوانه : ٧٦ من قصيدة يمدح بها الأمير نصر الدين مكين الدولة الحسين بن علي وأولها :

في كـل يوم نشطة وفراق فمتى يكـون لدائهـا إفراق

فأما قوله :

أشَدُّ احتقاراً بالرَّدَى من حُسَامِه

فهذا الصدر يصلح أن يُعَجَّزَ بقول أبي الطيب :

وأَقْدَمُ (١) بين الجحفلينِ منَ النَّبْلِ [٣٠]

عـلى أن صدرَ بيتِ أبي الطيبِ مناسبٌ للعجُز المـذكور ؛ لأنه قال :

أَقَلُّ بلاءً بالرزايا من القَنَا

فيصير هذا العجز مع صدرين •

قال محمدُ بنُ عبادِ بنِ عمرو (٢) :

سَمَيْدَعٌ يهبُ الآلافَ مبتَـدِئاً

ويَسْتَقِلُّ عطاياه ويَعْتَـــذِرُ

(١) في الحاشية : (لما قيل لأبي الطيب : لم قلت : وأقدم ، والوجه أن يقال : أشد إقداماً ، لأنه مأخوذ من أقدم ؟ قال : إنما أخذته من قـدم لأن الاقدام على الشيء قرب منه ودنو إليه) والبيت في ديوانه : ٤٦/٣ من قصيدة يرثي بها أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة •

(٢) في الحاشية بخط مغاير : (هو ابن مكنسة) وهي حاشية غير صحيحة . فابن مكنسة هو اسماعيل بن محمد من أهل الاسكندرية ، والشاعر هنا هو محمد بن عُباد أبو القاسم الملقب بالمعتمد • والبيتان في ديوانه : ص ١٠٠ من قصيدة أولها :

سكِّنْ فؤادك لا تذهبْ بك الفكر ماذا يعيد عليك الهمُّ والسهرُ

وهما كذلك في المطرب من أشعار المغرب : ١٥ ، وفي الخريدة (قسم شعراء المغرب) ٣٢/٢

له يــدٌ كـــــلُّ جبّارٍ يقبّلُها

لولا نَدَاها لقُلْنَا : إنها الحَجَرُ

ولو أمكنه أن يقولَ الحجــرَ الأسود لكشف المراد وبيَّنَه ، وأظهر المعنى وحسَّنه . وقد اتفق ذلك لمحمودِ بنِ القاضي الموفَّقِ أحدِ مماليك مولانا، و [كاتب] انشاء دولته في قوله يصف كتابا ورده، ويذكر أن الفاتكَ والناسكَ يلقياه (١) بالتبجيل ، وقابلاه بالتقبيل كأنما قد حلَّ فيه اللَّمى ، أو ذاب فيه الحجرُ الأسود . على أن ابن مكنسة ذكر الحجر غــير موصوف ، فلم يُشْكِلِ المرادُ فيه . وسبب ذلك ما قرنه به ، وضمَّه إليه ، فقال من قصيدة أوّلُها :

لمثلِ ذا اليومِ كان السَّعْدُ يَنْتَظِرُ

منهـــا :

كأنَّكَ البيتُ قدْ طـــافَ الحجيجُ به

وفي رِكابَيْكَ حَـــلَّ الركنُ والحَجَرُ

فأما قصيدة محمدٍ المقـدَّمِ ذكرُه فإن لعبد اللهِ بنِ سنانٍ قصيدةً عـــلى وزنها وفي معناها عـــلى تقارب العصرين وتباعـد المُسْتَقَرَّيْن ، منها ما هو من شرط[٣١]هذا الكتاب . قال منها (٢) :

مَلِكٌ له سيرةٌ في العــدل مُعْجِزَةٌ (٣)

لولا الشريعـــةُ قلنـــا إنَّهـا سُوَرُ

---

(١) كذا وردت ، وصوابها : يلقيانه ، أو لقياه حتى تتسق مع ما بعدها .

(٢) ديوان ابن سنان الخفاجي : ٤٤ ، من قصيدة يمدح بها ناصر الدولة أبا علي بن ناصر الدولة الحسين بن علي بن حمدان وأولها :

السيف منتقم والجد معتذر وما عليك إذا لم يسعد القدر

(٣) في ديوانه : واذكر لهم سيرا في المجد معجزة .

قومٌ إذا طلبَ الأعــــداءُ عيبَهُمُ
فما يقولونَ إلا أَنَّهـــم بَشَــرُ

تسمو البلادُ إذا عُدَّتْ وقائِعُهُمْ
فيها وتَبْتَسِمُ الدُّنيا إذا ذُكِرُوا

إنَّ الخلافــــةَ ما زالتْ منابِرُها
إلى سيوفِهِمُ في الرَّوْعِ تَفْتَقِرُ (١)

فهـمْ (٢) صوارِمُها والبِيضُ نابيةٌ
وشُهْبُها وظلامُ الخَطْبِ مُعتكِرُ

قالَ أحمدُ بنُ عبدِ الله (٣) :

ترى الدَّهْرَ إنْ يبْطِشْ فمنكُمْ يمينُهُ
وإنْ تضحكِ الـــدُّنيا فأنتمْ لها ثَغْرُ

عَطَـــاءٌ ولا مَنٌّ وحُكْمٌ ولا هَوًى
وحِلْـمٌ ولا عَجْزٌ وملكٌ (٤) ولا كِبرُ

---

(١) في الديوان :

فهي الخلافة لا زالت منابرها   الى سيوفكم في الروع تفتقر

(٢) في الديوان : أنتم .

(٣) في الحاشية : (ابن زيدون القرطبي) والأبيات في ديوانه : ٤٠ ـ ٤١ من قصيدة يمدح بها ابن جهور ويرثي والدته ، وأولها :

هو الدهر فاصبر للذي أحدث الدهر   فمن شيم الأبرار في مثلها الصبر

(٤) في الديوان : وعز .

طريقتُكُم مُثْلَى وهديُكُمُ رِضىً
ومَذْهَبُكُمْ قَصْدٌ ونائلُكُمْ غَمْرُ (١)

وهذا ضِدُّ قول العبَّاسِ بنِ الأَحْنَفِ (٢) :

وِصَالُكُمُ هَجْرٌ وحبُّكُمُ قِلَىً
وقُرْبُكُمُ بُعْدٌ وسِلْمُكُمُ حَرْبُ

ومن مليح التقسيم قولُ ابنِ حَيّوس (٣) :

لعمريْ لقدْ بَذَّ الملوكَ جميعَهُمْ
بأربعةٍ في غيرِهِ لنْ تَأَلَّفَا

بأَمْنٍ لمنْ يَخْشَى وقَهْرٍ لمنْ طَغَى
وسَبْقٍ لمنْ جارَى وعَفْوٍ لمنْ هَفَا

وقوله (٤) أيضاً :

---

(١) في الديوان : ونائلكم غمر ومذهبكم قصر .

(٢) ديوانه : ١٩ ، والرواية هناك :

وصالكم صرم وحبكم قلىً   وعطفكم صد وسلمكم حرب

من قصيدة أولها :

ألا ليت ذات الخال تلقى من الهوى   عشير الذي ألقى فيلتئم الشعب.

(٣) سبق تخريج هذه الأبيات .

(٤) ديوانه : ٢/٤٦٢ ، من قصيدة في مدح أبي الفضائل سابق بن محمود ابن محمود ، وأولها :

ضلَّ من يستزير طيف الخيال   هل تُداوى حقيقةٌ بالمُحالِ

قَصَّرَ السابقونَ دونَ مَدَاها
وتَمَلَّكْتَهَا بستٍّ خِصَالِ

مَكْرُمَاتٌ مَعَ اعتذارٍ ، وعَفْوٌ
باقتدارٍ ، وعِفَّةٌ في جَمَالِ

وقوله (١) أيضاً :

ثمانِيَةٌ لم تَفْتَرِقْ مذْ جمعتَها
فلا افْتَرَقَتْ ما ذَبَّ عن ناظِرٍ شُفْرُ [٣٢]

يَقِينُكَ والتَّقوى ، وجودُكَ والغِنى
ولفظُكَ ، والمعنَى ، وعَزْمُكَ ، والنَّصْرُ

ومن مليح مافي هذا الباب لما تضمَّنه من ذكرِ الجواب قولُه (٢) :

وبعدَ بيتِ رسولِ الله ما فَخَرَتْ
بمثلِ بيتِكَ لا عُجمٌ ولا عَرَبُ

---

(١) ديوان ابن حيوس : ١/٢٤٢ من قصيدة يمدح بها نصر بن محمود ويرثي والده · أولها :

كفى الدين عزاً ما قضاه لك الدهر فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر

(٢) ديوانه : ١/٤٦ ولم نجد إلا البيت الأول فقط ، وهو من قصيدة يمدح بها الأمير المؤيد وأولها :

لا زلتَ تعلو وإنْ حسادُك التأبوا
أو يبلغَ الحظ ما يقضي به الحسب

والبيت الثاني غير موجود في الديوان كله ·

إنْ ناضلُوا تَضَلَّـوا ، أو فاضلُوا فَضَلُوا
أو حاربوا حَرَبُوا ، أو خاطبوا خَطَبُوا

وقد أحسن أحمدُ المُقَدَّمُ ذكره فيما أتى به من ذلك في الغَزَلِ فقال(1) :

يا بائعاً حظَّه مني ولو بُذِلَتْ
لِيَ الحياةُ بحظِّي منه لَمْ أَبِعِ
تِهْ أَحْتَمِلْ . و استَطِلْ أَصْبِرْ.وعِزَّ أَهُنْ
وَوَلِّ أُقْبِلْ ، وقُلْ أَسْمَعْ ، ومُرْ أُطِعْ

وهو كثير •

ولأحمدَ بنِ عبدِ الله (2) أيضاً :
يا خيرَ مَنْ ركبَ الجَوا(3)
دَ وسارَ في ظِلِّ اللِّواءِ
لا زِلْتَ (4) للدنيا فأَنْـ
ـتَ دَوَاؤُها مِنْ كُلِّ داءِ

---

(1) ديوان ابن زيدون : 188 من مقطوعة في أربعة أبيات •
(2) ديوانه : 117 ، من قصيدة في المعتضد وقد شرب دواء ، وأولها :
أحْمَدْتَ عاقبة الدواءِ ونلتَ عافية الشفاءِ
(3) في ديوانه : الجياد •
(4) في الديوان : وبقيت •

وَوَرِثْتَ أعمارَ العِدَا وقَسَمْتَها في الأولياءِ
وبَقِيْتَ مَفْدِيّاً بنا إنْ نحنُ جُزْنَا في الفِدَاءِ

ومثلُ هذا لحسنِ بنِ عبدِ الصَّمدِ (١) ، وقد كانا في عصر ، وإن لم يجتمعا في مصر ، فلا أدري هل تسارقا أم توافقَا :

لا زِلْتَ مخفوضَ العِدا ما عِشْتَ مرفوعَ البُنَا
تُفْدَى بنا إنْ كانَ يَرْ ضَى المجدُ أنْ تُفْدَى بِنَا

ومن أجود ما في هذه القصيدة : [٣٣]

ما أحْسَنَ المالَ إذَا صَاحَبَ ذِكْراً حَسَنَا

ومنها :

لنا الثناءُ خَالِصاً منهُ وَمَا يحوِي لنَا
شَادَ الذي بنى له آبَاؤُهُ ومَكَّنَا
عَمَمْتَ بالإحسانِ من ...... لكَ مُضَراً واليَمَنَا
يَنْقَادُ صَعْبُ اللفظِ لي سَهْلَ القِيَادِ مُذْعِنَا
كأنَّ في خواطري لِكُلِّ مَعْنىً رَسَنَا

ومن هؤلاء الشعراءِ من يُحسن في كثير مما يتصرَّفُ فيه ،

---

(١) في الحاشية : (ابن أبي الشخباء) وهو أبو علي العسقلاني ، ويقال له : الشيخ المجيد منشيء ، له خطب ورسائل جيدة كان القاضي الفاضل يحفظ أكثرها . وقتل بالقاهرة مسجوناً (انظر ترجمته في : وفيات الأعيان : ٨٩/٢ ، ومعجم الأدباء : ١٥٢/٩ ـ ١٨٤ ، والأعلام : ٢١٠/٢) .

ويتناول المعنى فيُجيده ويستوفيه ؛ فمن محاسن أحمدَ هذا ما كتب به مع تفاح أهداه إلى ابنِ عَبَّادٍ :

يا مَنْ تَزَيَّنَتِ الرِّيا ... مَةُ حينَ أُلْبِسَ ثَوْبَها
جاءتك جَامِدَةُ المُدا ... مِ فَخُذْ عليها ذَوْبَها (١)

وهذا من قول الخَليع (٢) :

الرَّاحُ تُفَّاحٌ جَرَى ذائباً
كَذلك التُّفَّاحُ رَاحٌ جَمَدْ
فاشرَبْ على جَامِدِهِ ذَوْبَه
ولاَ تَدَعْ لَذَّةَ يومٍ لِغَدْ

وقال السَّرِيُّ (٣) :

وقَدْ أَضَاءَتْ نُجُومُ مجلِسِنَا
حتى اكتسى غُرَّةً وأَوضاحا

---

(١) البيتان في ديوان ابن زيدون : ١١٩ ، وبينهما بيت ثالث .

(٢) الخليع الشامي ، أبو عبد الله . شاعر مفلق ، أدرك زمان البحتري ، وبقي الى أيام سيف الدولة فانخرط في سلك شعرائه . من شعراء اليتيمة . والبيتان في الخريدة (قسم المغرب) : ١/٨٤ ، المطرب : ١٩ . والبيت الأول في ديوان أبي نواس : ٨٤

(٣) السري الرفاء بن أحمد الكندي . من شعراء الموصل (اليتيمة : ٢/١٧٦ . معجم الأدباء : ١١/١٨٢) والبيتان في ديوانه : ٧٢ من قصيدة يستدعي بها أبا بكر محمد بن علي المراغي ، أولها :

لم آلق ريحانة ولا راحا ... إلا ثنتني إليك مرتاحا

وهما أيضاً في اليتيمة .

لو جَمَدَتْ راحُنَا اغتَدتْ ذهباً
أو ذابَ تُفَّاحُنا اغتَدى راحَا

والأصلُ في ذلك ما يُحكى من قول كسرى :

لستُ أدري : هل التفاحُ خمر جامد ، أم الخمر تفاح ذائب ؟ [٣٤] .

وقد أكثر الشعراء من وصفها بذوب الجامد ، فمنهم من يجعلها ذَوْبَ الذهب كقولِ الصَّنَوْبَرِيّ (١) :

رأيتُه والكأسُ في فِيهِ قَدْ
صَوَّبَها كَالكَوكبِ الصَّائِبِ

وجِسْمُها مِنْ ذَهَبٍ جامِدٍ
ورُوحُها من ذَهَبٍ ذَائِبٍ

وقولِ محمدِ بنِ عبادٍ (٢) :

أبْدَى لنَا من لطيفِ حكمتِهِ
في جامدِ الماءِ ذائبَ الذَّهَبِ

(١) لم نجدهما في ديوانه المطبوع . وهما في المطرب من أشعار أهل المغرب : ١٩

(٢) هو المعتمد بن عباد أبو القاسم محمد الملقب بالمعتمد (ترجمته في الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس) ٢/٢٥ ، وفي المطرب : ١٨) والبيت مع آخر في ديوانه : ٢٤ ، وفي الخريدة : ٢/٣٦ ، وفي المطرب ١٩ . والرواية : أهدى .

ومنهم مَنْ جعلها ذَوْبَ الوردِ كقوله (١) :

لاحَ وفاحَتْ روائحُ النَّدِّ
مُختصرُ الخصرِ أهْيَفُ القَدِّ

وكَمْ سَقَاني والليلُ مُعْتَكِرٌ
في جامدِ الماءِ ذائبِ الوَرْدِ

وقول الصَّنَوبريِّ :

مَنْ يَنْسَ لا أَنْسَ اتصالَ زمانِنا
ويَدُ السُّعُود على الزمانِ مُساعِدَهْ

إذ نُخْبَتِي راحٌ كوردٍ ذائبٍ
وتَحِيَّتي وردٌ كراحٍ جامِدَهْ (٢)

وكل هذا تَصَرُّفٌ في قولِ ابنِ المعتزِّ (٣) :

وَزَنَّا لهـا ذَهَباً جامِداً فكـالتْ لنا ذَهَباً سائِلا

وعلى ذكر الذهب وذوبِه فحدثني ابراهيمُ بنُ شغبٍ أنه لِيمَ فيما أنفقه على جاريةٍ له ، فقال :

---

(١) ديوان ابن عباد : ٧١ ، والخريدة ، والمطرب .

(٢) لم نجد البيتين في ديوانه المطبوع . ولكنهما في الخريدة (قسم المغرب) : ٢/ ٨٤ ورواية البيت الثاني :

إذ تَجتلي راح .... أو ينجتني ورد ....

وهما كذلك في المطرب : ١٧٥

(٣) لم نجده فيما بين أيدينا من طبعات ديوانه .

مَـا الـذَّهَبُ الصَـامتُ مُسْتكثَراً

إذْهَـابهُ (١) في الذَّهَبِ النَّـاطِقِ

قال أبو بكرٍ محمدُ بن عَمَّارٍ (٢) :

ملـوكٌ مُنَاخ العزّ في عَرَصَاتِهـم

ومَثْوى المَعَالي بينَ تلك المَعَالمِ (٣).

إذَا قَصَّرَ الروْعُ الخُطَى نهضتْ بهم

طِوالُ العَوالي في طِوالِ المَعَاصِمِ [٣٥]

وَأَيْدٍ أبَتْ من أنْ تَؤوبَ ولم تَفُزْ

بِجَزّ النَّواصي أو بِجَزّ الغَـلاصِـمِ

إذا رَكِبُوا فَانْظُرْهُ أولَ طَـاعِنٍ

وإنْ نَزَلُوا فارْصُدْهُ آخِرَ طاعِمِ

---

(١) فوقها في النسخة : ذهابه • ويبدو أنها رواية ثانية •

(٢) هو ابن عمار الأندلسي ، الشاعر المشهور ذو الوزارتين ، كان هو وابن زيدون فرسي رهان في الأدب ، وزر للمعتمد ثم جعله نائباً على مرسية فعصى ، فلم يزل يحتال عليه الى أن وقع في يده فذبحه صبراً سنة سبع وسبعين وأربع مئة • انظر ترجمته في الخريدة (قسم شعراء المغرب) : ٢/٧٢ ، والمغرب : ٢/٣٨٩ ، ووفيات الأعيان : ٤/٤٢٥ ، والشذرات : ٣/٢٥٦) •

(٣) من قصيدة يمدح بها المعتضد بن عباد وأولها :

عليَّ • وإلا ما بكاء الغمائم ‏ ‏ ‏ ‏ وفيَّ وإلا فيم نوح الحمائم

انظرها في الخريدة، والوفيات ، والمعجب : ١١٢ ، والشذرات ، والوافي بالوفيات : ٤/٢٣٣

وهذه قطعة اتَّسع فيها ، وأحسن التصرفَ في معانيها ، فقال في صفة الفَرَس :

خُذُوا بِيَ إنْ لم تَهْدِرُوا كلَّ سابحٍ
لريحِ الصَّبَا في إثْرِهِ أنفُ رَاغِمِ

من العابِساتِ الدُّهْمِ إلا التِفَاتَةً
إلى غيرِهِ (١) أهْدَتْ له ثَغْرَ باسمِ

طَوَى بيَ عَرْضَ البِيدِ فوقَ قَوائمٍ
تَوَهَّمْتُه منهنَّ فوقَ قَوادِمِ

ومن جيد ما فيها :

وليلٍ لنا بالسُّدَّتَيْنِ (٢) معاطفٍ
من النَّهرِ يَنْسَابُ انسيابَ الأَرَاقمِ

بحيثُ اتخذْنا الروضَ جاراً تزُورنا
هَدَاياهُ في أيدي الرياحِ النواسِمِ

وبِتْنا ولاَ واشٍ يُحِسُّ كأننا
حَلَلْنا مكانَ السِّرِّ من صدرِ كاتمِ

ولأبي بكرٍ هذا :

(١) في حاشية النسخة : (صوابه غرة) وكذا رواية الخريدة .

(٢) في المصادر السابقة : بالسدّيين .

مَلِكٌ إذا ازْدَحَمَ الملوكُ بموردٍ
ونَحَاهُ لا يرِدُون حتى يَصْدُرَا

قَدَّاحُ زَنْدِ المجدِ لا يَنْفَكُّ من
نارِ الوغَى إلاّ إلى نارِ القِرَى

أَيْقَنْتُ أنّي من ذَرَاهُ بجنَّةٍ
لمَّا سَقَاني من نَدَاهُ الكوثَرَا (١)

وقال أيضاً :

جَنَيْتَ ثمارَ النصرِ طيبةَ الجَنَى
ولا شَجَرٌ غَيْرُ المُثَقَّفَةِ المُلْدِ

ببدرٍ ولكنْ مِنْ مطالِعِهِ الوَغَى
وليثٍ ولكنْ مِنْ براثِنِهِ الهِنْدِي

ورُبَّ ظَلامٍ سرتَ فيه إلى العِدَا
ولا نَجْمَ إلا ما تطلَّعَ مِنْ غِمْدِ

ومنها في ذكر بلدةٍ افتتَحها وأحرقها : [٣٦]

فأرملتَها بالسيفِ ثمَّ أَعَرْتَها
من النارِ أثوابَ الحِدادِ على الفَقْدِ

---

(١) الأبيات الثلاثة في الوافي بالوفيات : ٤/٢٣٠ ، وفي الشذرات : ٣/٣٥٦ ، والبيتان الأولان في وفيات الأعيان : ٤/٤٢٦ · في مديح المعتمد من قصيدة طويلة أولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السُّرى

فيا حُسْنَ ذاكَ السيفِ في راحةِ الهُدَى

ويا بَرْدَ تلك النارِ في كَبِدِ المجدِ (١)

فقولُه أرملتَها بالسيف ، وألبستَها حِداداً بالنار ، من أحسن تركيب وأبدع تشبيه • ولقد ذَكَرَ عبدُ الله بنُ محمدٍ مثلَ ذلك ، وهو وأبو بكر متقاربا الزمن ، متباينا الوطن ؛ فهذا بالعدوة الدنيا وهذا بالعدوة القصوى (٢) • فقال وأحسن ما شاء :

غادرْتَها دِمناً على أطلالِها

يُبْكَى الخليطُ وتُذْكَرُ الأشواقُ

وشرعْتَ دينَ قِراكَ في عَرَصَاتِها

فالنارُ تُضْرَمُ والدِماءُ تُرَاقُ (٣)

وعلى هذا البيت من البهجة ، وحسن الديباجة ، مالا أعلمُ لأحد مثلَه • ولقد ذكرتُ بالنار قول الآخرِ (٤) في حريق جامعِ دمشقَ :

فأَتَتْه النيرانُ طولاً وعَرْضاً

عن يمينٍ من قُتْرِهِ ويَسارِ

(١) الأبيات جميعها في الوافي بالوفيات : ٤/٢٣١ ـ ٢٣٢ ، يمدح المعتمد ويذكر فتح ابنه قرمونة •

(٢) في الحاشية : (أبو بكر بن عمار بالأندلس ، وعبد الله بن محمد الخفاجي بحلب) •

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي : ٧٧ من القصيدة التي يمدح بها الأمير نصير الدين مكين الدولة ، وقد سبق تخريجها •

(٤) في حاشية النسخة : (هذا الشاعر ابن اقلاسنوا) •

ثُمَّ مرَّتْ علــى حدائقِ نخــلٍ
فإذَا الجمــرُ موضعُ الجُمَّـــارِ

ومن قولِ أبي بكرٍ :

كَمْ منْ شجــاعٍ قدْتَه نحو الرَدى
بِـــدَمٍ منَ الأودَاجِ كالأَرْسَانِ
رَوَّى ليضرِبَ فابتدهتَ بطعنَــةٍ
إنَّ الرمـــاحَ بدايـــةُ الفرْسَانِ (١)

وقال : [٣٧]

وفَيْتَ لربِّكَ فيمنْ غَـــدَرَ
وأنْصَفْتَ دِينَكَ مِمَّنْ كَفَرْ
ولمْ تَتَقَدَّمْ بجيشِ الرجـــا
لِ حَتَّى تَقَـدَّمَ جيشُ الفِـكَرْ
فَعـــاقَرَ سيفُكَ حتى انْحَنَى
وعَرْبَـدَ رُمْحُكَ حتى انكَـسَرْ

(١) البيت الثاني لأبي بكر في فارسين تطاعنا فسبق أحدهما الآخر . انظر الوافي بالوفيات : ٤/٢٣٢ . أما البيت الأول فليس لأبي بكر . وقد جاء في حاشية النسخة التعليق التالي حوله : « هذا البيت لأبي الفتح محمود بن القاضي الموفق ، لأنني كنت أروي البيت الثاني وحده . فسألته عمل بيت قبله يكون مطرقاً اليه ، فعمل على البديهة » .

وكَمْ نَبْتَ فيحربِهِمْ عَنْ عَليٍّ

وَنابَ عن النَّهْرَوانِ النَّهَرْ (١)

وأبو بكرٍ هذا من الأعيانِ المشهورين ، والمجيدين المذكورين ، والمحسنين في خطاب الملوك ، والمُطْلِعين باستعطافهم شمساً آمنةً من من الدُّلوك • فمن ذلك ما كتب به إلى أحد السلاطين وهو مُزْمِع على السفر لخوف لحقه منه :

أُصَدِّقُ ظَنِّي أَمْ أُصِيخُ إلى صحبي

وأُمضي عَزِيمي أمْ أعُوجُ عن الركبِ (٢)

أخــافُك للحقِّ الــذي لكَ في دَمي

وأرجُوكَ للحبِّ الــذي لكَ في قلــبي

وهذا وإن كان مأخوذاً من قولِ مهيارَ في القصيدة التي أولُها (٣):

سلِ الركبَ إنْ أعطاكَ حاجتَك الركبُ

منَ الكاعبِ الحسناءِ تنعتُهــا كَعْبُ

---

(١) الأبيات في الخريدة (قسم شعراء المغرب) ٢/٧٨ ، وفي الوافي بالوفيات: ٤/٢٣٢ البيتان الأخيران فقط •

(٢) في الحاشية : ويروى :

أأركب قصداً أم أعرج عن الركب

فقد صرتُ من أمري على مركبٍ صعب

والبيتان في الخريدة : ٢/٧٢ عـلى الرواية التي في الحاشية من قصيدة كتب بها للمعتمد وقد سفك دمه •

(٣) ديوانه : ١/١٤٦ يمدح الوزير عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم ويهنئه بالمهرجان • والبيتان كذلك في الوافي بالوفيات : ٤/٢٣٤ وقد نسبا لابن عمار •

أَحَبَّكَ وُدّاً مَنْ يخافُكَ طاعـةً
وأعجبُ شيءٍ خِيفَةٌ معهـا حُبُّ

فإنه ألَـذُّ مسموعاً ، وأحسنُ مصوغاً . وقـد أحسن الآخرُ في قوله (١) :

تَمرُّ سفيهاتُ الرِّيـاحِ بأرضِهِ
فتَرْصُنُ إجـلالاً له وتَوَقّرُ
وتشتاقُ عينيْهِ الكَرَى وتَخافُهُ
فيأتي إلى الأجفـانِ وهو مُغَرَّرُ

ومن مليحِ الوصف بالخوف (٢) : [٣٨]

مَخُوفٌ والصوارِمُ لَمْ تُجَرَّدْ
ولا أخْلَتْ مرابطَهـا الخيولُ
ويكسو الصبحَ مِنْ نَقْعٍ خِضَاباً
كَلَيْـلٍ والنُّصُولُ به نُصُولُ

وكتب إليه أبو بكرٍ أيضاً :

إنّي لَمَنْ إنْ دعـاهُ لنُصْرَةٍ
يوماً بساطا حجّـةٍ وجِـلادِ (٣)

(١) ذكر في الحاشية أنه ابن أبي الشخباء .

(٢) في الحاشية أنهما لابن حيوس . وهما في ديوانه : ٢/٥١٧ ــ ٥١٩ ، من قصيدة يمدح بها نصر بن محمود ، وأولها :

أرى سفهاً ولو جاء العذول   بحقٍ أن أقولَ كما يقول

(٣) البيتان في الوافي بالوفيات : ٤/٢٣٢ . والرواية هنـاك : دعـاك لنصرتي . وفي المغرب : ٢/٣٩١ البيت الثاني فقط .

أَذْكَيْتُ دونَكَ للعِدَى حَدَقَ القَنَا

وخَصَمْتُ عَنْكَ بألسُنِ الأغمادِ

وهـذا من أجْزَلِ عبارة ، وأجودِ استعارة . ولله مهيارُ حيثُ يقول :

وهل تَخْفَى المقاتِلُ وهْيَ بِيضٌ

على مُقَلِ الذَّوابِلِ وهْيَ زُرْقُ (١)

وقد أكثرَ الناسُ من الكناية عن السيوف ، ومن مليح ما جاء في ذلك قولُ أبي تمامٍ (٢) يصف سحابةً :

سُقِيَتْ ببرقٍ ضَرِمِ الزِّنَادِ

كأنَّهُ ضمائِرُ الأغمَادِ

وهـذا مما جُعل منه الفرعُ أصلا ؛ لأن المعتادَ أن تُشَبَّهَ السيوفُ بالبروق ؛ فتكون البروقُ أصلاً لأنها مُشَبَّهٌ بها ، وتكون السيوفُ فرعاً لأنها مُشَبَّهةٌ ، فقلب مبالغة . وقال أبو الطيب :

وأترِكُ الغَيْثَ في غِمْدِي وأَنْتَجِعُ (٣)

---

(١) ديوانه : ٢/٣٦٠ . وروايته : وهل تخص المكايد ، وهو من قصيدة كتب بهـا الى زعيم الملك أبي الحسن بن عبد الرحيم في المهرجان ، وأولها :

أما لنجوم ليلك بالمصلى مغاربُ بل أما للشمس شرقُ

(٢) ديوانه : ٤/٥١٣ ، من قصيدة في وصف المطر .

(٣) ديوانه : ٢/٢٢٢ ، وهو عجز بيت وصدره :

←

فأما الأعشى النحوي (١) فجعله جدولاً فقال :

مَلِكٌ إذا ادَّرَعَ الدِّلاصَ حسبْتَهُ
لَبِسَ الغَدِيرَ وسلَّ منهُ جَدْوَلاَ (٢) [٣٩]

ومثلُه قولُ محمدِ بنِ البَيْنِ (٣) :

وجَلَوْا ظلامَ الليلِ بالصُّبحِ الَّذي
قَسَمُوهُ بين جيادِهم أَوْضَاحَا

أأطرح المجد عن كتفي واطلبه

وهو من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويذكر وقعة له ، وأولها :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ   إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شَجعوا

(١) علّق فوقها : (هذا الأعشى أندلسي) وهو أبو عبد الله محمد بن عيسى المعروف بالأعشي القرطبى ، توفي سنة ٢٢١ هـ ترجمته في الخريدة (شعراء المغرب) ٢/١٨٦ ، والنفح : ٢/٦٢

(٢) البيت في الخريدة : ٢/١٩١

ثم ورد في الحاشية : [ولقد أحسن الآخر (حاشية : أظنه ابن السراج) في قوله :

يبيت إذا ما سار ضيفاً لسيفه   فلو جاب عرض الأرض لم يتزود]

ثم التعليق التالي : وليس من هذا الباب ؛ لأن المبيت صفة لعمله . ومدحه للضارب به · أ · هـ ·

(٣) محمد بن البين الأندلسي من شعراء المئة الخامسة ، له ترجمة في (المحمدون من الشعراء : ١٣٩ ، والمغرب : ١/٣٧٠ ، والخريدة : ٢/١٨٦ ، والذخيرة : ٢/٢/٧٩٩)والبيتان في المحمدون ، والخريدة ، من قصيدة أولها :

جعلوا رضابك كي يحرم راحا   ورأوا به قتل النفوس مباحا

وأَتَوْا بغُدْرَانِ المياهِ جَوَامِداً
قَدْ فَصَّلُوها مَلْبَساً وسِلاَحَا

وقول محمدِ بن عشانَ (١) :

أنَّى يَهابُ ضِرابَهُمْ وطِعانَهم
صبٌ بألحاظِ العيونِ طعينُ

فكأنَّما بِيْضُ الصِّفاحِ جَدَاوِلٌ
وكأنَّما سُمْرُ الرماحِ غُصُونُ (٢)

وقد سمَّاه قومٌ سليل الصَّاعقة ، وسماه آخرون طبيب النِّفاق .
وما أحسنَ قولَ الكمُّوني (٣) :

لمَّا التقى أسَدُ العرينِ وشَادِنٌ
تحتَ الإزَارِ وصَارِمٌ بَتَّارُ

---

(١) في الحاشية : (ابن الحداد) وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف ابن أحمد بن عثمان بن ابراهيم المعروف بالحداد القيسي ، من أهل المرية (انظر ترجمته في الذخيرة ، قسم شعراء المغرب : ٢/٢٧١ ، والمحمدون من الشعراء : ٩٩ ، والوافي بالوفيات : ٢/٨٦ ، والاحاطة : ٢/٢٥٠ ، ونفح الطيب : ٤/٩٨) .

(٢) البيتان في الخريدة : ٢/٢٧٨ ، ونفح الطيب : ٤/١٠١ من قصيدة طويلة يمدح بها المعتصم بن صمادح .

(٣) لعله أبو بكر محمد بن علي بن عبد الجبار الكموني الذي ورد له ذكر في الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٠٤

قالتْ : أرَى بيني وبينكَ ثالثـاً
ولقـدْ عهدْتُكَ بالـدخيلِ تَغارُ

أَأَمِنْتَ نَشْرَ حدِيثِنا ؟ فأجبتُها
هـَذَا الـَّذي تُطوَى به الأَسْرارُ

ومن غريب التصرف في وصفه ، قولُ الآخرِ (١) :

عَفَّرتَ في سَهكِ التُّرابِ خُدودَهم
حتى ظننَّـا أنهـا تَتَشَيَّـعُ

وتركتَ في عفرِ التُّرابِ رُؤوسَهُـمْ
في الأرضِ تَسْجُدُ عن سيوفٍ تركَعُ

وقوله أيضاً :

جعلتَ رؤوسَ القومِ عُرسَ سيوفِنا
تُعَصفَرُ من أوداجِهِمْ وتُطَيَّبُ

إذا وعَدتْها البيضُ صادِقَ وعدِها
بعثتَ لها البِيضَ الرِّقاقَ تُكَذِّبُ

ومن قوله :

إذَا سلَبَتْهُ عَزْمَةٌ منْكَ غِمْدَهُ
كستْهُ نَجِيعاً فَهْوَ يُكْسَى ويُسْلَبُ

(١) في الحاشية : (ابن أبي الشخباء) .

وإنما أخذه من قول السَّري (1) : [40]

يكسوهُ من دمِهِ ثوباً ويَسْلُبُهُ
ثيابَهُ فَهْوَ كاسِيهِ وسالِبُهُ

وأخذه السَّريّ من قول البحتري (2) :

سُلِبُوا وأشْرَقَتِ الدماءُ عليهِمُ
محمَّرةً فكأنَّهُمْ لم يُسْلَبُوا

وقد جعلها ابنُ حيوسٍ صوالجَ ، فقال (3) :

لكَ اليومُ الذي شابتْ قرونٌ
به مِنْ بَعْدِ أنْ فَنِيَتْ قرونُ

بحيثُ بَنَيْتَ مُرهَفَةَ المواضي
صَوَالِجَ والرؤوسُ لها كُرينُ

وكُرين : جمعُ كرة ؛ لأنه يُقال في جمعها كُرات وكرين ؛ ولهذا

---

(1) ديوانه : 18 ، واليتيمة : 2/126 من قصيدة قالها في سيف الدولة ، وأولها :

فتح أعز به الاسلام صاحبه ورد ثاقب نور الملك ثاقبه

(2) ديوانه : 1/76 ، واليتيمة : 2/126 من قصيدة يمدح بها إسحاق ابن ابراهيم المصعبي ، وأولها :

عارضنا أُصُلاً فقلنا : الربرب حتى آضاء الأقحوان الأشنبُ

(3) لم نجدهما في ديوانه .

أُخِـذَ عـلى القائـلِ (١) في وصفِ النارنـجِ :

كأنَّ السمـاءَ همَتْ بالنُّضارِ
فَصاغَتْ لنا الأرضُ منهُ أُكَرْ (٢)

وعلى أبي نُواسٍ قبله في قوله في أرجُوزته :

يَحدُو بِحُقَبٍ كالأُكَرْ (٣)

قال ابنُ جِنِّي : قد أخطأ في جمع كرة على أُكَر ، فإن كان أراد جمع أُكْرَة وهي الحفرة ، فشبَّه الأُتُنَ في استدارتها بالحفر المدورة، فقد أحال المعنى . ومن البديع قولُ ابنِ حَيُّوسٍ (٤) :

قَدْتَ الجحافِلَ لم يَقُدْ مِعْشارَها
كِسرى الملـوكِ ولا رآها تُبَّـعُ [٤١]

قَوْمٌ إذا رامُوا ممالِكَ غـيرِهم
حَصَدوا ببيضِ الهِنْدِ مالمْ يَزْرَعوا

---

(١) في الحاشية : (أبو الحسن الصقلي) وهو علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الكاتب الصقلي الأنصاري ، من شعراء القرن الخامس (انظر ترجمته في الخريدة : ١/٢٥ ، وانظر ديوانه المطبوع) .

(٢) ديوانه : ٥٢ ، من أبيات يصف فيها النارنج .

(٣) ديوانه : ٤٣٩ ، من أرجوزة يمدح بها الفضل بن الربيع . وفي حاشية النسخة : (الحقب : جمع حقباء ، وهي الأتان التي على حقوها بياض . شبهها في تدويرها وامتلائها بالكرات) .

(٤) ديوانه : ١/٣١٨ ـ ٣١٩ من قصيدة طويلة يمدح بها تاج الملوك محمود بن صالح .

وقولُ ابنِ المحترقِ :

صِيغَ من المـــــاءِ وصِيغَتْ لَهُ
مِنْ لَهَبِ النـــيِّرانِ حَـــــدّان

وهذا نَقْلُ بيتِ ابنِ نُباتَةَ (١) في وصف سِكّين :

ما أَبْصَرَ الراؤُونَ (٢) من قبلِهـا
مـــاءً ونَاراً جُمِعَـا في مَكَانِ

على أن المملوك قد فعل ما فعله ابنُ المحترِق ، فقال في وصف سيف مُرَصَّعٍ :

سيفٌ تُقَامُ الحدودُ بحـــدِّهِ ، ويجتمـــعُ الماءُ والنّارُ في غِمْدِهِ ،وَيَتَنَازَعُ ذوو الوصفِ في جوهَري ترصيعه وفِرِنْدِهِ ،
وقد أخذه حسن بن عبد الصمد (٣) ، فقال :

فَلَمْ أرَ مـاءً قَبْلَه مُتَرَقْرِقاً
يُخَالِطُهُ ذاكَ اللظَى المُتَلَهِّبُ

---

(١) ابن نباتة السعدي ، أبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نباتة المتوفى سنة : ٤٠٥ هـ (انظر ترجمته في اليتيمة : ٢/٣٨٠ وفي وفيـات الأعيان : ٢/٣٦٢) والبيت في ديوانه : ٢/٢٤ ، واليتيمة : ٢/٣٩٣

(٢) في ديوانه : ما أبصر الناظر .

(٣) في الحاشية : (ابن أبي الشخباء) .

إلا أن حسناً استعمله في الغزل وهو يصلح صفةً للسيف .

ومن الشعر ما يحتمل معنيين ، ولم يقصد الشاعر إلا أحدَهما ، كقول والبةَ بنِ الحُبَابِ في صفة الورد :

مثلُ الشُّمُوسِ طَلَعْنَ في الأَغْصَانِ [٤٢]

ويصلُحُ أن يدخُلَ في باب الغزل .

وقول السَّرِيِّ (١) في شبكةِ صيَّادٍ :

وهــل يَفَاتُ لحظُها أو يُسْبَقُ

وكلُّهــا نَوَاظِــرٌ لا تَطْرِقُ

وهذا يَصْلُحُ أن يُوصفَ به فهد ، وقد نقله ابن السَّراجِ إلى وصفه فقال :

تَنَافَسَ الليـلُ فيهِ والنَّهارُ معاً

فَقَمَّصَاهُ بجِلبَابٍ مِنَ المُقَلِ

ومن محاسن هذه القصيدةِ :

يُقَصِّرُ الغيثُ عن آثارِ جودِكُمُ

فحمرةُ البرقِ في قُطْرَيْهِ كالخَجَلِ

وقد استعمل غيرُه هذا المعنى فقال (٢) :

---

(١) ديوانه : ٢٠٤ ، والرواية هناك :

وهل يفوت لحظة أو يسبق   وكله نواظر لا تطرق

(٢) في الحاشية : (ابن أبي الشخباء) والبيتان له كما في وفيات الأعيان : ٢/٩٠ مع اختلاف يسير في الرواية .

يجودُ بالماءِ غيثُ الأُفْقِ مُنْقَطِعاً
وغَيْثُ كفِّكَ بالأموالِ مُتَّصِلُ

جارَى نَدَاكَ فلم يَظْفَرْ بِبُغْيَتِهِ
فَذَلِكَ البرقُ في حَافَاتِهِ خَجِلُ

ثم أتى بزيادة على ذلك فقال من أُخرى :

مَنَعَتْ مكارِمُهُ رويَّتَهُ
فَنَدَاهُ طولَ الدهرِ مُرْتَجِلُ

جَارَتْ نَدَاهُ السُّحْبُ فارْتَجَعَتْ
عنه ووابِلُ ودْقِها وَشَلُ

فالرَّعْدُ في أثْنَائِها ضَجِرٌ
والبرقُ في أرجائِها خَجِلُ

وقال(١) :

قَدْ قُلتُ إذ قالُوا : يداهُ سحابةٌ
سَحَبَتْ ذُيولَ مُجَلْجِلٍ هَطَّالِ

لا تضرِبُوا مثلاً له في جُودِهِ
فحقيقةُ الأَمثالِ للأمثالِ [٤٣]

(١) في الحاشية : (أعني ابن أبي الشخباء) .

وأبلغُ من هذا قولُ الآخرِ (١) :

ضربُوا لكَ الأمثالَ في أشعارِهم
لكنني بكَ أضربُ الأمثالا (٢)

فأما ما تقدّم من وصف السيف بالماء والنار فقد نُقِلَ وبُولغَ فيه .

أنشدني ابنُ مكنسة قولَه في الخمر من أبيات :

أيام عودك مطلولٌ بوابلها
والدهرُ في عقلِهِ من مَسّها خَبَلُ

تَنْزُو إذا قَرَعَتْها كَفُّ مازجِها
كأنّما نارُها بالماءِ تَشْتَعِلُ

وقولَه في وصف كأس :

وخَضِيبةٍ بالراحِ يَجْلُوها عليكَ خَضِيبُ راحِ
ما زالَ يقدَحُ نارَها في الكأسِ بالماءِ القَراحِ

(١) البيت لأبي الحسن السلامي ، وهو محمد بن عبد الله بن محمد المخزومي السلامي البغدادي (٣٣٦ ـ ٣٩٣ هـ) انظر ترجمته في اليتيمة ٢/٣٩٨

(٢) شعر السلامي : ٨٨ من قصيدة في مؤيد الدولة ، أولها :

وصل الخيال ومنك رمت وصالا هذي الزيارة لا تعد نوالا

والبيت كذلك في اليتيمة : ٢/٤٠٠

وقوله من أبيات :

كلّما سلّطَ المِزاجُ على نارِها اشْتَعَلْ (١)

وهو من قول الآخر :

كَمْ جَوًى مَثّلَهُ رَسْمٌ مُنْتَحِلْ
ودَمٌ قَدْ طُلَّ أثْناءَ طَلَلْ
وأَدَرْنا لهباً في ذَهَبٍ
كلّما أُخْمِدَ بالماءِ اشْتَعَلْ

وكأنه مأخوذ من قول البحتري (٢) :

كلُّ جَوْنٍ إذا التَقَى (٣) البَرْقُ فيه
لَمَعَتْ (٤) للعيونِ بالماءِ نارُهْ

وقال محمدُ بنُ عيسى يصف أبياتاً بعثَ بها بعضُ الملوكِ إليه (٥) :

---

(١) في حاشية النسخة كلام طمست بعض كلماته ، وقد قرأنا منه مايأتي : (قال ابن قتيبة ... اسم مؤنث لا علم ... الباب فقد يجوز لك أن تذكره ، مثل : السماء ، والأرض ، والقرش ، والحرب ، والعدو ، والنار ، والشمس . حكى ابن الأعرابي عن ابنة الحسن أنها قالت في وصف ناقة بشدة الضَبَعَة ....، فذكرت العيس لأنه ليس لها علم من أعلام التأنيث) .

(٢) ديوانه : ٢/٩١٧ ، من قصيدة يمدح بها علي بن محمد الفياض وأولها :

شط من ساكن الغوير مزاره وطوته البلاد فالله جاره

(٣-٤) في الديوان : ارتقى ، أو قدت .

(٥) البيتان في شعره : ١٦ ، وفي الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٠٨ من قصيدة كتب بها الى المعتمد جواباً على أبيات أنفذها اليه وذلك بعد خلعه ، وأولها :

بروق الأماني دون لقياك خلّب ومشرق أفق لم تلح فيه مغرب

بعثتَ بها يا واحدَ الدهرِ قطعةً
هِيَ الماءُ إلا أنَّها تتلهَّبُ

فجئْتَ بها في الحسنِ وَرْقاءَ أيْكَةٍ
ولكنَّها في العُدْمِ عَنْقاءُ مُغْرِبُ [٤٤]

ومن مليح ما وُصِفَ به الشعرُ قولُ الآخرِ :

وقَوافٍ ليستْ تُفَارِقُ مَغْنَا
كَ على أنها تجوبُ البِلادَا

وقبيحٌ أنْ أَدَّعي الفَضْلَ فيها
بَعْدَ أَنْ أَنْطَقَتْ عُلاكَ الجَمادَا

وكتب إليه أبو بكرٍ في يوم غيم وقد احتجب (١) :

تَجَهَّمَ وجْهُ الأُفْقِ واعتلَّتِ النَّفْسُ
بأَنْ لم يَلُحْ للعينِ أَنْتَ ولا الشمسُ

فإنْ كانَ هذا منكما عن تَوَافُقٍ
وضمَّكُمَا أُنْسٌ فَيَهْنِيكُمَا العُرْسُ

وقال ابن خَلَصَةَ (٢) :

---

(١) البيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٨٠

(٢) هو أبو عبد الله البصير محمد بن خلصة الشذواني الأندلسي . كان من النحويين المقتدرين ، وكان كفيفاً . توفي في حوالي سنة سبعين

ملكٌ تَمَلَّكَ حُرَّ الحمدِ ، لا يدُهُ
نالتْ بظلمٍ ولا مالتْ إلى بَخَلِ

لَمْ تدرِ قبلَكَ عينٌ أنها بَصُرَتْ
بالغيثِ والليثِ والرِّئْبالِ في رَجُلِ

يَغُرُّهُمْ بكَ ـ والآمالُ كاذبةٌ ـ
ما جَمَّعُوا لكَ من خَيْلٍ ومن خَوَلِ

فأما قوله : لا يدُه نالت بظلم، فقد زاد الآخر(١) فيه زيادة حسنة:

إذا هو ذَادَ الظلمَ عنَّا بعدْلِهِ
غَدَا مالُه في كفِّهِ مُتَظَلِّمَا

يرى الذّنبَ أن تسطُو يَدَاهُ بِمُذْنِبٍ
ويَعْتَدُّ جُرْماً أنْ يُعاقِبَ مُجرِما

وقوله أيضاً :

تَظَلَّمَ ما تحويهِ فيكَ فَلَمْ يُغِثْ
وَقَدْ جُعِلَتْ في راحَتَيْكَ المَظَالِمُ

← وأربع مئة . له ترجمة في (المحمدون من الشعراء : ٣٠٩ ، والوافي بالوفيات : ٣/٤٣ ، وبغية الملتمس : ٦٤ ، وبغية الوعاة : ١/١٠٠ ، وإنباه الرواة : ٣/١٢٥ ، ونفح الطيب : ٤/١٠٠)وفي الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٩٧ البيتان الأول والثالث ، وفي نفح الطيب البيت الأول فقط من قصيدة ، وفي الوافي بالوفيات البيت الثالث .

(١) في الحاشية : (ابن أبي الشخباء) .

ومن عجبٍ أَنْ تَظْلِمَ المـالَ وحدَهُ
ولـم يَبْقَ في أيامِكَ الغُـرِّ ظَالِمٌ

وقوله أيضاً :

يا عـادِلاً في كلِّ ما هُوَ فاعِـل
ما بالُ كفِّكَ في النُّهَى لا تعـدِلُ ؟

تَبْقَى أحـاديثُ القَتيـلِ بسيفِهِ
فكأنَّمـا يُحْيِي بهِ مَنْ يُقْتَـلُ

وهذا البيت من قول ابنِ نُبَاتَةَ (١) : [٤٥]

تَبْقَى بِهِمْ أخبـارُ مَنْ غَلَبُوا
فَكَأَنَّهُمْ أَحْيَوا وقَـدْ قَتَلُوا

وقال أبو الطيب (٢) :

وأنَّ دَمـاً أجريتَهُ بكَ فَاخِـرٌ
وأنَّ فُؤَاداً رُعْتَـهُ لكَ حامِـدُ

وقال مِهْيارُ (٣) :

---

(١) لم نجده في ديوانه .

(٢) ديوانه : ١/٢٧٦ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة ويذكر هجوم الشتاء الذي عاقه عن غزو خرشنة ، وأولها :

عواذل ذات الخال فيَّ حواسد وإنَّ ضجيع الخود مني لماجد

(٣) ديوانه : ٣/٢٢٠ ، ورواية البيت الثاني : فيشرف . وهما من قصيدة يمدح بها زعيم الدين أبا الحسن ، وأولها :

هل عند هذا الطلل الماحلِ من جَلَد يجدي على سائل

ويستطيـــل القِرْنُ لاقَى الرَّدَى
بِهِمْ وما في الموتِ من طائِـــلِ

ويَشْرُفُ السيفُ بمـــا شَامَهُ
ويَفْخَـــرُ المَقْتُولُ بالقَاتِـــلِ

ومن باب ظُلم المالِ قولُ الآخرِ وذَكَر الخيلَ :

ما أَوْرَدُوهَا قَطُّ إلا أُصْدِرَتْ
جَرْحَى الصُّدورِ سليمــةَ الأكْفَالِ

وإذَا انْجَلَتْ عَنهُمْ دَيَاجِيرُ الوَغَى
عَـــدَلُوا بفتكِهِــمُ إلى الأَمْوَالِ

ووصفُه الخيلَ من قولِ الرَّضِيِّ (١) :

[فُجِعَتْ بِمُنْصلتٍ] يُعَرِّضُ للقنا
أَعْنَاقَهــا ويُحَصِّنُ الأَكْفَالا

وهو مأخوذٌ من قول البَبَّغَاءِ (٢) :

(١) ديوانه : ٢/٢٠٥ ، وما بين المعكوفين ساقط من الأصل وقد أكملناه من الديوان ، والبيت من قصيدة في رثاء الصاحب بن عباد وأولها :

أكذا المنون تقنطر الأبطالا   أكذا الزمان يضعضع الأجيالا

(٢) أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المخزومي ، من أهل نصيبين . لقب بالببغاء للكنة فيه . كان متصلاً بسيف الدولة . والبيت في اليتيمة : ١/٢٨٣ مع بيتين آخرين .

يَلْقَى الطِعَانَ بِصَدْرٍ مِنْهُ لَيْسَ لَهُ

ظَهْرٌ وهادِي جوادٍ مَالَهُ كَفَلُ

وقال محمد بن عثمانَ في وصف قصر ، وهو بصفات مباني مولانا أليقُ ، وأَرْجَه في أرجائها أعطرُ وأعْبَقُ :

هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيا تَبَوَّأَ نُزْلَها
مَلِكٌ جِبِلَّتُهُ التُّقَى والدِّينُ

رَاسٍ بحيْثُ النُّونُ إلا أنَّه
سَامٍ فَقُبَّتُهُ بحَيْثُ النُّونُ

فكأنَّما الرحمنُ عَجَّلَهُ لَهُ
لِيَرَى بِمَا قَدْ كانَ ما سيكونُ

وكأنَّ بَانِيهِ سِنِمَّارٌ (1) فَمَا
يَعْدُوهُ تحسِينٌ ولا تحصينُ [٤٦]

وجَزَاؤُهُ فيهِ خِلافُ جَزَائِهِ
شَتَّانَ ما الإِحياءُ والتَّحْيِينُ

ومحمد بن عثمانَ من المكثرين المبدعين ، والمتصرفين المتوسعين ، ومن مليح تشبيهاته :

---

(1) في الحاشية : (سنمار رجل كان عمل لبعض الملوك بناء ، وقال له : إن نزع هذا الحجر تداعى بناؤك ، فأمر به فرمي من فوق البناء لئلا يعلم به) والأبيات في نفح الطيب : ٤/١٠١ ، والخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٨١ من قصيدة طويلة يمدح بها ابن الحداد المعتصم بن صمادح .

والسُّمْرُ مِنْ قَلْبِ القُلُوبِ مواتِحُ

وكأنَّهــا مَوْصُولَةُ الأَشْطَــانِ

والنَّبْلُ في حَلَقِ الدِّلاصِ كأنَّهــا

وبْلُ الحَيَا في مَائِجِ الغُــدْرَانِ (١)

وقولُه أيضاً (٢) :

وفُوَيْقَ ذاكَ المــاءِ من شُهُبِ القَنَا

حَبَبٌ (٣) ومِنْ خُضْرِ الصَّوَارِمِ عَرْمَضُ

أهْوَاهُــمُ وإنِ اسْتَمَرَّ قِلاَهُــمُ

ومِنَ العجــائِبِ أنْ يُحَبَّ المُبْغِضُ

وقولُه في وصف هام المصلّين (٤) :

وقَدْ تَلِمُّ بها الغِرْبانُ واقِعَــةً

كأنَّهــا فوقَ مَحْلُوقَاتِهــا لِمَــمُ

وقال (٥) :

تكادُ تَغْنى إذا شــاهدتَ مُعْتَرَكــاً

عَنْ أنْ يُسَلَّ حُسَامٌ أو يُرَاقَ دَمُ

---

(١) البيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٧٥ من قصيدة في تشبيه الرمح والنبل .

(٢) البيتان في الخريدة : ٢/٢٧٤ ، وفي فوات الوفيات : ٢/٣٤٢ البيت الثاني .

(٣) في الخريدة : جثث .

(٤) البيت في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٧٦ ، والرواية هناك : واقفة .

(٥) الخريدة: ٢/٢٧٦ من القصيدة السابقة في وصف هام المصلين . والرواية هناك : تغْني .

وما اجْتَدَى الموتُ نفساً [من نفوسهِمُ](١)
إلا وسيفُكَ كَعْبُ الجُــودِ أو هَرِمُ

وهذا من القول المعجِب ، والنظم المطرِب ، والبيتُ الأول من قول مهيــار (٢) :

ألقِ السّلاحَ فقــــد غَنِيْتَ سعادةً
عن حَمْلِهِ واضرِبْ بِجَـدِّكَ واطعنِ

وإذَا أرَدْتَ (٣) بأَنْ تَفُـــل كَتيبَةً
لاقَيْتَهـــا فَتَسَمَّ فيهـــا واكْتَنِ

وقال الآخر :

أدَلَّ بجمعـــــه فكفـــاك جَـــــدٌّ
يَفُـــــل سعودُهُ الجيشَ اللهَـــامَا [٤٧]

ضَرَبْنَاهُ بِذِكْــرِكَ وهْوَ لَفْظٌ
فكـــانَ القلبَ واليـــدَ والحسَامَا

وقـــال (٤) :

---

(١) سقط في الأصل أكملناه من الخريدة .
(٢) ديوانه : ٤ /٣٢ من قصيدة طويلة يمدح بها الوزير الكافي الأوحد أبا العباس أحمد بن إبراهيم .
(٣) في الديوان : فإذا هممت .
(٤) ابن الحداد محمد بن عثمان ، والبيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٧٧ ، ورواية البيت الأول : لما امتطوها .

وما خُيَلاءُ الخيلِ فيها سَجِيَّةٌ
ولكنها لمّا امتطيتَ تَوَائِهُ

فَتَصْرُكَ أيّاً ما سَلَكْتَ مُسَايِرٌ
وتَنْحُكَ أيّاً ما اتَّجَهْتَ مُوَاجِهُ

وقال في وصف هذه القصيدة :

ففي أَنْفُسِ الحُسَّادِ منها هَزَاهِزٌ
وفي أَلْسُنِ النُّقَّادِ منها زَهَازِهُ

وهذا من العكس الذي يطرب له السامع ، وتقلُّ فيه المطامعُ .
ومن بديعه قولُ ابن جاخ (١) :

وتحتَ البراقِعِ مَقْلُوبُها
تَدِبُّ على وَرْدِ خَدٍّ نَدِ

تُسَالِمُ مَنْ وَطِئَتْ خَدَّهُ
وتَلْسَعُ قَلْبَ الشَّجِيْ الأَبْعَدِ

---

(١) شاعر أندلسي ورد على المعتضد مع الشعراء ، وأنشده ، فسر به ، وقال له : اجلس فقد وليتك رئاسة الشعراء ، ولم يأذن في ذلك اليوم بالكلام لأحد غيره ، وكان صباغاً وقد مر به ابن عمار الشاعر الوزير فطارحه شعراً فأعجب به وأحسن إليه (انظر نفح الطيب : ٤/٢٤٤ ، والوافي بالوفيات : ٤/٢٣٣ وفي الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٧٠ الشطر الأول فقط من هذين البيتين .

وللنيليّ (١) أحدِ شعراءِ اليتيمة :

إذَا دَهَــاكَ الوَدَاعُ فَاصْبِــرْ
ولاَ يَرُوْعَنّكَ البعَــــادُ (٢)

وانتظــرِ العَوْدَ عَنْ قَــرِيبٍ
فإنّ قلــبَ الــوَدَاعِ عَــادُوا

وقد أخذه ابنُ أبي وهبٍ (٣) فقال :

قالُــوا تَدَانَيْتَ من وَدَاعِهِــمْ
ولَــمْ نَرَ الصَبْرَ عَنْكَ مَغْلُوبَا

فقلــتُ للعلــم إنني بِغَــدٍ (٤)
أَسْمَــعُ لَفْظَ الوَدَاعِ مَقْلُوبَا

ومن ضروب العكس قولُ البحتريّ (٥) :

---

(١) أبو سهل بكر بن عبد العزيز النيلي ، وله أخ آخر اسمه أبو عبد الرحمن محمد عبد العزيز النيلي ، وهما من حسنات نيسابور ومفاخرها . وهما من شعراء اليتيمة . والبيتان في اليتيمة : ٤/٤٣٠ وقد نسبا لأبي سهل ، ولكنهما في الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٧٠ منسوبان لأخيه أبي عبد الرحمن .

(٢) رواية اليتيمة :

إذا رأيت الوداع فاصطبر ولا يهمنك البعاد

(٣) أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي وهب (انظر الخريدة ، قسم المغرب : ٢/١٦٩) والبيتان هناك ، وفي نفح الطيب : ٤/١٠٠ .

(٤) في الخريدة : إنني لغد .

(٥) ديوانه : ٢/٩٦٣ من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الله بن طاهر ويرثي طاهر بن عبد الله بن طاهر والحسين بن طاهر بن الحسين .

ولم يُرَ يوماً قادراً غَيْرَ صافحٍ

ولا صافحاً عن زلّةٍ غيرَ قادرِ

وقولُ الآخر (١) — وهو على دولاب — :

عبدُكَ يا عَبْدُونُ في نِعْمَةٍ

صافيةٍ أذيالُها (٢) ضافيةْ [٤٨]

نديمتي جاريةٌ ساقيةْ ونُزْهَتي (٣) ساقيةٌ جاريةْ

وعلى ذكر الدّولاب فلم أسمعْ فيه أحسنَ من قول السَّلامي (٤):

وكأنما الدولابُ ضلَّ طريقَهُ

فتراهُ ليس يَزُولُ وهْوَ يَطُوفُ

وقال أبو الطيب (٥) سالكاً مذهبَ البحتري :

فلا مجدَ في الدُّنيا لمنْ قلَّ مالُهُ

ولا مالَ في الدنيا لمنْ قلَّ مجدُهُ

---

(١) البيتان في البديع في نقد الشعر : ٥٠ وقد نسبا للوزير أبي القاسم المغربي .

(٢-٣) رواية البديع : أطرافها ، وديمتي .

(٤) شعر السلامي : ٧٩ ، واليتيمة : ٢/٤١٢ من قصيدة طويلة .

(٥) ديوانه : ٢/٢٣ ، من قصيدة يمدح بها كافوراً ، وأولها :

أودُّ من الأيام مالا توده وأشكو إليها بيننا وهي جنده

وقال ابنُ حيوسٍ (١) :

إذا طلبَ العليـاءَ لمْ يَهْنِـهِ الكَرَى

وإنْ طلبَ الأعداءَ لم يَنْهَهُ الزّجْرُ (٢)

ثُغُورُ العِدَا إنْ رُمْتُمُوهُنَّ كالفَلا

وكلُّ فَـــلاةٍ رُمْتُمُ مَنْعَهَا ثَغْرُ

ومن بديع القلبِ ، ونوعه الغريب الصعبِ أن يُقرَأَ الكلامُ من آخره كما يُقرَأُ من أوله ، كقوله عز وجل : « كلٌّ في فَلَكٍ »(٣) وكقولهم : سِرْ فلا كَبَا بكَ الفرسُ . وقد جاء ذلك منظوماً قال :

بَلَغَتْ بلاغَتُنا مَـــدًى دُمْ أنتَ غـــالبَ تَغْلِبِ

ومثاله قولُ الآخر :

أَرَاهُنَّ نادَمْنَهُ ليـــلَ لَهْـــوٍ

وهَـــلْ لَيْلُهُنَّ مُدَانٍ نَهَـــارَا

---

(١) خلط المصنف بين هذين البيتين . فالبيت الأول في ديوان ابن حيوس : ٢٧٨/١ من قصيدة أولها :

تمني العلا سهل ومنهجها وعر وشيمتها ــ إلا إذا سُمْتَها ــ الغدرُ

والثاني في ديوانه : ٢٤٨/١ من قصيدة أخرى أولها :

كفى الدين عزاً ما قضاه لك الدهر

فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر

(٢) رواية الديوان :

إذا طلب الغايات لم يهنه الكرى

وإن قارع الأعداء لم ينهه الزجر

(٣) الأنبياء : ٣٣

وقولُ الآخر :

قالَ بَكْــرٌ للمُــرادِيْ دَارِمٌ للركـــبِ لاقِ

وذكر أبو محمدٍ القاسمُ بنُ عليٍّ الحريريُّ البصريُّ [٤٩] من هذا الباب :

لُمْ أخاً مَلَّ • كَبِّرْ رَجَاءَ أَجْرِ رَبِّك • سَكِّتْ كُلَّ مَنْ نَمَّ لَكَ تَكِسْ •

ومن المنظوم (١) :

أسْ أَرْمَــلاً إذا عَرَا وارعَ إذَا المــرءُ أسا
أَسْنِدْ أَخَا نَبَاهَــةٍ أَبِنْ إخَــاءً دَنَّسا
اُسْلُ جَنَــابَ غَاشِمٍ مُشَاغِــبٍ إنْ جَلَسَا

وقال محمدٌ (٢) يصفُ سِمَاطاً :

سُمْتَ السَّوَامَ به الحِمــام كأنَّما
أخَــذَتْ بشأنٍ من ذوي الشَّنآنِ

وتَبِعَتْها ذاتَ الجنــاحِ كأنَّمــا
فَعَلَتْ جُنَاحاً قَبْلُ في الطــيرانِ

(١) الأبيات مع الأقوال السابقة في الخريدة (قسم شعراء العراق) الجزء الرابع ، المجلد الثاني : ٦٦١ • وهي في شرح مقامات الحريري للشريشي : ٢/٨٠ ـ ٨٤

(٢) محمد بن عثمان • والأبيات في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٧٧ •

حتى غَدَا حَمَلُ السماءِ وثَـوْرُها(١)

حَذِرَيْنِ مِمَّا حَلَّ بالحَمَلانِ

نَارٌ بأَرْجَاءِ المدينةِ (٢) سِقْطُها

مُزْرٍ ببيتِ النارِ في أَرْجَانِ

فلوِ المجوسُ تَجُوسُ حولَ(٣) دِيارِنا

أَمَّتْ لَديْكَ عِبادةَ النيرانِ

وقال (٤) :

فلا دولةٌ (٥) إلا إليكَ نِزَاعُها

ومازالَ يَطْوَى عن سِوَاكَ لها كَشْحُ

إذا خِيفَ أنْ تَشْتَدَّ شوكةُ مَارِقٍ (٦)

فلا رَأْيَ إلا ما رأَى السيفُ والرُّمْحُ

وقال حسانُ بنُ المَصِّيصي (٧) :

مَلِكٌ يظلُّ ثَرَاهُ عنده قِبلةً فَذُو الغَوايةِ منا مثلُ عابدِنا

(١) فوقها : وثورها . وكذا رواية الخريدة .
(٢) في الخريدة : المرية .
(٣) في الخريدة : بين .
(٤) البيتان مع آخرين في الخريدة : ٢/٢٧٧
(٥) في الخريدة : بهجة .
(٦) في الخريدة : مأزق .
(٧) هو أبو الوليد ، وكان كاتباً للظافر بن عباد ملك قرطبة انظر (المغرب في حلى المغرب : ٢/٣٨٥ ، والنفح : ٤/٣٠٧) .

تُسْقَى ونَسْجُدُ إجلالاً لهيْبَتِهِ

فنحنُ نشربُ خمراً في مَسَاجدِنا [٥٠]

وقال :

مَليكٌ إنْ دَعَتْهُ الحربُ يوماً

لما تَعْنُو لهيبتِهِ الأُسُودُ

قَسَا قلباً وسنَّ عليه دِرْعاً

فباطِنُهُ وظاهِرُهُ حَدِيدُ

وقال مسعودُ بنُ محسنٍ (١) :

مَليكٌ تَحْلُمُ الآمالُ فيما

حَوَاهُ من الطَّريفِ أو التِلادِ

وتَزْدَحِمُ المطامعُ في نَدَاهُ

لأنَّ عليه أرزاقَ العِبادِ

وقد أحسن الآخر في قوله :

إنْ غَاضَ صوبُ الحَيَا فاضَتْ أنامِلُهُ

جُوداً ورَوَّضَتِ الدُّنيا مكارِمُهُ

---

(١) في الحاشية : (الشريف أبو جعفر البياضي) وهو مسعود بن عبد العزيز ابن المحسن بن الحسن بن عبد الرزاق البياضي ، الشاعر المشهور (ترجمته في الشذرات ٣/٣٣١ ، وتاريخ ابن الأثير : ١٠/٨٨ ــ ٩٩) .

يُصَرِّفُ الأمرَ في الآفـــاقِ خاتمُهُ

ويصبحُ الدهرُ طَوْعاً وهْو خادِمُهُ

وقال مسعودٌ أيضاً :

وإنّا إذا الأرواحُ ذَابَتْ مَخَافَـــةً

مَتَحْنا بأشْطَانِ الرِّمَاحِ وَكَايَاهَا

مَتَى ما أردْنَا أنْ يُذَاقَ حديـــدُنا

خَلَقْنَا بحدِّ المَشْرَفِيَّةِ أَفْوَاهَا

وهذا من باب قول ابن نُباتَةَ (١) :

خلقْنا بأطرافِ القَنَا لظهورِهـــمْ (٢)

عُيوناً لها وَقْـــعُ السيوفِ حواجبُ

ومسعودٌ هذا مُقِلٌّ في شعره ، محسن مطرب بغزله مُفْتِنٌ ـ فمن ذلك قولُه :

غَزَالٌ يكونُ الفَهْدُ طَوْعَ يمينِهِ

ولم نَرَ ظبياً قَطُّ مستخدِماً فَهْـــدَا

ومِنْ أعجبِ الأشيـــاءِ أنْ باتَ آمِناً

من الثأْرِ فينا وهو يقتُلُنا عَمْـــدَا

(١) لم نجده في ديوانه ، ولكنه في الايضاح : ٥٦٢

(٢) رواية الايضاح : في ظهورهم ٠

وقولـــه :

حوراءُ تَقْتُلُ مَنْ رمتْهُ بطرفِهـــا
فكـأنَّ سَهْمَ لحاظِهـــا مَسمُومُ [٥١]

وتُصيبُ أسهُمُهـــا وليس يُرى دَمٌ
فالقتـــلُ منهـا ظاهِـرٌ مكتُـــومُ

وتكـــادُ تُسْكِرُ بالحـــديثِ لأنَّـه
عُصِرَتْ بحيثُ يَمُــرُّ فيه كُــرُومُ

وقال محمدُ بن عيسى (١) :

وضَحَتْ به العَلْيـــا فمنهـجُ قصدِها
منه إلى ظهـــرِ المجـرَّةِ مَهْيَـــعُ

ينـــدَى عليكَ وأنْتَ منـــه خائِفٌ
وكــــذاكَ لُجُّ البحـرِ مُغْنٍ مُفْزِعُ

وهذا من قول الآخر :

هو البحرُ فيه الغِـنَى والغَرَقْ

(١) في الحاشية : ابن اللبانة • والبيتان في شعره : ٦٤ ، وفي الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس) ٢/١١٥ من قصيدة يمدح بها آل عباد وأولها :

ضحك الربيعُ بحيث تلك الأربع   لما بكى للغيث فيه مدمعُ

على أن محمد بن عيسى قد ذكر هذا المعنى في موضع آخر ، واحتاط للممدوح ، فقال وأحسن (١) :

براحته بحرٌ مُحيطٌ مُسَخَّرٌ
يُقاد الغِنى فيه ولا يُذْعَرُ الرَّكْبُ

والذي دعاه إلى البيت العينيّ قوله بعده :

فأشَدُّ ما تَلْقاهُ عِنْدَ لِيانِهِ
وكذا الأَرَقُّ من الحُسامِ الأَقْطَعُ (٢)

وقال (٣) :

تَخَلَّلْتَ حتى غابةَ الأَسَدِ الوَرْدِ
وأنزلْتَ حتى ساكنَ الأَبْلَقِ الفَرْدِ

وجَرَّدْتَ دونَ الدينِ سيفَكَ فانْثَنَى
من النصرِ في حلْيٍ من الدينِ (٤) في غمْدِ

---

(١) شعر ابن اللبانة : ١٨ ، والخريدة : ٢/١٢٢ من قصيدة يمدح بها ناصر الدولة ، وأولها :

بكت عند توديعي فما علم الركب — أذاك سقيطُ الطل أم لؤلؤ رطب

(٢) من القصيدة العينية السابقة .

(٣) شعر ابن اللبانة : ٣٥ ، والخريدة : ٢/١١٥ ، ووفيات الأعيان : ٥/٢٧ ، ونفح الطيب : ٤/٢٥٦ من قصيدة في المعتمد بن عباد عند دخوله لورقة .

(٤) في المصادر السابقة : من الدم .

لقد ضمَّ أمرَ المُلْكِ حتى كأنَّه
نِطاقٌ بخَصْرٍ أو سِوارٌ على زَنْدِ

يُغيثُكَ في مَحْلٍ يُغيثُكَ في رَدًى
يَرُوعُكَ في رَوْعٍ(1)،يَروقُكَ في بُرْدِ

جَمالٌ وإجْمالٌ وسبْقٌ وصَوْلَةٌ
كشمسِ الضحَى،كالمُزْنِ،كالبَرْقِ،كالرعْدِ

ومثل هذا التركيبِ ، وعلى حكمه في الترتيبِ ، قولُ محمدِ بن أبي سعيدٍ(2) : [52]

جاوِرْ علياً ولا تَحْفَلْ بحادِثَةٍ
إذا ادَّرَعْتَ فلا تَسألْ عن الأَسَلِ

سَلْ عنه وانطِقْ به وانظُرْ إليه تَجِدْ
مِلْءَ المسامعِ والأفواهِ والمُقَلِ

وقال محمدُ بن عيسى(3) أيضاً :

مَلْكٌ غدَا الرِّزْقُ مبعُوثاً على يدِهِ
وظلَّ يجري على أحكامِهِ القَدَرُ

---

(1) في المصادر السابقة : في درع .
(2) هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن شرف القيرواني توفي سنة ثماني عشرة وخمسمائة انظر ترجمته في : (فوات الوفيات : 2/409، الذخيرة : 1/4/169 ، معجم الأدباء : 19/38) والبيتان في معجم الأدباء : 19/41 ـ 42 ، وفوات الوفيات : 2/411
(3) شعره : 49 . والخريدة : 2/117 ، من قصيدة في مدائح آل عباد .

يا مَنْ قَضَى اللهُ أنَّ الأرضَ يملِكُها
عَجِّلْ ففي كلِّ قُطْرٍ أنْتَ مُنْتَظَرُ

وقال (١) :

يَهْوَى قناتَكَ قَلْبُ مَنْ لم تَهْوَهُ
فيكادُ فوقَ سِنَانِها يتَقَلَّبُ
أنْتَ النَّهارُ فليسَ دونَكَ نُجْعَةٌ
والليلُ أنتَ فليسَ دونَكَ مَهْرَبُ

وفي هذا بيتُ النابغة (٢) وزيادةٌ لأنه قال :

فإنَّكَ كالليلِ الَّذي هُوَ مُدْرِكي
وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأَى عنكَ واسِعُ

وقد أجاد ابنُ أبي الفراتِ (٣) في قوله :

كأَنَّ فِجَاجَ الأرضِ كفَّاكَ إنْ يَسِرْ (٤)
بها مُجْرِمٌ ضَمَّتْ عليهِ الأَنَامِلا

---

(١) لم نجدهما في شعره المجموع .

(٢) ديوانه : ٣٨ ، من قصيدته في مديح النعمان بن المنذر .

(٣) هو مصعب بن محمد بن أبي الفرات المعروف بأبي العرب الصقلي . والبيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٢١ ، وفي شرح مقامات الحريري للشريشي : ٢/٢٤٨

(٤) رواية الخريدة وشرح المقامات : إن يسر بها هارب تجمع ...

فأينَ يَفِرُّ المــرءُ عَنْكَ بِجُرْمِــهِ

إذا كانَ يطوِي في يدَيْكَ المراحِــلا ؟

وقـــال (١) :

يجري النهـــارُ إلى رِضَاكَ وليْلُهُ

وكِلاهمــا مُتَعَاقِبٌ لا يَسْـأمُ

فكأنَّما الإصبــاحُ تَحْتَكَ أشْقَــرٌ

وكأنما الإظــلامُ تحتك أدْهَـــمُ

والخيــلُ كانتْ تستريــحُ من السُّرَى

لو لم يكُنْ فوقَ البسيطــةِ مُجْرِمُ

تَهْوَى قَنَاكَ الطــيرُ فَهْيَ وراءَها

تهوِي لتُبْصِرَ حيثُ تَطْعَنُ تَطْعَمُ

بلغَتْ إلى السَّمْعِ الأصَمِّ صفاتُهُمْ

وأبـــانَ فيهِنَّ اللِّسَانُ الأعْجَــمُ

قوله : تهوَى قناكَ الطيرُ هو المعنى الذي سبق [٥٣] الأَفْوهُ الأوْدِيُّ إليه . واتَّبع جماعةٌ من الشعراء تمثيلَه فيه واحتَذَوْا عليه . ومن المشهــور في ذلك ما جاء للنابغــة ، ومسلمٍ ، وأبي نُواسٍ ،

(١) الأبيات لابن اللبانة ، وفي المختار من شعر شعراء الأندلس : ١٣٥ البيت الرابع فقط .

وأبي تمامٍ وغيرِهم ، ومن مليح ما أعرفه فيه قولُ مروانَ بنِ أبي الجَنُوبِ (١) :

لا تَشْبَعُ الطيرُ إلا في وقائعِهِ
فأينَما سارَ سارَتْ خَلْفَهُ زُمَرَا

عوارِفاً أنَّه في كلِّ مُعْتَرَكٍ
لا يُغْمِدُ السيفَ حتى يُكْثِرَ الجَزَرَا (٢)

وقولُ الآخر :

ولستَ تَرَى الطيرَ الحوائِمَ وُقَّعاً
من الأرضِ إلا حيثُ كان مُوَاقِعَا (٣)

وقولُ عُبيدِ الله بنِ قيسٍ (٤) :

والطيرُ إنْ سارَ سارَتْ خلفَ موكبِهِ
عوارِفاً أنَّه يسطُو فيَقْرِيها

(١) هو مروان الأصغر بن يحيى بن مروان بن أبي حفصة . يكنى أبا السمط . ترجمته في (طبقات ابن المعتز : ٣٩٢ ، والأغاني : ١٢/٧١ ، ٢٣/٩٦ ، معجم الشعراء للمرزباني : ٣٢١) .

(٢) البيتان في المطرب : ١٦١ ، والمختار من شعر شعراء الأندلس : ١٣٣ في مديح المعتصم .

(٣) البيت في المختار من شعر شعراء الأندلس : ١٣٤ ، بلا نسبة . والرواية هناك : حيث كانت وقائعه .

(٤) ديوانه : ١٩٩ ، وهو بيت مفرد . والرواية هناك : فوق موكبه .

وقولُ ابنُ نُباتَةَ (١) :

إذا حَوَّمتْ فوقَ الجمــوعِ عُقَابُهُ
تَبَاشَرَ عُقْبــانٌ بهــا ونُسُورُ

حَوَاجِلُ أو رُبْدُ الظهــورِ قشاعمٌ
قَوانِصُهــا للدَّارِعــينَ قُبُــورُ

وقولُ الآخر (٢) :

كَأَنَّ النُّسُورَ نَافَسَتْ فيهمُ الثَّرَى
فقــد حَصَّلَت أجسامَهُمْ في الحَوَاصِلِ

وقولُه :

وتَطَايَرَتْ في الجوِّ رِزْقُ أَجَــادِلٍ
طلبــتْ مَطَاعِمَهَــا وزُرْقُ نِصَالِ

وقولُ الآخر :

عَتَادُهُمُ خَطِّيَّةٌ قــد تَكَنَّفَتْ
برِزْقِ نُسُورٍ حُوَّمٍ وخَوَامِـــعِ

وقولُه أيضاً :

فإنْ تَكُ أسْرَى عَفَّتِ البِيْضُ عنهمُ
فمنْ بَعْدِ أنْ عافَتْ ضِبَاعٌ وأنْسُرُ [٥٤]

(١) لم نجدهما في ديوانه ، ولكنهما في المختار من شعر شعراء الأندلس : ١٣٤

(٢) في الحاشية : (ابن أبي الشخباء) .

والبديعُ كلُّ البديع قولُ أبي الطيبِ (١) :

يُطَمِّعُ الطيرَ فيهم طولُ أكلِهِمُ
حتى تَكادَ على أحيائِهِمْ تَقَعُ

وقال (٢) :

سألتُ أخاهُ البحرَ عَنْهُ فقالَ لي
شقيقيَ إلا أنَّه الساكنُ العَذْبُ

لنا دِيمَتَا ماءٍ ومالٍ فدِيمتي
تَمَاسَكُ أحياناً وديمتُه سَكْبُ

إذا نَشَأَتْ (٣) ماليّةٌ فَلَهُ النَّدَى
وإن نَشَأَتْ مائيةٌ (٤) فليَ السُّحْبُ

أَقِلُّوا عليه من سَمَاعِ صِفَاتِهِ
فإنّي لأَخْشَى أنْ يداخِلَهُ عُجْبُ

غَفَرْتُ ذُنُوبَ الدهرِ لمَّا لَقيتُهُ
ودَهْرٌ به أَلْقَاهُ ليسَ لهُ ذَنْبُ

---

(١) ديوانه : ٢/٢٢٥

(٢) ابن اللبانة محمد بن عيسى من قصيدته في ناصر الدولة التي سبق تخريجها قبل صفحات ، وهي في شعره : ١٨ ـ ١٩ .

(٣ ـ ٤) في شعره : برية ، بحرية .

وأبلغُ من هذا قولُ مهيارَ (١) :

ومَا ذَمَمْتُ زمَـانِيْ في مُعَـاتَبَةٍ
وحـجَّتِي بكَ إلا وَهْوَ يَخْصِـمُني

وقال محمدُ بن عُبادةَ ، فاستعمل أسلوباً غريباً ، وركّب تركيباً غريباً عجيباً ، لأنه خلط بديحه غزلاً وتشبيباً :

نَفَى الحبُّ عـنْ مُقْلَتيَّ الكَـرَى
كَمَا قَدْ نَفَى عنْ يَدَيَّ العَدَمْ (٢)

فَقَـدْ قَرَّ حُبُّـكَ في خَاطِـرِيْ
كَمَا قَـرَّ في راحَتَيْـهِ الكَـرَمْ

وفَرَّ سُلُـوُّكَ عـن فكـرَتي
كما فَـرَّ عن عِرْضِهِ كُـلُّ ذَمّ

فَحُـبِّيْ ومَفْخَـرُهُ باقيـانِ
فلا يذهَبَـانِ بطـولِ القِدَمْ

وقَـدْ شَابَ قَوْلِيْ بذِكْرِيْ لَهُ
مديـحَ أجَـلِّ مُلوكِ الأُمَـمْ

---

(١) ديوانه : ١٣٧/٤ من قصيدة يهنىء بها زعيم الملك أبا الحسن بالمهرجان وأولها :

آإن تحدث عصفور على فنن — أنكرت يوم اللوى حلمي وأنكرني

(٢) الأبيات الأربعة الأولى في نفح الطيب : ١٠٣/٤ وقد نسبت للقزاز في مدح ابن صمادح ، ومعها خامس غير الذي عندنا .

وقالَ ابنُ مُطَرِّفٍ (١) :

يَرَى العَوَاقِبَ في أثنَاءِ فِكرَتِهِ
كأنَّ أفكَارَهُ بالغيبِ كُهَّانُ

لا طَرْفَةٌ منه إلا تَحْتَهَا عَمَلٌ
كالدَّهْرِ لا دَوْرَةٌ إلا لها شَانُ

وقالَ عبدُ الحميد بنُ عبدِ الحميد (٢) : [٥٥]

أرحْ مَتْنَ المُهَنَّدِ والجَوَادِ
فقدْ تَعِبَا بِجِدِّكَ في الجِهَادِ

قَضَيْتَ بِعَزْمَةٍ حَقَّ العَوَالِي
فَقَضِّ بِرَاحَةٍ حَقَّ الجِيَادِ

وقالَ جعفرُ بنُ محمدٍ (٣) :

وعَصْرُكَ مِثْلُ زَمَانِ الرَّبِيْـ
ـعِ لاتَهْجُرُ الشَّمْسُ فيهِ الحَمَلْ

---

(١) هو ابن مطرف المنجم . والبيتان في الخريدة (قسم المغرب) : ٢٠٩/٢، وفي نفح الطيب : ١١٠/٤

(٢) عبد الحميد البرجي ، نسبة الى برجة من نواحي المرية . والبيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢٠٩/٢ ، وفي نفح الطيب : ١١١/٤

(٣) هو أبو الفضل ابن أبي عبد الله محمد بن شرف . انظر ترجمته في [الخريدة (قسم المغرب) : ١٧١/٢ ، وفي الذخيرة المجلد الثاني القسم الثالث : ٨٦٧ ، وفي المغرب : ٢٣٠/٢] والبيتان في الخريدة : ١٧٢/٢

تَسَامَتْ عُلاكَ سُمُوَّ النُّجُومِ
وسَارَتْ أيَادِيكَ سَيْرَ المَثَلْ

وقال آخر (١) :

لِعِزِّكَ ذَلَّتْ مُلُوكُ البَشَرْ
وعَفَّرتَ تيجانَهُمْ في العَفَرْ

وأنتُمْ مُلُوكٌ إذَا شَاجَرُوا
أظَلَّتْهُمُ مِنْ قَنَاهُمْ شَجَرْ

بُدُورٌ تُجَرِّدُ سيْفَ النَّدَى
وتُغْمِدُهُ في رُؤُوسِ البِدَرْ

وقال مُصعبُ بنُ محمدٍ (٢) :

مَلِيكٌ يَجُرُّ الجيشَ جمّاً عَدِيدُهُ
لأرضِ الأعادِي زائِرٌ مُتَعَبِّدُ

يُزَعْزِعُ أقطارَ البِلادِ كأنَّما
تُحَمُّ بهِ الأرضُ الفَضَاءُ فَتَرْعِدُ

---

(١) في الحاشية : (أبو الحسن الفكيك) وهو بغدادي وفد على الأندلس ، وكان حلو الحديث ، مليح التندر ، قصيراً دميماً . من شعراء المعتمد . انظر ترجمته في نفح الطيب : ٤/١١٤ ، والذخيرة المجلد الأول ، القسم الرابع : ٣٦٨ ، وفي الخريدة (قسم المغرب) : ٢/٢١٧ . وفي الخريدة والنفح البيتان الأولان فقط .

(٢) في الحاشية : (أبو العرب الصقلي) .

وقـــال (١) :

إلى مَلِكٍ لو لَمْ أُحَـــلِّ قَلائِـــدِي
بِهِ لَمْ أَكُنْ من جَوْهَرِ الفَضْلِ حَالِيَا

أَلا إنَّنِي لَمَّـــا عَـــدَدْتُكَ أَوَّلاً
خَتَمْتُ ومَا استَثْنَيْتُ (٢) بعدَكَ ثانِيا

وهذا المقدارُ دالٌّ علـى استنباط أمثاله من هـذا الأسلوب ، ومُسَهِّلٌ استخراجَ أنظارِه من هذا الغرض المطلوب ، وهادٍ إلى ما يجب قصدُه في المدح واعتمادُه ، وباعثٌ على ما يَلْزَم إضمارُه في الوصف واعتقادُه . وقد أوردنا في هذا الجزء أُنمُوذجاً لما يُجاريه من بابِه ، واقتصرنا [٥٦] عليه لتعذُّر استقصائه واستيعابِه . والله تعالى يُديم علـى الأمة ظِلَّ مولانا ودولته ، ويُثَبِّتُ سلطانه ومملكته ، ويجعـل تراب أرضه رَثَماً (٣) في الشفاه ، وغُرَراً في الجباه . ولا زال عَفْوُه كعبةَ الخائف الجاني ، وجودُه غايةً تسمو إليها هِمَمُ الأماني ، وأيامُه المشرقةُ الزاهرة موسماً للبشائر والتهاني ، ويرحم الله عبداً قال آمينا إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ .

الحمـد لله وصلى الله علـى سيد المرسلين محمدٍ ، وعلـى آله الطاهرين وسلم . اللهُ حَسْبُ المملوكِ ونِعْمَ الوكيلُ .

---

(١) في الخريدة (قسم المغرب) : ٢٢٢/٢ البيت الأول فقط من أبيات في المعتمد بن عباد .

(٢) في الحاشية : (استثنيت هاهنا عددت ثانياً ، وليس الاستثناء الذي هو إخراج بعض من كل) .

(٣) يقال : رثمت المرأة أنفها بالطيب ، لطخته .



رسَالَةُ لمُحِ المُلَح



رسالــــة

سمّاها : لمح الملح

الحمدُ لله الذي كتب على نفسه الرحمةَ لأهل طاعته ، وفرض الزلفةَ لمن أنضى فيها مطايا استطاعته ، ووسّع طرُقَ الأعمال فيما يجازي عليه بالحسنى ، ووفّق المخلصين لما ينالون به شرف الحظ الأسنى ، وأيدهم برُوح منه ، فوجب لهم الأجرُ الكريم ، ووعدهم خلود جناتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيم ، « فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » (١) . وصلى الله عـلى سيدنا محمدٍ نبيّه الذي أيّده بعزيز نصرِه [٥٧] واختصه من الفضل بما يعجز ذوو العقول عن حصرِه ، وأبان باصطفائه إياه عن رفيع منزلته وشريف قدرِه ، وجعله رحيماً بالمؤمنـين ، رؤوفاً بالمستضعفين ، وناهياً عن القُنُوط للجانين عـلى أنفسهم والمسرفين ، فقال تعالى على ما نطق به كتابُه الكريم : « قُلْ يا عبـادِيَ الَّذينَ أسرَفُوا عـلى أنفُسِـهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رحمـةِ اللهِ إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الـذُّنوبَ جميعاً إنَّه هو الغفورُ الرحيمُ » (٢) وعلى أخيه وابنِ عمه أميرِ المؤمنين عليٍّ بن أبي طالبٍ المشهورِ بالشرف الخالص ، والـمَحْبُوِّ بالمآثر والخصائص ، والمجموعِ فيه ما تفرّق في غيره من الفضائل الجمّةِ ، والمنصوص على علمه بما جاء في الحديث من كونه أقضى هذه الأمة . وعلى آلهما الأئمةِ الأطهار الـذين تجلت بأضوائهـم ظُلَمُ الشكوك ، ووضَحَتْ حُجَجُهم

---

(١) الحجرات : ٨

(٢) الزمر : ٥٣

بهم حجة كُفَاتهم(١) من العظماء والملوك،وسلَّم ومَجَّدَ،وأجرى على أفضل ما عَوَّد . والحمد لله الذي أطْلَعَ من ملوك الأرض شُموساً لا تَتِمُّ المصلحة إلا بهم ، وحفظ أسلافَهم مُذْ تنقَّلوا [٥٨] أنواراً في ظهورهم ، وأصلابِهم ، وأرشدَ بهم من الضلالة ، وجعل آيتَهم مُبصِرة ، وأوضح المعذرة لمن كانت قوته في صفاتهم مُقَصِّرة ، وحضَّ على طاعتهم شعوبَ الأمم وفِرقَهم ، وفضَّلهم على كافة بريته ولذلك خلقهم ، وجعل هذا العصر مخصوصاً بأرفعِهم لديه رتبةً ، وأوجبِهم عنده قُربةً ، وأكثرِهم عادة في المراحم ودُربة، والمُجْتَبَى لحِياطة الأمة ، فكم كشف غُمَّة ، وفرَّج كُربة ! مولانا الملكِ السيدِ الأجل الأفضل أميرِ الجيوش سيف الإسلام ، كافلِ قُضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، عَضَّدَ اللهُ به الدين ، وأمْتَعَ بطول بقائه أميرَ المؤمنين ، وأدام قدرتَه ، وأعلى كلمته ، الذي ظهرت آياتُه فَبَهَرَتْ ، واستفاضَتْ أوصافُه واشتَهَرَتْ ، وطَمَتْ بحار كرمِه الغامرِ وزَخَرَت ، وتاهت به البسيطة وباهت وفَخَرَتْ ، وتَشَوَّقت إلى استيلائه على جميع بلادِه ، وألقت إليه من مُهاجَرة ملوكِها أفلاذَ أكبادِه ، فازدحموا على بابه ازدحامَ الحسنات [٥٩] في أفعاله ، ونال كلٌّ منهم من شرف الحِباءِ ما لم يخطرْ قطُّ على باله ، فعادُوا شاكرين لدهرِهم ، راضينَ عن زمانِهم ، وصاروا مُتَّفقين في ولائه مع اختلاف ألسنتِهم وألوانِهم ، وما عُرِف الدهرُ محموداً إلا في جنابه المَريع وظلّه الوارفِ ، ولا عُلِمَ اتفاقُ بَنيهِ إلا في أيامه التي شَمَلَتْ بضُروب العَوارِفِ فَعَلَتْ بذلك أطوادُ الخلافةِ العلويّة وسَمَتْ ، وانقطعت عنها موادُّ الطُغاة ببركته وانْحَسَمَتْ ، وتهلَّلت المِلَّةُ الحنيفيَّةُ بيُمْنِ كفالته

---

(١) في الأصل : « ووضحت حجتهم بكفاتهم » ثم زيد فوق العبارة ما أثبتناه

العزيزة وابتسمت ، وتشعبت الخواطرُ في صفات مناقبه وتوزَّعَتْ وتقسَّمَتْ . فلله هو من مَلِكٍ أحيا من الآمال رُفَاتاً رميماً ، وأَبْرَأ من الأحوال عليلاً سقيماً :

وبَدَا الزمانُ به أغَرَّ مُحَجَّلاً
ولَقَدْ عَهِدْنَاهُ أغَرَّ بَهِيما (١)

وأنّى يُحيط بجلاله وصفٌ وقد عَمَّ عدالُه الآفاق ، فساوى بين البعيد والقريب ، وتأَرَّجَتِ الأرضُ بالثناء عليه فكاد النسيمُ يَتَضَرَّعُ بالطِّيب ، وحاز العِزَّة الباذِخةَ التي استحقها وراثةً وإلهاماً ، واستولى على الرتبة الشامخة التي يتعاظَمُها [٦٠] كلُّ مَلِكٍ ويتحامى (٢) :

فَعَلَتْ فَمَا يَسْمُو إليها مُرْتَقٍ
وغَلَتْ فَلَسْتَ تَرَى لها مُبْتَاعَا

فمهابتهُ مُقَابَلَةُ العظمة بالخُشُوع والسجود ، ومخافته مُحَرِّمةٌ على الأجفان لذيذَ الهُجُوع والهُجُود ، وفواضلُه الوسيعة قد طبقت جميع الأرض من السهول والنجود ، وخلائقه الشريفة مُزْرِيةٌ بالجوهر الفاخر والروض المَمْطُور المَجُود ، فلا سبيلَ إلى استيعاب أوصافه الباهرة واستقصائها ، كما لا مَطْمَعَ

(١) البيت لابن حيوس . انظر ديوانه : ٦٠٨/٢ ، من قصيدة يمدح بها نصر بن محمود بن صالح وأولها :

يا ديمتيَّ نوء الثريا دوما لترويا بالأبرقين رسوما

ورواية البيت في الديوان : آغم بهيما .

(٢) في الحاشية : (ابن حيوس) ولكننا لم نجد البيت في ديوانه .

في عدِّ كواكب السماء وإحصائها • على أنَّ مفاخرَه أعلى من النجوم محلاً ، وأكثرُ منها عدداً ، ومكارمه أوسعُ من البحار الزاخرة مَدَىً ، وأغزرُ منها مَدَدًا، ولا اختلافَ بين ذوي الفهم والتصوُّر، ولا ارتيابَ عند أولي التأمل والتدبُّر أن الله تعالى اصطفاه ليُمَلِّكَه الأرض وحدَه ، وأن ذلك مما لا يستطيع أحدٌ إنكارَه ولا جحدَه ؛ لما أُوتِيَه من القوى اللاهوتيَّة،ومُنِحَه من الخصائص الملكوتيَّة• والله — عَزَّ وجَلَّ — يقضي بدوام سلطانه القاهر وخلودِه ؛ [٦١] ويملأ آفاق الدنيا بجيوشه المنصورة وجنودِه ، حتى لا تبقى أمةٌ من الأمم إلا وقد ذَلَّت منه لمسترِقِّها ومالكها ، ولا بقعة من الأرض إلا وقد وُسِمَتْ بحوافر خيوله وسنابكها ؛ ليستهمَ النعمةَ به كافةُ الخلق وجميع البرية ، ويعلَم الكافَّةُ من شريف سيرته مالا عهدَ لهم بمثله في الطباع البشرية ؛ وهو بكرمه يرفع هذا الدعاءَ الذي يصعدُ إليه ويترقَّى ، ويجعل هذا الابتهالَ مُسْتَقْبلاً بالإجابة مُتَلَقَّى ، ويسهِّلُ بذلك نفاذ الأقضيَةِ والأقدار ، ويُعَجِّلُ المصلحة بتيسيره لأهل هذه الدار • بفضله وطوله وقدرته وحوله •

ولما كانت خدمة مَقَامه الأكرمِ من أنواع العبادة وأسباب الطاعة ، والتَوَفُّرُ عليها كفريضة الحج الواجبة على ذوي القدرة والاستطاعة؛ تَعَيَّنَ على كل مملوكٍ أن يَعْتَمِدَ ذلك على حَسَب إمكانه ، ويحرِصَ على أدائه بقلبه ويده ولسانه . واثقاً أن المواقفَ الشريفة تقبل جُهد المُقِلِّ في خدمتها ، والمقاماتِ الكريمةَ ترضى قُدرة المستطيع وإن قات في [٦٢] مقابلة عظمتها :

أَلَمْ تَرَنَا نُهْـــدِي إلى اللهِ مالَه
وإنْ كانَ عنه ذَا غِنَىً فَهْوَ قَابِلُه

فلذلك خدم الملوك بلُمْعَة من الأدب الذي نَفَقَتْ في أيام مولانا سوقه ، ووضحت للمتوسلين به سبيلــه وطريقه ، وجعــل خدمته مشتملة عــلى أشياءَ قد عَهِدَ فيما يماثلهــا أن يُسَالَ إليه ويُصْغَى ، وأَلِفَ فيما يجانسها أن يُحَافَظَ عليه ولا يُلْغَى . وكان اعتمادُه على البدائع التي ظهرت في دولته كوامنُها ، وبرزت في مملكته مخبَّآتُها ودفائنُها ، فإن أورد قديماً فَلِمَا هو عليه من بديع المعنى وحُسْن السبك، وأنه مما لم يَبْتَذِلْه الاشتهارُ كما ابتذلَت الرواية : قِفَا نبك . أو لأن فيما أورده لمحدَثٍ شبيهاً له ومثالاً . فقصد بذكره أن ينظمَ للمحاسن عِقداً ، ويجمعَ لها شملاً ، أو لأن الملوك أو من يماثله من المحدثين أغربُوا فيما انتقدوه فيه ، وتَنَبَّهوا منه على ما لم يُسْبَقُوا إليه ، ولولا ذلك لما عَرَضَ له ، ولا ألمَّ به ؛ إذ كانت خزائن مولانا قد اشتملت على مَصَنَّف القديم ومَنْقُوله ، واستغنت بما اشتملت عليه عن مُعَادِ ذلك ومنقُوله [٦٣] والله عزَّ وجلَّ يُوَفِّق المملوك لما يُحظيه ويُزْلِفُه ، ويُسْعِدُه بارتضاء ما يخدُمُ به ويُؤَلِّفُه بِمَنِّه وكرمِه .

من المحاسن العصرية في المملكة المصرية

قد خُدِم مجلسُ مولانا الملك بغرائبَ من المدح كان البيان بها ضنيناً ، وأنْتَجَ الدهر له من بدائع القول ما لم يزل في حشاه جنيناً ، مما استقرَّت الخِدَم به عند حَفَظَتِها ، وحصلت مَصُونَة تحت أيــدي خَزَنَتِها ، من منثورٍ يَتَنَاقَلُ في الآفاق ويَتَهادَى ،

ويُحْدِث لسامعه طرباً لم يكن لمثله مُعْتاداً (١) :

وقَوافٍ لَيْسَتْ تُفارِقُ مَعْنَا
هُ (٢) على أنَّها تَجُوبُ البِلادَا

ولولا ذلك لقَصَرَ المملوكُ هذا الفصل منها على الجوهر الشفاف ، وأورد من الصفات الشريفة ما يَنْسُبُ المُفْرِقُ فيه إلى التقصير إذا نَسَبَ غيرُه إلى الإسراف . فهو يذكر غُرَراً لا يتحيَّزُ إلى فن مُفْرَد ، ويُورِدُ مُتَخَيَّراً يُعْرِب عن حسن المطلب وجودة المقصد ، ويفتتح ذلك بأحق الأشياء بالتقديم ، وأولاها بالتشريف والتعظيم . [٦٤]

قال محمودُ بنُ القاضي الموفَّق في مولانا الملك ثَبَّتَ اللهُ دولته :

مَلِيكٌ تَذِلُّ الحادِثاتُ لِعِزِّهِ
يُعِيدُ ويُبْدِي والليالي رَواغِمُ

فكَمْ كُرْبَةٍ يومَ النِّزالِ تكشَّفَتْ
بحَمْلاتِهِ وهْيَ الغَواشِي الغَواشِمُ

---

(١) في الحاشية : (ابن حيوس) والبيت في ديوانه : ١/١٤٤ من قصيدة يمدح بها عز الملوك أبا الفضائل سابق بن محمود ، وأولها :

عوضونا عن السهاد الرقادا   فلعل الخيال أن يعتادا

(٢) رواية الديوان : بقواف ليست تفارق مغناك .

تَدَارَكَنَا والمَكْرُمَاتُ دَوَاثِرٌ
يصمُّ صَدَاها والمَعَالي مَعَالِمُ

تَشيِيْدُ بناءَ الحَمْدِ والمجدِ بيْضُه
وهُنَّ لأُسَّاسِ الهوادِي هَوادِمُ

إذا صَدَرَتْ عَنْ مَوْرِدِ الموتِ خِلْتَها
بأغمادِها وَهْيَ العَوَارِي العَوارِمُ

رِقَاقُ الظُّبَى تَجْرِي بأرزاقِ ذَا الوَرَى
وآجالِهِمْ فَهْيَ القَوَاسِي القَوَاسِمُ

وكان أبو طاهرٍ الأطفيجيُّ العابد اقترح عليه أن يَقِفَه / على شيء من منظومه • فعمل هذه القصيدة في مدح مولانا ـ خلَّد اللهُ ملكه ـ وقال فيها مخاطباً للعابد :

صحائِفُ أعدَاها الشبابُ بِصِبْغِه
فهلْ أنتَ ماحٍ ما تَخُطُّ المآثِمُ

إذَا قَائِمُ السيفِ انثَنَى في مُلِمَّةٍ
ولم يُغْنِ أَغْنَى وحْدَه وَهْوَ قَائِمُ

ولا يعلم المملوكُ شاباً مدح شيخاً متعبِّداً ، وحَدَثاً اجتَدى ناسكاً متزهِّداً بأحسنَ من هذا • وإذا كان الناسُ قد أجْلَبُوا بقولِ حبيبٍ (١) :

---

(١) ديوانه : ٢٠٦/١ ، من قصيدة يمدح بها أبا دلف القاسم بن عيسى

يَسُدّونَ مِنْ أَيْدٍ عَوَاصٍ عَوَاصِمٍ
تَصُولُ بِأَسْيَافٍ قَوَاضٍ قَوَاضِبِ

وهو بيت واحد ؛ فما الظنّ بعِدّةِ أبياتٍ سالمة [٦٥] من الضعف ، بريئةٍ من التَسَمُّجِ في الوصف ؛ ألا إنّ ذلك بسعادة من خَدِمِ بها مقامَه الأشرف ، وإقبالِ من اتسعت مناقبه فغدا الخاطر يجري في ذكرها ولا يتوقّفُ . وهذا النوع يُسَمّى : التجنيسَ المُرَكّبَ . وقَوْمٌ يُسَمّونَه : الناقِصَ ؛ لأن الحروف الأصلية في إحدى لفظتيْ التجنيس تَنْقُصُ عن الأخرى ، وقد أراد قوم جمعَ أقسامه فلم يُحيطوا علماً بها ، وَوَدّوا حَصْرَ أنواعِه لو آمِنُوا من تَفَرُّعِها وتَشَعُّبِها : /

وَلكنّها صَوْبُ العُقُولِ إذا انجلَتْ
سَحَائِبُ منها أَعْقَبَتْ بِسَحَائِبِ (١)

لأن أدباء كل وقت يُحْدِثون من ذلك ما يقترحون له ألقاباً ،

العجلي ، وأولها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

وورد في الحاشية بيت ابن حيوس :

إذا الحرب كلت يوم حرب فإنها
قواضٍ مواضٍ أن تَغلِبَ تَغلِبُ

وهو في ديوانه : ٣٦/١ ، ولكن روايته :

إذا البيض كلت يوم حرب فإنها مواضٍ قواضٍ أن تغلب تغلب

(١) البيت لأبي تمام ، انظر ديوانه : ٢١٤/١ وهو من القصيدة التي سبق تخريجها قبل قليل .

وعلماءَ كل عصر يُوَلّدون فيه ما يقصِدُون به تعاطِياً وإغْراباً •
فَمِنْ مُسْتَحْسَنِ ما أَتَوْا به تجنيسُ التنوين ، كقوله :

أَنَا الَّذي لا ذُوْ هَوَى ولا شَجَىً ولا شَجَنْ
لاقَىْ الَّذي لاقَيْتُ مِنْ مَحَبَّتِي فَتَىً فَتَنْ

وفي هذا مناسبةٌ لقولِ الميْكَالي (١) :

لَيْتَ أجْفَاني بِهِ سَعِدَتْ
فَتَرَىْ الطَرْفَ الَّذي فَتَرا [٦٦]

وقولِ الصقلّيِّ (٢) :

نَهَاكِ أهلُكِ عنّي مِنْ أجلِ أَهْلِكِ أَهْلِكْ

وقولِ مُجْبِرٍ (٣) أحدِ شعراء المجلس العالي المالكي ثَبَّتَ اللهُ سلطانه :

---

(١) ترجم صاحب اليتيمة لثلاثة من آل ميكال ، وذكر أنهم جميعاً على شهرة في تليد الأدب وطريفه ، وهم : الأمير أبو الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي ، ورئيس نيسابور أبو محمد عبد الله بن اسماعيل الميكالي ، وابنه أبو جعفر محمد بن عبد الله بن اسماعيل • انظر اليتيمة : ٣٥٤/٤

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أبي البشر الكاتب الصقلي الأنصاري [انظر ترجمته في الخريدة (قسم المغرب) : ٥/٢] والبيت في ديوانه : ٦٥ من أبيات أولها :

عذبت قلبي ببخلك فامنن عليّ بوصلك

وهو في الخريدة : ١٣/٢

(٣) هو مجبر بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن مجبر بن الحباب الأموي • ولد بصقلية عام ٤٦٤ هـ ، ثم انتقل الى مصر • انظر الخريدة (قسم شعراء مصر) ٨٩/٢

غارُوا فَغَارَ لِحَيْني فيهِمُ قَمَرٌ
هويتُهُ أفَلا أبْكي وقَدْ أفَلا

والمتقدِّمون يُسَمُّونَ هذا : تجنيسَ المماثلة ، وقومٌ يعبِّرون عنه بتجنيس اللفظ والخطِّ ، ويجعلون قولَ أبي نُوَاسٍ (١) في آل الربيع من أحسنه وهو :

عَبَّاسُ عباسٌ إذا حَضَرَ الوَغَى
والفَضْلُ فَضْلٌ والرَّبيعُ رَبيعُ

ويروى : إذا احتَدم الوغَى ، أي اشتدَّ حرُّه

والمملوك يقول : إن الأمدَحَ أن يكونَ إذا اشتد الوغى بَسَّاماً لا عبَّاساً ، فإن قصد بعبَّاسٍ رجلاً مشهوراً بالشجاعة فهو وجه جيد ، ويكون من باب قولِ الآخرِ :

حتى كأنَّك ياعليُّ عليُّ

ومن الشجعان المشهورين : عباسُ بنُ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيُّ ، وراَه عَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِب فقال : أهذا عباس بنُ مرداس ؟ لقد كنا نُفَرِّقُ به صبيانَنا في الجاهلية. اللهم إلا أن يكون أبو نُواسٍ أراد ما جاء في الحديث من قوله عليه السلام : (اِلقَوْا الكُفَّارَ بوجوه مُكْفَهِرَّةٍ) [٦٧] أي غِلاظٍ ، فهو وجه ، فأما قولُ الأعشى (٢) :

(١) ديوانه : ٤٦٣
(٢) ديوانه : ١٩١ ، والرواية هناك : سُدتَ بني الأحوص لم تعدهم -- وهو من قصيدة يهجو بها علقمة بن عُلاثة ، ويمدح عامر بن الطفيل وأولها :

شاقتك من قَتْلَةَ أطلالُها   بالشط فالوِتر الى حاجرِ

إن تَسُدِ الحَوْصَ فلم تَعْدُهُمْ
وعامرٌ سادَ بني عامرِ

فمنْ علماء الشعر من يجعلُه مُجانَسَة ؛ لأن أحدها رجلٌ والآخر قبيلة ، ومنهم من يقول بل معناهما واحد ؛ لأنه قال : بني عامرٍ، فأضاف البنين إليه ، ولو قال : ساد عامراً ، يعني القبيلة ؛ لكان تجانُساً غيرَ مَدْفُوعٍ . وقد سَلِمَ ابنُ سعيدٍ الحلبيُّ (١) من هذا التأوُّل في قولـه :

آلَ غَنِيٍّ (٢) مَا لِنَادِيكُمُ
قَدْ فَقَدَ الطَّارِقَ والسَّامِرا

ومَا لهـذا البيتِ من عَامِرٍ
لم يُبْقِ بيتاً للنَّدى عامِراً (٣)

ومما ولده المُحدثون تجنيسُ التورية ، كقولِ مهيارٍ (٤) :

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان أبو محمد الخفاجي الحلبي .

(٢) البيتان في ديوانه : ٥٣ ، وهما مطلع قصيدة يرثي بها الأمير عضد الدولة الغنوي ، ورواية الديوان : يا لغني .

(٣) رواية الديوان :

مذهد هذا البيت من عامر لم يبق بيتاً للعلا عامرا

(٤) ديوانه : ٢٨٩/٢ من قصيدة كتب بها الى صديق له بالبطيحة يتشوقه ويمازحه باستهداء جبة ، وأولها :

قل لها أيها الخيال الطروق : نفَرَ العشقَ ما جنى المعشوقُ

ومُدِيرٍ سِيَّانَ عينــاهُ والإبْــ

ــرِيقُ فَتْكاً وريقُــهُ والرَّحيقُ

والإِبْرِيق ها هنا السيف ، وهو من أسمائه . قال أهلُ اللغة : إذا كان في السيف بَرِيق فهو إبريق . ووجهُ التورية أنه لمَّا قال : ومدير . ثم ذكر الإبريق حَسُن أن يعتقد فيه أنه آلةُ الخمر ، ولما كان المعنى على السيف صار مُوَرِّياً عن غرضه بهذه اللفظة المشتركة . وهذا غرور في التجنيس [٦٨] ومِثْلُه قوله (١) أيضاً :

فَتَىً لا يُرِيدُ المجدَ إلا لنَفْسِهِ

ولا المالَ إلا قِسْمَةً ومَنَائِحَا

يُنَازِعُ أزْمَاتِ الزمانِ بأَنْمُلٍ

جَوابِرَ للأحوالِ تُسْمَى جَوَارِحَا

فورَّى بجوارح ضِد جوابر عن الجوارح التي هي الأعضاءُ ، وقصد ههنا الأيدِيَ .

وقولِ عبد الله بنِ سعيد (٢) :

إذا سكنْتُمْ فقلبِي زائِدُ القَلَقِ

وإنْ رَقَدْتُمْ فَطَرْفي دائِمُ الأرَقِ

(١) ديوان مهيار : ١/١٩٨ من قصيدة كتب بها الى الصاحب أبي القاسم ابن عبد الرحيم في المهرجان يهنئه ، وأولها :

أمرتكم أمري بنعمان ناصحاً وقلت : احبسوها تلحق الحيَّ رائحا

(٢) لم نجدهما في ديوانه .

سَرَقْتُ بالنَّومِ وَصْلاً منْ خيالِكُمُ

فصارَ نَوْميَ مقطوعاً على السَّرَقِ

فورَّى بقوله : مقطوعاً الذي هو حُكْمُ السارق / عن انقطاع نومه الذي هو ذهابُه وعدمُه .

وقولِ مُجْبَرِ بنِ محمدٍ :

فسقَى مَحَلَّ الجِزعِ من مَحَلٍ به

غَيْثٌ تَدُورُ على الرُّبَى كاسَاتُه

سفحٌ سَفَحْتُ عليه دَمْعِي في ثَرَىً

كالمِسْكِ ضَاعَ من القَنَاةِ فُتَاتُه

فقد ورَّى بِضَاعَ من الضَّياع عن ضَاعَ من التَضَوُّعِ .

كما قال ابنُ حَيُّوسٍ (١) :

بِمَدْحٍ إذا ما ضَاعَ في القومِ نَشْرُهُ

فَمَا النِدُّ أهلٌ أنْ يكُونَ له نِدُّ

ومن مليحِ التورية قولُ عُمَرَ بنِ أبي رَبِيعَةَ (٢) :

---

(١) لم نجده في ديوانه .

(٢) ديوانه : ٤٩٥ ، من مقطوعة أولها :

أيها الطارق الذي قد عناني بعد ما نام سامر الركبان

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً
عَمْرَكَ اللهُ (١) كيفَ يَلْتَقِيَانِ

هِيَ شَامِيَّةٌ إذا ما اسْتَقَلَّتْ
وسُهَيْلٌ إذا اسْتَقَلَّ يَمَانِ [٦٩]

يعني الثُّرَيَّابنتَ علي بن عبد الله بن الحارث بن أميةَ الأصغرِ ، وكانت نهايةً في الحسن والجمال ، وسُهَيْلَ بنَ عبد الله بن عوف ، وكان غاية في القبح والدَّمَامة فمثَّلَهما بِسَمِيَّيْهما . وأراد بُعْدَهما وتفاوتَ محليْهما . وكلٌّ هذا من أبياتِ المعاني .

في الاشارة إلى مدائحِ مولانا وفضائِلِه

وما ازدانتْ به الأرضُ من قصورِه ومنازلِه

لما كان مولانا الملكُ ــ خلَّدَ اللهُ ملكه ــ آيةَ الله التي أبداها لعباده وأظهرها ، ورحمتَه التي بعثها على بلاده ونَشَرَها ، ومعجزتَه المُوضِحَةَ مستورَ الحكمة ومكنونَها ، وسريرتَه المُسْتَوْدَعَةَ من غامض علمه ما جعل كلَّ آيةٍ دونَها ؛ فكأنَّ البسيطةَ ما سُطِحَتْ إلا لِتَجُولَ فيها عساكرُهُ ، وكأنَّ البريةَ ما خُلِقت إلا لتَنْفُذَ فيها أوامرُهُ ؛ وجب أن لا تخلوَ الدنيا من آثاره التي تمجيدُها حَتْمٌ ، وتعظيمُها فَرْضٌ ، وأن يَدُومَ على هذه الخليقة بهاءُ المُبَاهاةِ بها ما دامت السمواتُ والأرض . وهذه الآثار التي انبعث شعاعُها من فَلَكِ مملكته ، وانبسطت أنوارُها في آفاق دولته

(١) في الديوان : عمرك اللهَ .

تنقسم إلى [٧٠] قسمين : أحدُهما ما يَتميَّزُ السمعُ بشريف ذكرِه ، ويَتَشَنَّفُ بنفيس جوهرِه وثمين دُرِّه ، وهو الإخبارُ عن غامرِ عدلِه ، والإبانَةُ عن شامل فضلِه ، والوصفُ لمواقفه التي كشفت الأعداءَ فيها وثباتِه ، والذِّكْرُ لسيرته التي بَهَرَ البَشَرَ تماديه عليها وثَبَاتِه . وجميعُ هذه المناقبِ قد ثبت في اللوح المحفوظ ، وتداولته الألسنُ فكلُّه من الملفوظ به غيرِ الملفوظ ، فما تترقّى همَّةُ الإخلال إلى دراسته وتلاوتِه ، ولا تتسلَّطُ السَّآمَةُ على عذوبته في الأفواه / وحلاوتِه ، فقد أَمِنَ راويه من تَطَرُّقِ النسيان عليه والسهوِ ، ونال من فضيلة إيرادِه ما أقام عُذرَه في الخيلاء والزَّهْوِ .
والقسم الثاني ما وقع على حسنه الإجماعُ ، وتنافست الأبصار فيه والأسماعُ ، واكتست به الدنيا أفخرَ زينة ، واستَخَفَّ الافتتانُ ببهجته الألبابَ الرزينَةَ ، من المباني التي غدت على صدر الأرض وِشاحاً ، وأظهرت في محياها غُرَراً وأوضاحاً ، وأَلْبَسَتْ جيدَها عِقداً ، ومفرِقَها تاجاً ، [٧١] واستوقفت الأبصارَ على بدائعِها فلم تَسْتَطِعْ عنها مَعَاجاً . وهذه موهبةٌ قد جمعت بين فضيلتيْ ملوكِ العرب والعجم ، واختصَّ مولانا من شرفها بما لم يَنَلْه أحـــدٌ في سالف الأمم ، وذلك أن المحافظة عــلى بقاء الذكر أمْرٌ قَسَمَه اللهُ بين أنبيائه الذين بعثهم وأرسلهم ، وبين ملوكِ أرضِه الذين اصطفاهم تعالى وفضَّلَهم . أما الأنبياءُ فَذِكْرُهم باقٍ ببقاء مِلَلِهم ، وأما الملوكُ فبما اقْتَضَتْه أحوالُهم في ممالكهم ودولِهم . فملوكُ العرب يعتمدون على تدوين مآثرِهـم بالفصاحة والبيان ، وملوكُ العجـم يُعَوِّلُونَ على إتقان العمارة وتشييدِ البنيان . وكلٌّ يعتقد أنه قد احتاط للذكر بما يضمن بقاءَه سرمَدًا ، ويجعـل تناقله أمراً دائماً لا ينتهي إلى مَدى . ومولانا ــ خلَّـد الله ملكــه ــ فقد حاز ما لم

يَحُزْه أحد من النوعين ، وجمع منهما ما يبقى على الأبد لذّةً للسمع وقرّةً للعين ؛ لأنه قد خُدم من النظم والنثر بما لم يَفُزْ بمثله [٧٢] مخلوق.واستكْثَرَ من سِنة الأرض بمنازله التي لكل منها من أنواره عَيّوق" • وقد اشتملت بغير شك على المحاسن الملوكيّة ، والصور الأرضية والفلكيّة ، وحوت الغرائبَ من اجتماع الحيوان المُتَضادِّ من غير عدوَى ، والتسوية بينه في أُهب الذّهَب تبرعاً بالعطاء والجدوَى ، وأنَّى يكون اعتداء" في أعمال مملكته فضلاً عن قصوره، أو اجتراء" لأحد بحضرته ؟ والمهابةُ تقضي بعجزه عن ذلك وقصوره ، وقد وصفها شعراءُ مجلسه العالي فيما صنعوه ، وتنوّعوا في ذكر ما خَدَموا به من ذلك ورفعوه ، وعُمِل منه ما لم يشمله شرفُ العرض بالمقام العالي ؛ ثَبَّت الله سلطانَه • فمما يرويه المملوكُ من ذلك قولُ محمودٍ القاضي الموفقِ ، ووصف التاجَ :

إنّ البسيطةَ قدْ أعـدْتَ شبابَها
حتى بَدَتْ وكأنّها لم تَهْرَمِ

لمّا غَدَتْ بكَ مُعْصِراً ألبَسْتَها
تاجاً تُرَصِّعُه سُعُودُ الأنْجُمِ

وتَمَاثَلتْ شُرُفَاتُهُ وصُحُونُهُ
في الحُسْنِ بينَ مُخَرَّمٍ ومُرَخَّمِ

وأولُ هذه الأبيات : [٧٣]

هذي منازلُ منْ هويتَ فَيَمِّمِ
وارتَعْ وسحَّ بربْعِها دِيَمَ الدَّمِ

عُجْنَا فَمِنْ صَبٍّ بِصَبٍّ دُمُوعِهِ
ذَرْبٍ ومِنْ مُتَعَسِّلٍ مُتَعَلِّمِ

غَرَّاءُ يُجحدُ لحظُهَا بسقامِهِ
فَتَلَى فَتُخْبِرُ عنْ دَمِيْ بالعَنْدَمِ

شَعَلَ الهوى طَرْفِي وقَلْبِي إذْ بَدَتْ
يَوْمَ النَّوى بِتَأَمُّلٍ وتَأَلُّمِ

منهـا :

من كلِّ طَلْقِ الوجْهِ إنْ شَهِدَ الوغى
لَقِيَ العِدَى بِتَهَجُّمٍ وَتَجَهُّمِ

ولمُجْبِرٍ أحدِ شعراءِ مجلسِ مولانا ــ خلَّد الله سلطانه ــ في وصف فَوَّارةٍ في المباني الشريفة على ما أوجبه تَخَيُّلُه ، واقتضاه توهُّمُه وتمثُّله ، لأنه أدركها بنظره ، / ولا أجال فيها حاسة بصره (١):

وفَوَّارَةٍ يَسْتَمِدُّ السَّحَا
بُ مِنْ فَضْلِ أَخْلافِها المُحْتَلَبْ

رَأَتْ جَمْرَةَ القَيْظِ مُحْمَرَّةً
لَهَا شَرَرٌ كَرُجُومِ الشُّهُبْ

---

(١) الأبيات في الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢ / ٨٩

فَظَلَّتْ بهــا الأرضُ تَسْقِي السَّما

ءَ خَوْفاً عــلى الجوِّ أنْ يلْتَهِبْ

وهذا من قول الآخرِ في وصفها :

أمطرتِ الأرضُ بها السماءَ

ومن المستحسن في ذلك ما أتى به عليُّ بنُ الجهمِ في قوله :

وفَوّارةٍ ثأرُهـــا في الســـماءِ

فَلَيْسَتْ تُقَصِّــرُ عنْ ثارِهــا

تَرُدُّ عـــلى المُزْنِ ما أسْبَلَتْ

على الأرضِ مِنْ صَوْبِ مِدْرارِها (١)

[٧٤]والذي صنعه الشعراء في هذا الباب مما هو مستقِرٌّ في الخزائن المعمورةِ مُغْنٍ عن التوسّع فيه ؛ لا سيما وهذه الخدمة مُلحة، والذي أُورد فيها على وجه الإشارة .

ومن غير ذلك من الحكايات التي يتناقلُها الناسُ ويتداولونها ، ويستكثرون بلاغتَها ويستعظمونها على أنها مَطْلَعٌ يقتضي ما يجيء

(١) ديوانه : ٣٠ ــ ٣١ ، وهما من قصيدة يمدح بها المتوكل ويصف القصر المعروف بالهاروني وأولها :

وما زلت أسمع أن الملو ... ك تبني على قدر أخطارها

والبيتان في الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/٨٩ وقد نسبا للبحتري ، وهما في الخريدة (قسم المغرب) لعلي بن الجهم .

بعده ، وابتداءٌ لا عذرَ للإعجاب أن يكتفيَ به فيقفَ عنده ما تضمّنه كتابُ الوزراءِ والكتاب لابنِ عَبْدوس من أن فتى قدِم على عَمْرِو بنِ مسعَدَةَ متوسلاً إليه بالبلاغة ، وأن عَمْرواً امتحنه فرمى إليه كتابَ صاحب البريد في بعض النواحي يخبر أن بقرةً ولدتْ غلاماً ، وقال له : اكتب في هذا المعنى ، فكتب : الحمد لله خالقِ الأنامِ في بطون الأنعامِ . فلما رأى عَمْرٌو ذلك جذَبَ ما كتبه من يده ، وأحسن إليه ، وأعاده إلى بلده . وما علم المملوك أحداً تمم هذه البداية المُستحسَنة ، ولا تعرّض لتكميلها [٧٥] في مدة ثلاثِ مئةِ سنةٍ ، فاستيقظ لاستدراك ما تركه المتقدمون وأغفلوه ، وتنبه على استئناف ما أخلّوا به وأهملوه ، إذ كانت أيام مولانا مكمِّلة كلّ ناقص من جميع الفنون ، ومخصوصة من الفضائل بما يُوفي على الأوهام والظنون . وأنشأ في ذلك ما العادةُ جاريةٌ أن يُقرَأ مثله على الناس وهو : الحمد لله خالقِ الأنام في بطون الأنعامِ ، ومُصَوِّرِهم بحكمته فيما يشاء من الأرحامِ ، ومخرج الناطق / من الصامت مع اختلاف الأشكال ، وتباين الأجسام ، إبانةً عن باهر آيته فيما ابتدَعَ وإظهاراً لما استحال في العادات وامتنَعَ ؛ ليدلّ على أن قدرتَه أبعدُ غايةً مما يتخيلُه الفكر ويتوهمه ، وأن مصنوعاتِه شواهدُ وحدانيته لمن يتبيَّنُ معجزَها ويتفهمه . يحمده أمير المؤمنين على ما اختصّ به أيامَه من بدائع مخلوقاته ، ويشكُرُه على غرائب صنعه التي أضحت من دلائل فضله وعلاماته ؛ إذ كان ــ جل وعلا ــ قد جعل آياتِه موقوفة على أزمنة [٧٦] أصفيائه ، ومعجزاتِه مقصورة على عصور أنبيائه وأوليائه ، على أن لديه من خليله وفتاه ، وصفيِّه الذي أوجَه السعد نحوه وأتاه ، السيدِ الأجل الأفضل أميرِ الجيوش سيف الاسلام ، ناصر الإمام ، كافلِ قُضاة المسلمين ، وهادي دُعاة

المؤمنين ، عَضَدَ اللهُ به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرته ، وأعلى كلمته ، الذي اكتسى الدينُ بنصرته ثوبَ الشباب والبهجة ، واقترنت المبالغةُ في صفاته بقول الحق وصدق اللهجة ؛ ملكاً غدا الزمان جَذِلاً / بدولته مُغْتَبِطاً ، وسيداً ارتفع أنْ يأتي بالمكارم إلا مخترعاً لها مستنبطاً ، وسلطاناً يفعلُ الحسنةَ عذراءَ ، ويتنزَّهُ أن يفعلها عَوَاناً ، وهُماماً يَتأَنَّسُ في العزمات بنفسه ، فلا يستنجدُ أنصاراً لها ولا أعواناً . لا جَرَمَ أن أمير المؤمنين يرفُل من تدبيره في ملابس العزّ الفاخرة ، ويتحقّق أن النعمة به في الدنيا برهانُ ما أُعِدَّ له في الدار الآخرة ، ويرغب إليه في الصلاة على جَدِّه محمدٍ سيد ولد آدمَ ، وأشرف مِنْ كل مَنْ سلف [٧٧] وقتُه وتقادمَ ، والمبعوثِ بشيراً ونذيراً إلى كافة البشر ، والمخصوصِ بتسبيح الحصَى ، وحنين الجِذْع ، وانشقاق القمر ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أميرِ المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ، مُسْتَوْدَعِ سرِّه ، ومُنْتَهى علمه ومقرِّه ، ومن قاتل الجن فَسَقَوا بعَضْبِه كأسَ المنون ، ورُدَّتْ له الشمسُ كما رُدَّت من قبله ليُوشَعَ بنِ نُون ، وعلى آلهما الهداةِ الأئمة الذين زالت بإرشادهم كلُّ شُبهة وغُمَّة ، وتَنسخَت بأنوارهم ظُلَمُ الشكوك المُدْلَهِمَّة ، وتنقّلت فيهم سيادةُ هذا العالم ، وسياسةُ هذه الأمة ، وسلّم عليهم أجمعينَ تسليماً ، وزادهم تشريفاً وتكريماً وتعظيماً . وإن أمير المؤمنين إذا تأمل ما يُنْشِئُه الله تعالى ويُبْدِعه ، وتدبر مايبدئه سبحانه ويخترعه ، وجد من غرائب الفعل ، وغوامض القدرة ، وعجائب الصنع ، وسرائر الفِطْرة ، ما يبعث على الضَّراعة له والخُشُوع ، ويدعو إلى الاستكانة لعظمته والخُضُوع ، ويقتاد كلَّ ذي لُبٍّ وتصوّر ، ويضطر كل ذي عقل وتفكّر إلى صحة العلم [٧٨] بأنه الله الذي لا إلهَ

إلا هو ، الواحدُ لا من حساب عادٍّ والقاهرُ بلا مُدافع لأمره ولا رادٍّ ، والرازقُ المُنشىء المقدر . والخالقُ البارىء المُصوِّر ، مُخْرِجُ العالمِ من العدم إلى الوجود ، وفاطر النَّسَمِ على غير المثال المعهود ، والدالُّ على حكمته بإتقان ذلك وإحسان تركيبه ، ومُصَرِّفُ الأقدار فيما تُحدِثه قدرتُه النافذة وتأتي به . وهذا برهان أمير المؤمنين فيما هو لَهِجٌ به من الذكر والتوحيد ، وحُجَّتُه فيما هو مُتَوَفِّر عليه من مواصلة التحميد والتمجيد ، والله عزَّ وجلَّ يضاعف له ثوابَ المجتهدين ، ويُنيلُه الزُّلْفَةَ بما يعينه عليه من إعزاز الدين . وإنه عُرِضَ بحضرة أمير المؤمنين كتابُ متولِّي البريد ، يتضمن أمراً أبان عن العظمة القاهرة ، وأعرب عن المعجزة الباهرة ، وأوضح المعذرة لمن يعتقده من شرائط الساهرة . وذلك أنه أُنْهِيَ أن بقرة جرت حالُها على غير القياس ، فَنُتِجَتْ حيواناً على هيئة الناس ، وفي هذا مخالفةُ المنتوج جنسَ الناتج ، وذلك مما يضلل [٧٩] الفهم ويستوقِفُه ، إذ كان مما تُنكره العقول ولا تعرفه . وهذا من الإنذارات المُنَبِّهَةِ المُوقِظَةِ ، والإبداعات التي تضمَّنَتْ بالغ الموعظة ، وفيها تحذير لمن تمادَى على الآثام والمعاصي ، وتذكير ليومٍ يُؤخذ المجرمون فيه بالأقدام والنواصي . فتأمَّلُوا معشر المسلمين – رحمكم الله – هذه الحادثة وما اشتملت عليه من الوعيد ، وتدبَّروا ما خطب به لسانُ التخويف فيها مُسْمِعاً للقريب والبعيد : « إنَّ في ذلك لَذِكْرى لِمَنْ كان له / قَلْبٌ أو ألقَى السَّمْعَ وهو شَهِيدٌ » (١) وبادِروا – وفقكم الله – إلى الدعاء والابتهال . واعملوا بما نُدِبْتُم إليه من صالح الأعمال ، وأقلِعُوا عما كنتم تُمْسُون عليه من الخطايا وتُصْبِحُون ، وتُوبوا إلى الله جميعاً أيهَا

(١) سورة ق : ٣٧

المؤمنون لعلكم تفلحون ، وتوسلوا عنده بتعميركم مظانّ الخير ومواطنه ، وانتهوا إلى ما أمركم به في قولـه : « وذَروا ظاهرَ الإثم وباطنه »(١) واعتقدوا الإخلاص في جميع ذلك وأضمروه ، [٨٠] واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه • فهذا إذا عكفتم عليه ، واجتهدتم فيه ، واعتمدتم منه ما يُذهب عنكم رجزَ الشيطان وغيّه ؛ حُزتم من الثواب جزيلاً جسيماً ، ونلتم في العاجلة حظاً عظيماً ، وكنتم في الآجلة ممن قال الله فيهم تبييناً لصادق وعده وتفهيماً : « تحيّتهم يومَ يلقونه سلام وأعدّ لهم أجراً كريماً » (٢) وقد دعاكم إيثارُ أمير المؤمنين إلى ما يُحييكم ، ونصح الله تبارك وتعالى ولرسوله فيكم ، / فسارعوا إلى أمره ترشدوا ، وتمسكوا بهدايته توفّقوا وتسعدوا، فاعلموا هذا ، واعملوا به ، وانتهوا إليه انتهاءَ مَن الطاعةُ غايةُ مطلوبه إن شاء الله •

من غريب الاتفاق أن أديباً أنشد الملوكَ بيتاً لعبد الله السمّطي (٣) وهو :

حارَ طرْفٌ تأمّلكْ ملِكٌ أنتَ أم ملَكْ (٤) ؟

---

(١) الأنعام : ١٢٠

(٢) الأحزاب : ٤٤

(٣) من شعراء المعز بن باديس ، انظر ترجمته في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٣٣ ، وقد ورد اسمه هناك : عبد الله السمسطي ، ولكن المحقق ذكر أن اسمه ورد في نسخة أخرى : عبد الله السمطي • وورد اسمه في نفح الطيب : ٣/٦١٤ ، عبد الله بن السمط •

(٤) البيت في نفح الطيب • وهناك أنه لما أنشد أبو القاسم ابن الصيرفي قول عبد الله بن السمط :

حار طرف تأملك ملك أنت أم ملك

فقال المملوك : هذا يليق بصفة مولانا وينبغي أن يكون ثانيه :

بل تعالَيْتَ رُتْبَةً فَلَكَ الأرضُ والفَلَكْ

وكان أحد شعراء المجلس العالي — ثبَّتَ الله أيامه — ابتدأ قصيدة في ذلك الوقت لما رفعت العرب رؤوسَها ، وسَفِهَتْ نفوسَها ، وبَطِرَتْ نعمتَها ، وأساءت سيرتَها ، فقال :

ظَنّوا جهادَكَ في أعدائِك الرّومِ
يُلْهِيكَ بالشامِ عن قُوْصٍ وإخْمِيمِ

وما دَرَوْا أنَّكَ الشمسُ المنيرَةُ في السَّـ
ـبْعِ السَّمواتِ والسَّبْعِ الأقاليـمِ

فاستعظم المملوك تفاوت الخاطرين في الوصف ، واتفاقَهما في الوقت . وذكر المملوك بالإجازة مارُوِي من أن بعض الخلفاء سأل يوماً عَمَّنْ ببابه من الشعراء فذُكروا له ، فأمر بإحضارهم ، فلما صاروا بين يديه قال : قد قلتُ بعض بيت فهل فيكم من يُكَمِّلُه ؟ قالوا : وما هو يا أميرَ المؤمنين ؟ فقال :

المُلْكُ لله وحْدَهْ

← قال بديهاً :

بل تعاليت رتبة فلك الأرض والفلك

والبيتان في الخريدة (قسم المغرب) ١/٣٣٩ وقد نسبا لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن زكريا القلعي الأصم .

فقال أحدُهم (١) ارتجالاً :

وللخليفةِ بَعْدَهْ [٨٢]

فقال : أحسنتَ ، فهل من زيادة ؟ فقال :

وللمُحِبِّ إذَا مَا حَبِيبُهُ باتَ عِنْدَهْ

فأمر له بصِلةٍ سَنِيَّةٍ .

وحُكي أنَّ أبا نواسٍ ، والعباسَ بنَ الأحنفِ ، والحسينَ بنَ الضَّحَّاكِ الخليعَ ، ومُسْلمَ بنَ الوليدِ ، ويَحْيَى بنَ مُعَلَّى ؛ خرجوا في مُتَنَزَّهٍ لهم ، وأدركتْ صلاةُ المغرب ، فقام يحيى يصلي بهم ، فَنَسِيَ (الحمد) وأُرْتِجَ عليه في : (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) فقال أحدُهم :

أَكْثَرَ يَحْيَى غَلَطاً في : قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدْ

فقال الآخر :

قامَ يُصَلِّي ساهِياً حتَّى إذا أَعْيَا سَجَدْ

فقال الآخر :

يَزْحَرُ في محرابِه زَحِيرَ حُبْلَى بِوَلَدْ

فقال الآخر :

كَأَنَّمَا لِسَانُهُ شُدَّ بِحَبْلٍ مِنْ مَسَدْ

---

(١) الخبر والشعر في العمدة : ١/١٩٢ . وهناك أن الذي أجاز شطر أمير المؤمنين هو الجماز ، محمد بن عمرو بن حماد بن عطاء بن يسار مولى أبي بكر ، وهو ابن أخ سلم الخاسر ، وقيل : ابن خالته . بصري ، ماجن ، خبيث اللسان (ترجمته في معجم الشعراء : ٣٧٤) .

فقال بعضُ المتأخرين ما جَرَّتْه الحكايةُ ، وأغفله الجماعة :

ونَسِيَ (الحَمْدُ) فَمَا مَرَّتْ اهُ عَلى خَلَدْ (١) [٨٣]

فَصْل

بعضُ العَصْرِيّين :

وقدْ كانَ هـذا البحرُ ليسَ يَجُوزُه
سِوى خائفٍ من ذنْبِه ومُخاطِرِ

فأضْحَى بِسَنْ يَنْتَابُ جودَكَ عامِراً
كأنَّ عليه محكماتِ القَنَاطِرِ

وفيه مُلامَحة لقول دِعْبِلٍ (٢) :

وقَالَ أُنَاسٌ إذْ رَأَوْا فَضْلَ مِدْحَتي
لعمرانَ والنائي المكارمِ يُمْدَحُ

(١) في الحاشية : (قال الشيخ أبو العباس بن الخطية : قد بقي من ذلك ما يمكن أن يقال : فلعله قرأ غير ذلك ، وأورد :

ورام شيئاً غيرها يقرؤه فما وجد) .

(٢) البيتان غير موجودين في ديوانه (صنعة الدكتور محمد يوسف نجم) وفي شعره صنعة الدكتور عبد الكريم الأشتر : ٨٩ ، البيت الثاني فقط ، وروايته :

وقالوا : أترجو (الفضل) والبحر دونه
فقلت : نوال (الفضل) ينخسن يسبح

أتطمــــعُ في عِمرانَ والبــحرُ دُونَه؟
فَقُلْتُ : نوالُ البحــرِ يُحْسِنُ يسبَحْ

وهما يلتقيان من وجه ، ويفترقان من آخرَ . فوجْهُ التقائهما : أن البحر صراط بين ممدوحيهما ، ووجهُ / افتراقهما : أن أحدَهما يسعى إلى النوال ، والآخرَ يسعى النوالُ إليه ، إلا أن قوله : محكماتُ القناطر ، مما ملَّح فيه .

فَصْـــلٌ

من المحدثين المجيدين محمــدُ بن شرف (١) ، وذكر في بعض تصانيفه أنه كتب يشرح حال حَاجٍّ أصابه في الطريق حَرٌّ شديد ، فنزل بئراً ليشربَ ، فسقطت فيها صاعقـــة ، فسلِمَ منها ، ثم ركب وسار ، فنزل بَرَدٌ أصابت رأسَه منه واحدة فقتلتْه . وكتابه في ذلك مشهور [٨٤] وقد كتب المملوك في هذا المعنى : إن من نوادر العِبَر ، وبوادر الغِـــيَر ، ما اتّفق لفلان عند توجهه من الطائف ، وتركِه استصحابَ الماء توكلاً على اللطائف ، فإنه لقي يوماً مُتَلَهِّبَ الأُوَار ، مُتَضَرِّمَ النار ، قـــد فُقِد نعيمُه ، وعُدِم نسيمُه ، واستُعير من لفـــح جهنمَ حرُّه وسَمُومُه ، فاستند إلى صبره ، وأوى إلى جَلَده ، ظانّاً سرعةَ ذاك على ما وقع في خَلَده ، فلما اشتدَّ القَيْظُ ، وخِيفَ على النفوس الفَيْظُ (٢) ، وتزايد به الأُوَام ، وتَشَخَّص له الموت الزُّؤَام ، جعل يتماسك ويسير ، وقد تيقن أن

(١) في الحاشية : (شرف اسم أمه) وهو محمد بن أبي سعيد المعروف بابن شرف الجذامي القيرواني .

(٢) يقال : فاظ فوظاً وفواظاً مات ، ومثله : فاظ فيظاً وفيوظة وفيظاناً ...

باقي عمره قليل يسير . فبينا هو على تلك الحال ، يغور تارة ويُنْجِدُ ، وقد أعوزَه من يُعين وأعجزه من يُنْجِدُ ، إذا هو ببئر ساقته إليها مُهْلَةُ الأجل وهَدَتْه ، وقادته نحوها فُسحة المدة وأدَّتْه ، فلعدم الرِّشاءِ وتعذُّرِه ، وإعجالِ الأمر له عن تَثَبُّتِه وتَصَبُّرِه ، [٨٥] نزلها كارِعاً في مائها ، وناعشاً بها نفساً لم يبقَ غيرُ ذَمائها . وإنه لكذلك إذ وقعت عليه صاعقة حَبِيُّها يُصْعِق ، ومسُّها يُهْلِكُ ويُوبِق ، فلقيتِ البئرُ حِدَّتَها دونه ، وحالت للمشيئة بين مَضَرَّتِها وبينَه ، ثم صَعِدَ منها بعد أن نَقَعَ غُلَّتَه ، وبلغ أمنيَّتَه ، فسما بطَرْفِه ، واستولى على طِرفه ، وأعجب بحظِّه ، وتوهم أن القدر لا يغفل عن حفظِه ، وتحقق أن قُصُودَ المنايا له مخطئة ، وضروب الرزايا عن الوصول إليه مبطِئة ، وسار جَذِلاً غيرَ جَزِع ولا وجِل ، واثقاً بالسلامة وكم من واثق خَجِل ! فما مضت ساعة حتى نشأت غَمَامَة جَرَّ اليوم منها ستارتَه ، ونسخ بها ذلك التوهُّجَ ومحا آيتَه ، وجعل جامدُ السماء يذوب ، وماء المُزْن يهطل ويَصُوب ، وأخذت الأقضية تَحَلَّل من الدِّيَم العُقَد ، وتُفَوِّق إلى مقاتل المقتول سهام البَرَد ، فلم يزلْ يأتيه أرْسالاً ، ويتناثر عليه يميناً وشِمالاً ، إلى أن أصابت إحداهن منه الهامة ، فأذهبت [٨٦] نفسه وعَجَّلَت له القيامة . فسبحان من قَرَّب له المسافة بين مَنْهَل الاغترار ومَصْرَع الاعتبار ، ومن نجاه مِمَّا الهلكةُ بمثله مُعتادة ، وأهلكه بما يُحْيي به أرضه ويرحم عبادَه . وهو المسؤول أن يُسبغ علينا فضله ، ولا يجعلَنا بين عباده مُثْلَة ، إنه جواد يجيب داعيَه ، ولا يُخَيِّب راجيَه .

وابن شرف من أعيان الشعراء ، وأماثل البلغاء ، وله أبيات يُجيد فيها ، ويُحسن في معانيها . فمن بديع شعره قولُه :

خُلُقٌ كماءِ المُزْنِ طِيبَ مَذَاقَةٍ
والروضةِ الغَنّاءِ طِيبَ نسيمِ

كالسَّيفِ لكنْ فيه حِلْمٌ واسعٌ
عَمَّنْ جَنَى ، والسيفُ غيرُ حَليمِ

كالليثِ إلا أنه مُتَبَرْقِعٌ
بوسَامَةٍ ، والليثُ غَشْيرُ وسيمِ

كالغَيْثِ إلا أن وابِلَ جُودِهِ
أبداً ، وجُودُ الغيثِ غيرُ مُقيمِ

كالدَّهرِ إلا أنه ذُو رحمةٍ ،
والدَّهرُ قاسي القلبِ غيرُ رحيمِ

وقولُه :

جفاني فواصلْتُ الصَّبابَةَ والأَسَى
وبانَ فلم أعْدَم سُهَاداً وَلا دَمْعَا

أَأَسْرٌ وَلا أُفْدَى ، وقَتْلٌ ولا أُدَى
وسُقْمٌ ولا أُشْفَى ، وموتٌ ولا أُنْعَى

وقولُه (١) :

---

(١) البيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٢٨ ، وفي معجم الأدباء : ١٩/٣٨ ، وهما في البديع في نقد الشعر : ٣٣ بدون نسبة .

إنْ تَلْقِكَ الغُرْبةُ في مَعْشَرٍ

تَضافَرُوا فيكَ على بُغْضِهِمْ [٨٧]

فَدارِهِمْ ما دُمْتَ في دارِهِمْ

وأرْضِهِمْ ما دُمْتَ في أرْضِهِمْ

وقولُه في مثله (١) :

يا ثاوِياً في مَعْشَرٍ قَدِ اصْطَلَى بنارِهِمْ

فَما حَيِيْتَ جارَهُمْ فَفِي هَوَاهُمْ جارِهِمْ

وأرْضِهِمْ في أرْضِهِمْ ودارِهِمْ في دارِهِمْ

وقولُه في عود قينة (٢) :

سقَى اللهُ أرضاً أنْبَتَتْ عودَكِ الذي

زَكَتْ منه أغصانٌ وطابَتْ مَغارِسُ

تَغَنَّى عليها الطَّيْرُ وَهْيَ رطيبةٌ

وغَنَّى عليها النّاسُ والعُودُ يابِسُ

(١) الأبيات في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٢٨ ، وفي الذخيرة ، المجلد الأول القسم الرابع : ١٦٩

(٢) البيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٢٩ ، وفي فوات الوفيات : ٢/٤١٢

وقوله في مثله (١) :

يا عودُ مِنْ أَيَّةِ الأشجارِ أنت فَلا
جفـا ثَراها ولا أغصانَها المـاءُ

غنَّى القِيانُ عليها وَهْيَ يابِسَةٌ
بعدَ الحَمَامِ زمَاناً وَهْيَ خَضْراءُ

وقوله (٢) :

خليلَ النفسِ لا تُخْلِ الزُّجَاجَا
إذا بَحْرُ الدُّجى في الجَوِّ مَاجَا

وجاهِرْ في المُدَامَةِ مَنْ تُرائِي
فَمَا فوقَ البسيطةِ مَنْ يُدَاجَى

إذا مِرِّيخُها اتَّقَدَ احمراراً
صَبَبْنَا المُشْتَرِي فيها مِزَاجَا

والناس مختلفون في المزج • فمنهم من يراه فيأمر به ، ومنهم من يكرهه فينهَى عنه • وأحسنُ ما سمعه المملوكُ في الاعتذار عن المزج قول ابن رشيق : [٨٨]

(١) البيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٢٩

(٢) الأبيات في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٢٨ مع بيتين آخرين •

ما شَجَّهـا الساقي لسوءِ خُلْقِهـــا

كيفَ ومِنْ تعليمِها حُسْنُ الخُلُقْ

وإنَّمَـــا ظَنَّ سَنَاهَا لَهَبـــاً

فَشَجَّها بالماءِ كيـــلا تَحْتَرِقْ (١)

وهو مما أخذه من قولِ عبدِ المحسن (٢)

أتاني بها كالنارِ مِنْ قبـــلِ مَزْجِها

ومِنْ بعـــدِهِ كالشمسِ عندَ غُرُوبِها

لهيبُ قلوبِ الشَّرْبِ تُطْفَا بشُرْبِها

ويُخْشَى عـــلى أيديهِمُ مِنْ لهيبِها

وفي كلٍّ من المقطوعين ما ليس في الآخر ، فقول عبد المحسن : إن لهيب النار يُطْفَأُ بما يُخْشَى على الأيدي لهيبه معنى لم يستوفِه ابنُ رشيق ، وقول ابن رشيق :إنه شجها تَحَرُّزاً من الاحتراق زيادة على عبد المحسن .

وقد أحسن ابن رشيق أيضاً في وصف المزج بقوله :

---

(١) لم نجدهما في المجموع من شعره .

(٢) عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب الصوري ، الملقب بابن غلبون، شاعر حسن المعاني ، من أهل صور في بلاد الشام . توفي سنة ٤١٩ هـ (انظر الأعلام : ٤/ ٢٦٥) .

تزأر في الكــأسِ وهْيَ مُزْبِـدَةٌ
كـأنَّ حبسَ السُّقاةِ أغْضَبَهـا

شُجَّتْ مِراراً كـأنَّ شارِبَهـا
لـم يَسْتَطِعْ قَتْلَها فعَـذَّبَها

ومن غريب ما في هذه الأبيات :

وقـامَ بالكأسِ بيننا قَمَـرٌ
يُديرُ ذاتَ اليمـينِ كوكَبَها

فقلتُ : خُـذْها وهاتِها عَجِـلاً
فقـال : لا تُكْثِرِ التعتُّـبَ ها (١)

ويحتاج منشدُ هذا البيت عند ذكر القافية إلى إشارة المناولة ، فبذلك يتم المعنى .

فأما النهي عنه فمن أحسن ما جاء فيه لمتأخر (٢) : [٨٩]

قَدْرُ المُدامَةِ فوقَ قَدْرِ المـاءِ
فارغَبْ بكأسِكَ عن سِوَى الأَكْفاءِ

ولِفَرْطِ ما قَـلَّ الخليطُ رَفَعْتُها
عمّا يكـونُ لها من الخُلَطـاءِ

(١) لم نجد هذه الأبيات في المجموع من شعر ابن رشيق .
(٢) هو ابن رشيق . وفي المجموع من شعره : ٢٢ البيت الأول فقط .

والمليحُ كلُّ المليح قولُ مُسلم (١) :

إذا شئتُمـا أنْ تسقياني مُدَامَـةً
فلا تَقْتُلُوها (٢) كلُّ مَيْتٍ مُحَرَّمُ

خَلَطْنا دَماً من كَرْمَةٍ بـدمائِنا
فأظهر في الألوانِ منّا (٣) الدَّمَ الدَّمُ

ولعمري إن أسرارها في الألوان فاشية ، وحمرةَ الخدود مُخْبِرةٌ واشية .

ولقد أحسن الآخر (٤) في قوله :

ومقتُولِ سُكْرٍ عاش لمّا دعوتُه (٥)
فبـادَرَ مسروراً يرى غَيَّهُ رُشْدَا

وقـامَ تُثَنِّيهِ بقايـا خُمَارِهِ
وقد قَطَفَتْ عيناه من خَدِّهِ وَرْدَا (٦)

---

(١) ديوانه : ١٧٩ ، من قصيدة يمدح بها زيد بن مسلم الحنفي . وأولها :
أأعلن مابي أم أسر فذكتم   وكيف وفي وجهي من الحب مَعْلَمُ

(٢) في الديوان : تقتلاها

(٣) في الأصل : منها ، والتصحيح من الديوان .

(٤) في الحاشية : (ابن المعتز) وهما له ، كما في ديوانه : ١/١٨٠

(٥) في الديوان : عاش لي إذ .

(٦) رواية الديوان :
وقام بكفيه بقايا خماره   وعيناه من خديه قد جفتا وردا

لأنه جمع بين الاستعارة والتشبيه مع حُسن اللفظ • وعلى ذكر العين والخد فقد أبدع ابنُ مكنسةَ في قوله (١) :

لم أرَ قبـلَ شَعْرِهِ ووجهِـهِ
ليلاً عـلى صُبحِ نهارٍ (٢) عَسْعَسَا

والسُّكرُ في وجنتِـهِ وطَرْفِـه
يَفْتَـحُ وَرْداً ويَغُضُّ نرجِسا

على أن من تشبيهاته التي ابتكرها قوله من أبيات في الخمر :

ما لاحَ وَجْهُكَ يَجْتَـلى في مجلسٍ
إلا وجَلَّى عنه وجهـاً أرْبَـدا

بِكْرٌ إذا افْتَرعَتْ أخذتُ شعاعَها
بيديْ وقلتُ لأهلِها هـذا الرَّدَى

ومن مليح ما وُصِفَ به فعلُها قولُ ابنِ وكيعٍ (٣) :[٩٠]

إذا مَلَكَتْ رِقَّ الحِجَى ساءَ مِلْكُها
لَهُ فَهْوَ منهـا مُدَّةَ الـدهرِ آبِقُ

---

(١) البيتان في الخريدة (قسم شعراء مصر) ٢/٢٠٨

(٢) رواية الخريدة : ليلاً على ضوء الصباح ...

(٣) أبو محمد الحسن بن علي بن وكيع التنيسي ، شاعر بارع ، وعالم جامع ، من شعراء اليتيمة (ترجمته في اليتيمة : ١/٣٧٣ ، ووفيات الأعيان ، ترجمة ١٦٣ ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ..) .

ويحكى أن رجلاً ترك النبيذ ، فقيل له : لِمَ تركتَه وهو رسول السرور ؟ فقال : إلا أنه بئس الرسول ، يُبْعَثُ إلى القلب ، فيمضي إلى الرأس .

وقال آخر (١) :

كأْسٌ إذا جُلِيَتْ علينا في الدُّجَى
لم تُبْقِ منها غَيْرَ صُدْغٍ أسودِ

وتظُنُّهـا دارتْ عليك وإنما
دارتْ على نُوَبِ الزمانِ بِمُرْقِدِ

ولابنِ شَرَفَ (٢) :

ولقد نعمتُ بليلةٍ جَمَدَ الحَيَا
بالأرضِ فيها والسماءُ تَذُوبُ

والكأسُ كاسِيَةُ القميصِ كأنَّها
لوناً وقَدّاً مِعْصَمٌ مَخْضُوبُ (٣)

---

(١) في الحاشية : (عبد المحسن) .

(٢) الأبيات في معجم الأدباء : ٣٩/١٩ ، وفي الخريدة (قسم المغرب) ٢٢٩/٢ ، وفي فوات الوفيات : ٤١١/٢ البيتان الأولان مع أبيات أخر .

(٣) في فوات الوفيات : لوناً وقدراً .. وفي معجم الأدباء :

والكأس كاسية القميص يديرها   ساقٍ كخودٍ كفه مخضوب

مشروبةٌ ، لِلشّبِّ شارِبةٌ ، وما
شيءٌ سِواها شارِبٌ مَشْـرُوبُ

وقد تَصَرَّفَ في معنى قوله : شارب مشروب ، ونقلَه إلى معنىً آخرَ فقال :

وطلبـتُ منه تَكَرُّماً وظلمتُـه
فَتَعَجَّبُوا من ظالِـمٍ مُتَظَلِّمِ

مثـلُ الصلاةِ أردْتُهـا من حائِضٍ
أو كالزكـاةِ طلبتُها من مُعْـدِمِ

وهذان في أبيات منها :

لـولاكَ ما لبسَ الضَّنَى جسدِي ولا
عَبَسَ الزمـانُ إليَّ بعـد تبَسُّمِ

غـيري جَنَى وأنا المُعَاقَبُ فيكُمُ
فكأنَّني سَبَّابـةُ المُتَنَـدِّمِ (1)

وقد أخذ معنى هذا البيت أحد شعراء العصر فقال : [91]

فإنْ كـانَ ذا غَيْظٍ فإني بَنَانُهُ
يَسِيلُ دَماً من عَضِّهِ المُتَتَابِـعِ

ولابن حيوس (2) في تركيب شارب مشروب ، وظالم متظلّم :

---

(1) في الايضاح : 341 هذا البيت فقط .

(2) ديوانه : 1/171 من قصيدة يمدح بها أمير الجيوش وأولها :

طاول بهمتك الزمان وحيدا   فأرى مداك على الأنام بعيدا

فلكَ الفريدُ وقد وجـــدتَ نِظَامَهُ

وليَ النظامُ (١) وقَدْ وجدتُ فَرِيدا

حمِدَ الورى ليَ ذا الثنـــاءَ ومذهبي

فيــه فكنتُ الحامِدَ المحسُــودَا

والاختلاف في الصرف والممـــزوج كالاختــلاف في الصَّبُوح والغَبُوق ، وقد أكثر الناس من الكلام فيهما ، والتفضيلِ بينهما . ومن أحسنِ ما سمعه المملوك في تفضيل الغَبوق على الصبوح قولُ بعض المتأخرين الذين اشتهروا بالعكوف / عــلى لذاتهــم ، وأطاعوا سلطان أغراضهم وشهواتهــم ؛ فإنه ذَمَّ الصبوح وكان يُدْمِنُه ، واعتذر عن ذلك بما يستطيعه ويُمْكِنُه فقال : لاعُذْرَ في الصبوح لغير مَلِك ، أو خليع منهمِك ؛ فالملِك لا يقاس عليه لعظمته ، والخليع لا يُلْتَفَتُ إليه لضَعَتِه ، وإن كنتُ في هــذا من الشعراء أقول مالا أفعل ، لكن فَضَّلْتُ أحسن القولين ، ولم أجمــع بين الخطأ من وجهين .

وقال آخر ممن جعل النهار لرقدَتِه ، [٩٢] والظلامَ لعودته : لمَّا فَنِيَ عُمُرُ الأمس ، وطَفِيءَ سراجُ الشمس ؛ لاحت بروقُ الثغور اللوامـــع ، وجلجلت رُعُود الأوتار في المسامع ، وبُعِثَ مُخَارِق" وابنُ جامع، فلم يزل ذلك دأبُنا ما أقلع سحابُنا ، ولا يبِس ترابُنا ، حتى مُتنا بالهجعة ، وكلنا يقول بالرَّجْعَة .

---

(١) رواية الديوان : ولي الثناء .

وقال آخر : لما ظهرت في الأرض الزَّهرَةُ ، وفي السماء الزُّهَرَةُ ، شربنا على المَنا ، والمُقَبَّل الألْمَى ، وأجرينا شُقْرَ الراح حتى رأينا أشْقَرَ / الصباح فَكَمَنَّا في خَمَرِ النوم عُمرَ اليَوم ، ثم خلعنا عُهْدَةَ الرَّجْعَة ، وأعدناها جَذَعَة .

وقال من يخالف هذا المذهب ممن يمدح الصَّبوح يعاتبُ صديقاً لاه في الغَبوق : جعلتَ أول أمرنا أوانَ سُكْرِنا ، وأدرتَ خَمْرَنا وقتَ خُمَارِنا ، فاغْرَمْ لنا بليلك ما أتلفْتَ من نهارِنا .

وقال آخر : نمنا بِنيَّةِ الاصطباح ، فهبَبْنا قبلَ الصباح، [٩٣] والأصواتُ خشِنة ، والحركاتُ زَمِنة ، وبدرُ الإنس هاجع ، وكوكب الأُنس راجع ، ثم نشِط الكسلانُ ، وانتبه الوسنانُ ، وبَرْهَنَ الأعشى وأبو نُواس ، على مُدَاوَاة الكاس بالكاس . فكم صُرع من قِرْن ، وما طلع للشمس قَرْن . ومن أعجب ما وقع الاختلاف فيه ما كان الناس مجمعين (١) على مدحه أو ذمه ، فيأتي من الفصحاء من يُحَسِّن ببلاغته مخالفتهم ، ويزين بعبارته مُفَارَقتهم ، كالوعد الذي جُبِلت النفوس على مَقْته ، وطُبِعت على الاستبطاء لأوان إنجازه ووقته . كما قال الشاعر :

أتَى زائراً مِنْ غيرِ وعدٍ وقال لي
أُجِلُّكَ عن تعذيبِ قلبِك بالوعْدِ

(١) في الأصل : مجمعون .

فجاء من قال (١) :

أحسنتَ في تأخيرِها مِنّةً
لو لَمْ تُؤَخَّرْ لم تَكُنْ كامِلَهْ

وكيفَ لا يَحْسُنُ تأخيرُها
بعد يقيني أنها حاصِلَهْ

وجَنَّةُ الفِردوس يُدْعَى بها
آجِلَةً للمرءِ لا عَاجِلَهْ

في الأبيات التي تقتضي قافية لا يكاد الخاطر يتخطّاها [٩٤] فيأتي قائلها بأخرى لايتعرَّض لها الفكر ولايتعدّاها ، من ذلك قولُ عُلَيَّةَ بنتِ المهدي (٢) :

ومُغْتَرِبٍ بالمرجِ يبكي لشَجْوِهِ
وقد بانَ عنه (٣) المُسْعِدُونَ على الحُبِّ

إذا ما أتاه الركبُ من نحوِ أرضِهِ
تَنَسَّمَ يستشفي (٤) برائحةِ القُرْبِ

(١) في الحاشية : (ابن رشيق) والأبيات له ، وهي في المجموع من شعره : ١٣٨

(٢) البيتان مع ترجمة علية بنت المهدي وأخبارها في الأغاني : ١٠/١٩٣ وقصتهما أنه لما خرج الرشيد الى الري أخذ أخته علية معه ، فلما صار بالمرج عملت هذا الشعر وصاغت به لحناً وغنت به ٠

(٣ـ٤) رواية الأغاني : غاب عنه ، تنشق يستشفي ٠

قال السابقُ المعري : فأنزلتِ « الركب » عن هذه القافية وقد كان لها موضع ، ولكن « القُرب » أحقُّ به • وقولُ ابن نُباتة (١) :

رمتْهُ بها أهـــلُ الجبالِ فما دَرَوْا

أخيـــلٌ رمَتْهَا بالعِدَا أم سَلاَلِمُ (٢)

والمملوك يقول : إن الذي يَمُرُّ إليه الخاطر تقفيةُ هذا البيت بالقَشَاعم ، فلما ارتفع إلى السلالم زاد المعنى بهجة •

في القوافي التي يُتَحَدَّى بها ؛ فتتعذر على ملتمسيها وطلابها

من ذلك قولُ ابن نيقيا البغدادي (٣) أحدِ شعراء الوقت :

للـــــهِ أيُّ مواقفٍ رقَّـــت لنا

فيها الرسائـــلُ والقلـــوبُ غِلاَظُ

(١) ديوانه : ١/٢٧٠ من قصيدة قالها في صباه مفتخراً • وأولها :

سوى حرتي ما هيجتها الحمائم وغير دموعي حاولتها المعالم

(٢) رواية الديوان :

رجمت بهم أهل الجبال فما دروا أخيل رمتهم بالعدا أم سلالم

(٣) عبد الله بن محمد بن ناقيا البغدادي ، توفي سنة : ٤٨٥ هـ (ترجمته في بغية الوعــاة : ٢٩٢ ووفيــات الأعيان : ٣/٩٨ ، وفي إنباه الرواة ٢/١٣٢ ، وميزان الاعتدال : ٢/٥٣٣) وقد ورد اسمه (ابن ناقيا) •

عهــــدي بظلّكَ والشبابُ نزيلُــه

أيــــامَ ربعُك للحسانِ عُكَــاظُ (١)

فأغرب فيما اهتدى إليه من هذه القافية [٩٥] وجدد بها رسم سوق جاهلية عافية، وأبان بذلك عن فكر دقيق، ومَغَاصٍ بعيد عميق.

وقول محمدِ بنِ عبَّادٍ (٢) :

مولايَ أشكــو إليك داءً أصبــحَ قلــبي بهِ قَريحا

سُخْطُكَ قد زادَني سَقَاماً فابْعَثْ إليَّ الرِضى مَسِيحا

فقوله : مسيحاً ، مما يضِلُّ الفكر في طلبه ، ويقف الخاطر دون حفظ السِّيَاقَة به . وكان بعض إخوان الملوك قد سأله كتب رقعة إلى صديق يوم غِطَاس يستهــديه نبيذاً ، فكتب : جرت العــادة في الغِطَاس بإعمال الكاس والطاس ، وهــذه الآلة إذا فَقَدتِ الراح ، بمنزلة أجسام عدِمَتْ الأرواح ، فَدَاو بإحيائها قلباً لي قريحاً ، وإذا كانت عازرَ فكُنْ لها مسيحاً .

وقول المطوّعي (٣) في الميكَاليِّ :

---

(١) البيتان في المختار من شعر شعراء الأندلس : ١٠٩

(٢) ديوانه : ٩٦ ، والخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٨ ، والمختار من شعر شعراء الأندلس : ١٠٨ ، وقد كتب بهما الى أبيه .

(٣) في اليتيمة : ٤/٤٣٣ ترجمة لأبي حفص عمر بن علي المطوعي ، وقد اتصل بخدمة الأمير أبي الفضل الميكالي .

وطِئَتْ بيَ الوجناءُ وجْنَةَ مَهْمَهٍ
متقاذِفِ الأكنافِ والأرجاءِ

كيما أُلاحِظَ منه في أُفُقِ العُلا
فَلَكاً يُدير كواكبَ العلياءِ

قَرْمٌ يداه وقلبُه ما منهما
في النظمِ والإعْطاءِ إلا طائي

فأسكن حاتماً وحبيباً في بيت ، واستخرج تورية [٩٦] بذلك صفة الحي من الميت •

وقد أحسن المتنبي غاية الإحسان في قوله (١) :

وتملِكُ أَنْفُسَ الثقلين طُرّاً
فكيفَ تَحُوزُ أنفُسَها كِلابُ

طلبتَهُمُ على الأمْواهِ حتى
تَخَوَّفَ أن تُفَتِّشَهُ السَّحابُ

والمتنبي — وإن كان مشهورَ الإحسان في النظم — فقد كانت له معانٍ يُجيدها في النثر • رُويَ أنه مرض بمصرَ ، وكان بعض أصدقائه يزوره في مرضه ، فلما توجهت صحته ، تأخر عنه ، فكتب إليه : / واصلْتَني مُعْتَلاً ، وقطعتَني مبتَلاً ، فإن رأيتَ ألاّ

(١) ديوانه : ١/٧٥ — ٧٦ ، من قصيدة قالها في سيف الدولة لما ظفر سنة ثلاث وأربعين وثلاث مئة ، وأولها :

بغيرك راعياً عبث الذبابُ — وغيرك صارماً ثَلَمَ الضرابُ

تُنَكِّدَ الصحّةَ عليّ ، ولا تُحَبِّبَ العلة إليّ • فعلتَ إن شاء الله • وذكر الإفليلي أن المتنبي أنشد سيف الدولة في الميدان قصيدته التي أولها :

لكلّ امرئٍ من دَهْرِه ما تَعَوّدَا (١)

فلما عاد سيف الدولة إلى داره استعاده إياها ، فأنشدها ، وكثر الناس فقال قائل منهم يريد كيْدَ أبي الطيب : لو أنشد قائماً لأسمع ، فأكثرُ الناس لا يسمعون ، فقال أبو الطيب : أما سمعتَ أولها : [٩٧]

لكلّ امرئٍ من دهرِه ما تَعَوّدَا

وهذا من مستحسن الأجوبة ولو أدرك المتنبي عصر مولانا لكانت خِدْمتُه واقفاً من أبهر آياته ، ومُثُولُه بين السِّماطَيْن قائماً من أشرف عاداته ؛ إذ كان الملوك وأبناؤهم لا تسمو هِمَمُهم إلى غير الوقوف لديه ، ولا يتعدى أملُهم الخضوعَ له والانتصابَ بين يديْه • ولقد سعِد بما يرويه مولانا من شعره سعادة لا يجهل أحد فضلَها ؛ فنال بعد وفاته رتبة لاتدرك الأفكار شأوَها ، ولاتبلغ الأوهام محلّها :

تَنَبّأ عُجباً بالقَريض ولو دَرَى
بأنك ترْوِيه إذن لتأَلّهَا (٢)

---

(١) مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، ويهنئه بعيد الأضحى ، وعجز البيت :

وعادات سيف الدولة الطعن في العدا

انظر الديوان : ١/ ٢٨١ •

(٢) البيت للشاعر ابن وهبون ، وهو أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي • والبيت مع آخر في الخريدة (قسم المغرب) ٢/ ٦٥ ، وقد أنشدهما ابن عباد •

ومن القوافي التي لا يكاد يُهتدى إليها قولُ ابن المعتز (١) في وصف الطيور الهُدّى :

لقـــد عَرَفْن البُرجَ بالآيـــاتِ
يَلُوح (٢) للناظرِ من هَيْهَـــاتِ

وهيهات غايةُ البعد . قال الله تعالى : (هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ) (٣) وقد استعملها بحيث لا تَفْطَنُ القرائح لها .

وقوله في وصف فرسين يتباريان في الجري : [٩٨]

وكم قد غَدَوْتُ على سابقٍ جوادِ المحَثّةِ وثّابِهـا (٤)
تبارِيْه جَرْداءُ خَيْفَانَةٌ إذا كادَ يسبِقُ كِدْنا بِها (٥)

فقوله كِدْنا بها ، من أغمض تتميم وأصعبه ، وأغرب لفظ تَمَّمَ هذا البيت به .

---

(١) ديوانه : ١١٩ ، من قصيدة أولها :

أعـددت للغـاياتِ سـابقاتِ

(٢) رواية الديوان : حتى عرفن البرج بالآيات .... تلوح ..

(٣) المؤمنون : ٣٦

(٤) ديوانه : ٣١ ، من قصيدة أولها :

ألا من لعين وتسكابها تشكّى القذى وبكاها بها

ورواية الديوان : كما قد غدوت ...

(٥) كدنابها : أي كدنا نسبق بها .

وقولُ محمدِ بنِ أحمدَ الأصبهانيِّ (١) :

والجوُّ مُخْضَرُّ الحواشي أَمْلَسُ
يَبْسِمُ فيه البَرْقُ وهْوَ يَعْبِسُ

وفيه سُرْجٌ نارُها لا تُقْبَسُ
بِتُّ أُرَاعِيهْا كأنّي هِرْمِسُ

فقد دلت هذه القافية على بديع الصنعة ، وقضت لهِرْمِسَ بالمعاد والرجعة .

وعلى ذكر القوافي فرُوِيَ أن هشاماً الأحولَ قال : كنا عند الأصمعيِّ ، فأخذ في شعر عُبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات (٢) ، فجعل ينشد حتى قال :

عادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةَ الطَّرَبُ
فعينُهُ بالدُّموعِ تَنْسَجِمُ

وإنما هي تنسكبُ . وقال يا فتيان أمِروُّها على الميم . قال : فأمَرَّها ونحن معه ، يقول ونقول على الميم حتى بلغنا إلى قوله :

ما نَقَمُوا من بني أُمَيَّةَ إلْ ....
.... لاَ أَنَّهم يَحْلُمُون إن غَضِبُوا

(١) محمد بن أحمد بن الحسن الفياض الأصبهاني ، أديب نظام الملك الحسن بن إسحاق (ترجمته في المحمدون من الشعراء : ٧٤ ، ودمية القصر : ٤٣٨/١) .
(٢) ديوانه : ١

فأراد قافية على الميم ، فلم يَقْدِرْ عليها • [٩٩]

والمملوك يقول : إن من أعجب الأشياء توقفَ الأصمعي خاصةً في تقفية هذا البيت على الميم مع ما يُروى عنه من قوله : إن الحِشْمَةَ في كلام العرب بمعنى الغضب ، وحكايته عنهم أن ذلك لِمَّا يَحْشِمُ بني فلان ، أي يُغْضِبُهم ، فكان يلزمه أن يقول : حَشِمُوا • على أن أحسن ما قُفِّيَ به هذا البيت على الميم ما اقتضاه صدرُه فيقال :

ما نَقَمُوا من بني أُمَيَّةَ إلَّا ••••

•••• لا أنَّهم يَحْلُمُونَ إنْ نَقَمُوا

ويقال في البيت الثاني : /

وأَنَّهم مَعْدِنُ الملوكِ فَمَا تَصْلُحُ إلا عليهمُ الأُمَمُ

ويجعل الأمم عوضاً من العرب •

وذكر ابن أبي طاهرٍ أنه عُرِضت على المنصور جاريةٌ ، وقيل : إنها راوية للشعر ، فاستنشدها ، فأنشدتْه شعر ابن قيسِ الرُّقَيَّات :

عاد له من كثيرةِ الطربُ

فلما بلغتْ إلى قوله :

ما نقَمُوا من بني أمية إلا ••••

علمتْ أنها قد أخطأتْ ، فقالت : أنهم يسْفَهُون إن غَضِبُوا • ثم قالت : [١٠٠]

وأنهم أرْذَلُ المُلوكِ فَمَا تَفْسُدُ إلا عليهمُ العَرَبُ

فقال لها : أهكذا رويت هذا الشعر ؟ قالت : لا والله يا أمير المؤمنين ، ولكني لما أُلْقِيَ على لساني ، وعلمتُ أني قد وَحِلْتُ غَيَّرْتُه إجلالاً لك وصدقاً في القول ، فأعجبه ما رأى من فهمها ، وأمر بأن تُشْتَرى .

في القوافي المتمكِّنة التي يصلح أن تتلوَ هذا الباب

من ذلك قولُ ابنِ مُطَرِّفٍ (١) : /

يرى العواقِبَ في أثناءِ فكرتِه
كأن أفكارَه بالغيبِ كُهَّانُ

لا طَرْفَةٌ منه إلا تحتَها عَمَلٌ
كالدهرِ لا دَوْرَةٌ إلا لها شانُ

والبيتُ الأول ــ وهو المُراد ــ من قول ابنِ حيوس (٢) :

وإذا امتَطَى سيفَ الخلافةِ عَزْمُهُ
فَلِدَوْلَةٍ يبني وأُخرى يَهْدِمُ

وإذا نظرتَ إلى عواقبِ رأْيِهِ
أَيقَنْتَ أن ظُنُونَه تَتَنَجَّمُ

كما أن تركيب قول مهيار (٣) ، والمرادُ الثاني :

(١) هو ابن مطرف المنجم ، وقد سبق تخريج البيتين .
(٢) لم نجدهما في ديوانه .
(٣) ديوانه : ٤/١٥٨ . مطلع قصيدة كتب بها الى حضرة ناصر الدين أبي القاسم بن مكرم . والبيت الثاني هو الخامس من القصيدة .

صحا القلبُ لكنْ صبوةٌ وحَنِينُ

وأقْصَرَ إلا أنْ يخِفَّ قَطِينُ

وقالوا : يكونُ البَيْنُ والمرءُ رابِطٌ

حَشَاهُ بفضلِ الحزمِ ؟ قلتُ : يكونُ

من قول عُروَةَ بنِ أُذَيْنَة (١) : [١٠١]

مَنَعَتْ تحيَّتَهـا فقلتُ لصاحبي

ما كان أكثرَها لنا وأَقَلَّهـا

فَدَنَا وقـال : لعلَّهـا مَعْذُورةٌ

في بعضِ (٢) رِقْبَتِها ، فقلتُ : لَعَلَّها

مِمَّا يتجاذَبُه ضِدَّان

قالت ليلى الأخيليَّةُ (٣) :

ومُخَرَّقٍ عنه القميصُ تَخَالُهُ

بينَ البيوتِ مِنَ الحيـاءِ سَقِيمَا

---

(١) شعره : ٣٦٣ ـ ٣٦٤ من قصيدة أولها :

إن التي زعمت فؤادك ملَّها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

(٢) في شعره :

فدنا فقال لعلها معذورة من أجل ....

(٣) ديوانها : ١١٠ ، من قصيدة تعرض فيها بعبد الله بن الزبير ، وتمدح آل مطرف . وأولها :

لما تخايلت الحمول حسبتها دوماً بأيلة ناعماً مكموما

وهو في الشعر والشعراء : ٤٥١/١ ، وفي الحماسة : ١٥٥/٤ .

وعلماء الشعر يجعلونه من أعلى المدح ، ويفسرونه بأنها أرادت أنه يُجْذَب ويُتَعَلَّقُ به في الحاجات لجُودِه وسُؤْدَدِه وكثرةِ الناس حوله .

والمملوك يقول إنه يحتمِلُ أن يكون هجاءً لو بُدِّل على أنه مُهْتَضَمٌ قليلُ العشيرة ، فإذا مُزِّقت ثيابُه لم يقدِر على الانتصار لذله ، فيخلد إلى الحشمة والحياء ، فَيُخَال سقيماً . فهذا من المدح الذي أحاله النقدُ إلى الذم .

ومثلُه قولُ زهير (١) :

على مُكْثِرِيهِمْ حقٌّ (٢) مَنْ يعترِيهِمُ
وعندَ المُقِلِّينَ السماحةُ والبَذْلُ

وهذا مما اتفق المتقدمون على تفضيله ، وأجمعوا على استحسانه وتقديمه ، وقد خالفهم أحد المتأخرين ، فقال : إنه ـ وإن قصد مدحَ سادة من الناس ـ فقد ذَمَّهم بأنواع الذم . فأولُ ذلك [١٠٢] إخبارُه أن فيهم مكثرين ومقلين ، فلو كان مكثروهم كرماءَ لبذلوا لمقلِّهم الأموالَ حتى يستَوُوا في الحال ويُشْبِهوا الذين قال فيهم حسانُ :

المُلْحِقِينَ فقيرَهم بغنيِّهِمْ
والمُشْفِقِين على الفقيرِ المُرْمِلِ (٣)

---

(١) ديوانه : ٤٢ ، من قصيدة يمدح بها سنان بن حارثة المري ، وأولها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
وأقصر من سلمى التعانيقُ فالثَّقْلُ

(٢) في الديوان : رزق .

(٣) ديوان حسان (طبعة البرقوقي) : ٣٦٤ ، وروايته هناك :

ثم فيه أن المكثرين ضَيَّعوا القريب ، ورعَوْا حق الغريب ، وصلةُ الرَّحِم أولى ما بُدِىء به . ومنها أن المكثرين ليس يسمحون بأكثرَ من الاستحقاق في قوله : من يعتريهم ، ومَنْ أعطى الحق فإنما أنصف ولم يتفضَّلْ بما وراء الإنصاف ، والزيادةُ على الإنصاف أَمْدَحُ . ثم أخبر أن المقلّين ــ على قُصور أيديهم ــ أكرمُ طباعاً من مكثريهم على قدرتهم في قوله :

وعند المُقَلّين السماحةُ والبذلُ

فالبذل مع الإقلال مدح عظيم وإيثار ، والسماحة إعطاءُ غيرِ اللازم ؛ فمدحَ بشعره هذا من لا يحظَى منه بطائل ، وذمَّ الذين يرجو منهم جزيل النائل ، فأبان عن الغلط في الاختيار فقد أخرجه النقد من المدح إلى الذم .

وهذا لا يجوز التَمَثُّل به في أيام مولانا ــ خلَّد الله ملكه ــ [١٠٣] لأن مكارمه لم تجعل للفقير على الأنام مَعَاجًا ، وفواضِلَه لم تغادر في الزمان مُقِلاً ولامحتاجاً . وضِدُّ ذلك مِمّا أخرجه التأَوُّلُ من الذم إلى المدح قولُ المتنبي (١) :

← والخالطون فقيرهم بغنيهم والمنعمون على الضعيف المرمل

ولكن البيت لم يرد في طبعة الهيئة المصرية العامة ، وقد أشار المحقق الى ذلك ، انظر هذه الطبعة : ١٢٢

(١) ديوانه : ١٦٥ ــ ١٦٦ ، من قصيدة يمدح بها سعيد بن عبد الله بن الحسين الكلابي المنبجي ، وأولها :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا

والبين جار على ضعفي وما عدلا

أيقنتُ أن سعيداً طــــالِبٌ بــــدَمي

لما بَصُرْتُ به بالرُّمْحِ مُعْتَقِـــــلا

وهو مما لم يتعرَّضْ لتفسيره ابنُ جِنِّي ، وقد جعله قوم من سَقَطَاتِه ؛ لأنه تمنَّى أن يشفع الممدوح له بقوله قبل هذا البيت :

علَّ الأمـــيرَ يرى ذُلِّيْ فيشفَعَ لي

إلى التي تركَتْني في الهــوى مَثَــــلا /

وقالوا : والشفاعة سؤال ورغبــة ، فإن أُجِيبَ إلى مساعدة أبي الطيب وإلا رَجَع إلى القهر . والمملوك يقول : إنه جعل الممدح على غاية الجمال لا سيما إذا اعتَقَل رمحاً ؛ إذ من الناس مَنْ يتضاعف حسنه في زيٍّ مخصوص ، فيقول : إن هذه المعشوقة قد سفكت دمي بامتناعها عليّ مع غرامي بها ، وإنني لما رأيتُ الممدوح على هذه الهيئة التي زاد بها جمالُه ، أيقنت أنها تهواه ، ويَمتنع عليها لعفافه ، فتلْقَى منه مثل ما لَقِيْتُ منها، [١٠٤] فيكون ذالك كأنه طلبٌ بدمي وأخْذٌ بثأري . ولا خلافَ أن الإنسان قد يحسُنُ على هيئة ما . فأما المعجزة التي خص الله بها مولانا فنحن نذكرها شكراً على ما منحنا من حُسن نظره وأولانا ؛ وذالك أنه في كل الهيئات على القضية التي ترتفع عن قضايا البشر ، ويتَقَيَّد عندها مطلقُ اللحظ وحاسة البصر ، فإن استوى على دَسْت العظمة ، واستقر على سرير المملكة رأيتَ الشمس والمُشْتَرِيَ قد امتزجا واتَّحدا ، وشاهدتَ ما أفرده الله تعالى به مما لم يعطِه أحداً ، فحظُّه من الشمس عمومُ نورها واتساعُه ، ومن المشتري أفعالُه الجميلة وطباعُــه ، ومن مجموعهما معنىً أحــدثه التركيب ، تتَفَرَّع شعوبه ولا تنحصر أنواعُه ، وإن شرع في تدبير

عبيده ورعيته ، ونظر في أمر سلطانه ومصالح دولته ؛ فقد أَوْفَى على البدر ليلةَ كماله وتَمِّه ، وزَرَى على عُطَارِدَ بفضله الباهر وعلمه، وجعل الحق مضموناً في قضائه العادل وحكمه [١٠٥] وإن تَجَلَّى في آلة الحرب ، وظهر للذَبِّ ، وتفريج الكرب ؛ لم تَرْتَبْ باجتماع الزُهَرَة والمريخ متباريَيْن في خدمته ، ولم تَشُكَّ أنهما متنافسان على ما يُحظى بحضرته ؛ لأن أحدَهما تقرَّبَ إليه بحسن صورته وهيئته ، والآخَرَ توسَّلَ عنده بنفاذه ومضائه وهيبته . وهذه مَنْقَبَةٌ يشهد بها ما حازه من الآيات وحواه ، ومعجزة لم يَنَلْها سلطانٌ غيرُه ولا خُصَّ بها ملك سواه .

مِمَّا مدَحَ به مهيار(١) وهو إذا أُنشِدَ مُفْرَداً احتمل الهجاءَ:/

كأنَّ ماقد حَلَّ مِنْ مالِه وطَابَ محظورٌ عليه حَرَامْ

فإذا أُنشِدَ الذي قبله خَلَصَ المدح وهو :

وجَادَ حَتَّى لم يَدَعْ فَضْلَةً
تَلِيْهِ (٢) للبحرِ ولاَ للغَمَامْ

فأما قول الآخر :

كأنيَ إذ دعوتُ بنيْ حُنَيْفٍ
دعوتُ بدعوتي لَهُمُ الجِبَالا

---

(١) ديوانه : ٣/٣٢٠ ، من قصيدة يمدح بها وزير الوزراء زعيم الدين ويهنئه بالنيروز ، وأولها :

ليل السرى مثل نهار المقام ما خفتَ أن تظلم أو أن تُضام

(٢) في الديوان : عليه .

فَمَنْ قصد المدح أراد سرعة الإجابة كالصَّدَى ، ومن قصد الذم نسبهم إلى الثقل مثل الجبال .

ومن النوادر العجيبة ما حُكِيَ عن زيدٍ الأعورِ الخياطِ من أنه خاط لسَلْمٍ الخاسرِ قَباء ، وقال : [١٠٦] قد خِطْتُه لك خياطة لا تبالي معها إذا لبستَه مقلوباً كان أم مستوياً من جَوْدَة عمله ودقة دُرُوزِه ، فقال سَلْمٌ : وأنا أقول فيك قولاً لا تدري أمدحٌ هو أم هجاء ؟ وقال :

جاءَ مِنْ زيـــدٍ قَباءُ   ليـتَ عَيْنَيْهِ سَوَاءُ

فأُحَاجِي النَّاسَ طُرّاً   أمديـــحٌ أم هِجَاءُ ؟

وهذا من قول المتنبي (١) :

فيابنَ كَرَوَّسٍ يا نصفَ أعـــمى

وإنْ تَفْخَرْ فيا نصفَ البَصِـــيرِ

كان الشعراء قد نالوا بِرَّ الحسنِ بنِ سَهْلٍ في عرس بُوران ابنتِه إلا أبا (٢) الينبغي ، فقال لأقُولَنَّ مالا يُعْلَمُ أمدحٌ هو أم هجاء ؟ وقال :

---

(١) ديوانه : ١/١٣٩ من قصيدة يصف فيها مسيره في البوادي ، وأولها :

عذيري من عذارى من أمور   سكنَّ جوانحي بدل الخدور

وابن كروس جليس أعور لبدر بن عمار ، وكان يحسد المتنبي لسرعة خاطره .

(٢) في الأصل : أبو . وأبو الينبغي شاعر هجاء ، جيد البديهة ، خبيث اللسان ، سريع الى أعراض الناس يهجوهم ويقطعهم ، ولما هجا الفضل ابن مروان حبسه بعد أن أغرى به الواثق ، وأنهى إليه أنه هجاه . فبقي في السجن حتى مات (طبقات الشعراء لابن المعتز : ١٣٠ ـ ١٣٢) .

بَـــارَكَ اللهُ للحَسَنْ ولبُـــورانَ في الخَتَنْ
يا إمــامَ الهُدَى ظَفِرْ تَ ولكِنْ بِبِنْتِ مَنْ[1]؟

ومن الشعر الذي يحتمل معنيين ولم يقصد الشاعر إلا أحدَهما قولُ حبيبٍ في وصف عمورِيَّةَ[2] :

بِكْرٌ فَمَا افْتَرَعَتْها كَفُّ حادِثَةٍ
ولا تَرَقَّتْ إليهــا هِمَّةُ النُّوَبِ
مِنْ عهدِ إسكَنْدَرٍ أو قبــلَ ذلكَ قَدْ
شَابت نَوَاصِي الليالِي وَهْيَ لم تَشِبِ

وهذا مما يصلــحُ أن تُوصف به الخمر ، وأبلــغُ ما قيل في عِتْقِها : [١٠٧]

تَحْسَبُ مِنْ طولِ الحِقَبْ مَخْلُوقَةً قبــلَ العِنَبْ

على أن فيه إحالةً بذكره المعلول قبل العِلَّة ، وقد أصلح المعنى شيئاً بقولــه : تحْسَبُ ، وهو من الإفراط في الغُلُوِّ ، وقال

(١) في الحاشية : ببنت من ، يحتمــل في الشرف وفي غيره · والبيتان في وفيات الأعيان : ٢٨٩/١ ، وقد نسبا الى محمد بن حازم الباهلي · ورواية البيت الثاني هناك :

يابن هارون قد ظفرت . . . .

(٢) ديوانه : ٤٨/١ من قصيدته التي يمدح بها المعتصم ، ويذكر حريق عمورية وفتحها ، وأولها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

السّلامي (١) في وصف فرس أدهَم :

خاضَ الـدِماءَ وتَحَلّى بالزبَـــدْ
كأنّـــه إنسانُ عَــيْنٍ في رَمَـــدْ

والثاني يصلحُ صفة لخالٍ في خدّ . وقد أحسن الآخر في قوله :

وكأنّ خَالاً في صَفِيحَةِ خَـــدِّه
أثَرُ الشرارةِ في قميصٍ أحْمَـــرِ

وهو من بارع التشبيه . ولأحمدَ بنِ الشَقّاقِ (٢) :

تَتَنَفَّسُ الصهبـــاءُ في لَهَوَاتِهِ
كتنفّسِ الرَّيْحَـــانِ في الآصَالِ

وكأنّما الخِيـــلانُ في وجَنَاتِهِ
ساعاتُ هَجْرٍ في زمـــانِ وِصَالِ

---

(١) المجموع من شعره : ٦٢ من أرجوزة طويلة لقي بها الصاحب وأولها :

يا راقداً لولا الخيال ما رقد   هل لك في عارية لا تسترد

والبيتان أيضاً في اليتيمة : ٢/٤٠٠

(٢) ورد له ذكر في نفح الطيب : ٣/٢٦٤ ، وذكر هناك أنه كان من رواة القائد ابندري بجيان ، وكان شاعراً حسن البديهة ، ولكن البيتين وردا في عدة مواضع مـن الخريدة (قسـم المغرب) ٢/٩٠ ، ٢/٢٦٩ ، ٣/٥٨٧ ، وفي الذخيرة المجلد الثاني ، القسم الأول : ٧٩٤ ، وقد نسبا في هذه الأماكن جميعها الى أبي القاسم الأسعد بن ابراهيم المعروف بابن بلّيطة الأندلسي .

وقال عبدُ المحسنِ في الحمّام :

ومنزلِ أقـــوامٍ إذا نزلوا بـــهِ

تَشَابَهَ فيـــهِ وغْـــدُهُ ورئيسُه (١)

وهذا مما يصلح أن يُوصف به قبر . وتمـــام الأبيات من مستَحْسَنِ ما وُصف به الحمام ، وهو :

يُخَفِّفُ كربيْ أنْ تَزيدَ كُرُوبُهُ

ويُؤْنِسُ قلبيْ أَنْ يَقِلَّ أنيسُهُ (٢) [١٠٨]

إذا ما أعرتَ الجوَّ طَرفـــاً تكاثرتْ

عليكَ به (٣) أقمـــارُهُ وشُمُوسُه

ولبعض العصريين (٤) فيه :

أهـــلاً بذا الحمَّـــامِ (٥) مِنْ منزلٍ

شُيِّـــدَ لأبرارٍ وفُجَّـــارِ

---

(١) الأبيات في نفح الطيب : ٤/٣٢٦ بدون نسبة .

(٢) رواية النفح :

ينفس كربي إذ ينفس كربه ويعظم أنسي إذ يقل أنيسه

(٣) رواية النفح : على من به ...

(٤) البيتان في الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٦٢ ، وهما منسوبان هناك لابن خفاجة .

(٥) في الحاشية : (بهذا البيت) ويبدو أنها رواية ثانية . وفي الخريدة : أهلاً ببيت النار ...

تدخله ملتبسي لــذّةٍ (١) فندخــلُ الجنّةَ في النّارِ

ومن الشعر الذي يتضمن نوعين من التجنيس قول ابن حيوس (٢) :

في ظلِّ أَرْوَعَ إنْ تَسْأَلْهُ مُنْفِسَةً
يَهَبْ وإنْ باشَرَ الهيجــاءَ لم يَهَبِ

ففيه تجنيسُ اللفظ والخطِّ : يهب يهب • وتجنيس التورية بها أيضاً لأنه مدح بإيجاب وبنفي وأتى بالنفي عــلى صيغة الموجب ، / وإنما وَرَّى به عن معنىً آخرَ •

مما جمع المدحَ بالشيء وضِدِّه ، وهو من ضُروب التوجيه

من ذلك مَا قيل في وصف عزة مولانا ـ خلَّد الله ملكه ـ وكرمِه ، ومدحِه بحماية الشيء الذي على يده إراقةُ دمِه ، وهو مذهب الشعراء في امتداح ملوك العرب ؛ لأنهم يصفونهم بدفعهم عن النَّعَمِ وذَبِّهم ، وإباحةِ حماها للوافدين عليهم والنازلين بهم ، [١٠٩] على أن عظمته تأبى إلا عَقْرَ البِدَر تَنَزُّهاً عن عقرِ البُدْن ، كما أنه لا يقنع فيِ القِرى بدون إقطاع القُرى وتسويغ المدن • والذي قيل :

يَمْنَعُ السَّرحَ من تَعَدِّي الأعادِي
بطِوَالِ القَنَــا وبُتْرِ السُّيُوفِ

---

(١) في الأصل : لذةً •

(٢) ديوانه : ١/٧٤ من قصيدة يمدح بها أمير الجيوش أنو شتكين الدزبري ويهنئه بعيد الفطر وفتح حلب ، وأولها :

سلِ المقادير ما أحببتَه تُجِبِ فمالها غيرَ ما تهواه من أرَبِ

فَهْيَ في الخوفِ أمنُها مِنْ مُغِيرٍ
وهْيَ في الأَمْنِ حَتْفُهـا للضُّيوفِ

وهذا معنى قولِ ابنِ حيُّوس (١) :

تَبِيتُ حِدَادُ البِيضِ أوْفَى حُتُوفِها
وتُضْحِي حِجَازاً دونَها في المَراتِعِ

وقوله : /

تَتَوَقَّعُ الأذْوَادُ منه عَاقِراً
ما زالَ يحمي سَرْحَهَا ويَذُودُ (٢)

وقوله (٣) :

وتمنَعُ ما تحوِي لتعطِيَهُ نَدَىً
وغيرُكَ لا يَنْفَكُّ يعطي ليمنَعَا

---

(١) ديوانه : ١/٣٣٠ ، من قصيدة يمدح بها مبارك بن الشبل بن جامع. وأولها :

مَحَلٌ لهم بين النقا والأجارع عدته الغوادي فاستناب مدامعي

(٢) ديوانه : ١/١٦٠ من قصيدة يمدح بها تاج الملوك بن صالح أمير حلب وأولها :

أما الحسان فما لهن عهود ولهن عنك ــ وما ظلمن ــ محيد

(٣) ديوانه : ١/ ٣٤٦ من قصيدة يمدح بها مبارك بن الشبل بن جامع ويهنئه بعيد الفطر ، وأولها :

كذا في طلاب المجد فليسعَ من سعى
بلغت المدى فليَغبِطَ فخرك ما ادعى

فأرادَ أنك تمنع إباءً وعزة ما تعطيه كرماً ومِنحة ، وغيرك يعطي ذِلة ومِهْنَةً ليصونَ ذخيرةً وقِنْيَةً . والأصل في هذا قولُه :

لنا إِبِـــلٌ غُرٌ يَضيقُ بها الفَضَا
وَيَفْتَرُّ عنهـــا أرضُها وسَماؤُها

فمِنْ دونِها أنْ تُسْتَبَاحَ دماؤُنا
ومِنْ دونِنا أن تُسْتَـــذَمَّ دماؤُها

حِمَىً وقِرَىً فالموتُ دونَ مُرامِها
وأهونُ خَطْبٍ يومَ حَقٍّ فَنَاؤُها (١)

وكرَّر ابنُ حيُّوس هذا المعنى ، فقال وأحْسَنَ : [١١٠]

تُضحِي سُيوفُك للبِـــلادِ مفاتِحاً
فإذا فتحتَ جعلتَهـــا أقفَـــالاً (٢)

على أنه مأخوذ من نصف بيت لأبي تمامٍ ، وهو قولُه :

أصبحتَ مِفتاحَ الثغورِ وقُفْلَها

وهـــذا عكس ما اتفق لأبي تمام مع الكُميت ، لأنه أخذ معنى

---

(١) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه .

(٢) ديوانه : ٢/٤٤٢ من قصيدة يمدح بها تاج الملوك محمود بن نصر ابن صالح ويهنئه بعيد الفطر ، وأولها :

النجم أقرب من مداك منالا   فعلام يسعى طالبوه ضلالا

نصف بيت من شعره ، فأورده في بيتين • قال أبو تمام (١) :

وطولُ مُقَامِ المرءِ في الحَيِّ مُخْلِقٌ
لِـــديباجَتَيْهِ فاغتربْ تَتَجَـــدَّدِ

فإني رأيتُ الشمسَ زِيــدَتْ مَحَبَّةً
إلى الناسِ إذْ ليستْ عليهمْ بسَرْمَدِ

والذي للكسيت (٢) :

ولَوْ لم تَغِبْ شمسُ النهارِ لَمُلَّتِ

والمعَرّيّ (٣) :

أسَمْهَرِيَّةُ ليسَ يَشْرُفُ قَدْرُها
حتى يسافِرَ لَدْنُهـا عَنْ غَابِـــهِ

والعَضْبُ لا يُشْفِي امرأً مِنْ ثأرِهِ
إلا بِفَقْـــدِ نِجَـــادِهِ وقِرَابِهِ

---

(١) ديوانه ٢/٢٣ من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الطائي ، ومطلعهـــا :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كـل مرقد

(٢) ديوانه : ١٤٨ •

(٣) شروح سقط الزند : ٢/٧٢٣ من قصيدة يجيب فيهـا شاعراً مدحه يعرف بأبي الخطاب الجَبُلِيّ ، وأولها :

أشفقتُ من عبء الزمان وعابه وَمَلِلتُ من رأي الزمان وصابه

ولابن حيّوس (١) :

كالمِسْكِ يزدادُ قَدْراً حينَ يَغْتَرِبُ

فأما قولُ مهيار (٢) :

ما اجْتَزْنَ بالآذانِ كُنَّ مفاتِحاً

وعلى قلوبِ عِداكُمُ أقفالا

فكلٌّ من بيتيْ حبيبٍ وابن حيوس أصنعُ منه ؛ وذلك أنهما جعلا الأقفال للشيء الذي [١١١] كانت عليه مفاتيحَ ، ومهيار جعل المفاتيح والأقفال لغَيْرَيْن • ووصف ابن حيوس السيوف بأنها مفاتحُ البلاد أوقعُ من وصف مهيار الأبياتِ بأنها مفاتح الآذان • وقد ذكر أبو تمام المفتاح في غير موضع من شعره ، فمِنْ ذلك قولُه (٣) :

للجُودِ بابٌ في الأنامِ ولم تَزَلْ

مُذْ كنتَ (٤) مِفتاحاً لِذاكَ البابِ

---

(١) ديوانه : ١/٩٦ ، وهو عجز بيت ، وصدره :

قول يضاعف بُعْدُ الدار قيمته

وهو من قصيدة يمدح بها نصر بن محمود ، وأولها :

لا فات ملكك ما أعيابه الطلب ولا تزلْ أبداً تعلو به الرتب

(٢) ديوانه : ٣/٦٢ من قصيدة يهنيء بها أبا القاسم بن عبد الرحيم بعودة نقابة النقباء اليه ، وأولها :

حسبوا العلا خفاً وكن ثقالا فتكلفوها ظالعين هزالا

(٣) ديوانه : ١/٨٠ ، من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي ، ومطلعها :

لو أن دهراً ردّ رجع جواب أو كفَّ من شاويه طولُ عتاب

(٤) في الديوان : يمناك

وقد قال بعض المعترضين عليه : أتى إلى ممدوحه فجعله مفتاحاً ؛ فهلا قال كما قال ابن الرومي (١) :

قَبِّلْ أناملَه فَلَسْنَ أنامِلاً
لكِنَّهُنَّ مَفاتِحُ الأرزاقِ

فقيل له : لا تعجَبَنَّ من هذا ؛ فقد جعل ربَّه كذلك بقوله :

واللهُ مِفْتَاحُ بابِ المَعْقِلِ الأَشِبِ (٢)

وعلى ذكر الأقفال وفتحها فقد أحسن الناشِئُ في قوله يصف اليويو (٣) :

مُمَلَّكٌ لنفوسِ الطيرِ ينسِفُها
نسفاً فيقْبِضُ أجساماً وأرْوَاحا

كأنَّما أُقْفِلت بالأَهْبِ أنفسُها
فكانَ بالكفِّ للأقفالِ فتَّاحا

وقال ابن حيوس متصرفاً في المعنى المُقدَّمِ ذكرُه : [١١٢]

---

(١) لم نجده في المطبوع من ديوانه .

(٢) ديوانه : ١/٦٠ ، وصدر البيت

من بعد ما أشبوها واثقين بها

وهو من قصيدته المشهورة : السيف أصدق أنباء ....

(٣) في الحاشية : (اليويو : الباشق)

وبهِـــــمْ زُلزِلَتْ بمَنْ قارعُوا الأر
ضَ وهُـــــمْ أمنُهــا من الزَلْزَالِ (١).

وكرَّره فقال (٢) :

تتزلزلُ الــــــــدنيا إذا غضِبُوا فإنْ
بلغُـــوا الرِّضَى أمِنَتْ من الزَلْزَالِ

وقال فيما يقارب هذا المعنى :

ثُغُورُ العِدَى إنْ رُمتُمُوهُنَّ كالفلا
وكُــلُّ فَلاَةٍ رُمْتُمُ مَنْعَهَا ثَغْرُ (٣).

وقال (٤) :

أَخَفْتَ الآمنـــــينَ سُطىً فلَمَّا
عَفَوْتَ غَدَوْتَ أَمْنَ الخَائِفِينَا

(١) ديوانه : ٢/٤٦١ من قصيدة يمدح بها عز الملوك سابق بن محمود بن نصر بن صالح ، وأولها :

ضل من يستزير طيف الخيال   هل تُداوى حقيقة بالمُحَال

(٢) ديوانه : ٢/٥٠٤ ، من قصيدة يمدح بهــا فخر الدولة نقيب نقباء الطالبيين ، وأولها :

ما كان قبلك في الزمان الخالي   من يسبق الأقوالَ بالأفعالِ

(٣) ديوانه : ١/٢٤٨ ، وقد سبق تخريج هذه القصيدة .

(٤) ديوانه : ٢/٦٦٦ ، مــن قصيدة يمدح بها أمير الجيوش أنوشتكين الدِّزبري مستهل شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وأربع مئة ، وأولها :

أما وبديع ما تأتي يمينا   تحرَّج ربها من أن يمينا

ولأبي نصرٍ المنازيِّ (١) :

لقد عرَضَ الحمَامُ لنا بسَجْعٍ
إذا أصْغَى لـه ركْـبٌ تلاحَى

شَجَى قلْبَ الخَليِّ فقـال : غَنَّى
وبَرَّحَ بالشَّجِيِّ فقالَ : نَاحَا (٢) /

ومن مليح ما في هذه الأبيات :

ضعيفُ الصبرِ فيكَ (٣) وإنْ تَقَاوَى
وسكْرانُ الفؤَادِ وإنْ تَصَاحَى

كَذاكَ بنُو الهوى سَكْرَى صُحَاةٌ
كأحْدَاقِ المَهَا مَرْضَى صِحَاحَا

فأما قولُ ابن الرومي (٤) :

عيني لعينِكَ حينَ تنظُرُ مَقْتَلُ
لكنَّ عينَكَ سَهْمُ حَتْفٍ مُرْسَلُ

(١) هو أبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المنازي الكاتب ، كان من أعيان الفضلاء ، وأماثل الشعراء • وزر لبعض آل مروان ملوك ديار بكر ، وكان معاصراً لأبي العلاء • توفي سنة : ٤٣٧ هـ (انظر ترجمته في وفيات الأعيان : ١٤٣/١ ، ومعجم البلدان (مناز جرد) والشذرات : ٢٥٩/٣) •

(٢) الأبيات في شذرات الذهب : ٢٦٠/٣

(٣) في الشذرات : عنك •

(٤) ديوانه : ١٨ (اختيار كامل الكيلاني) وهما بيتان مفردان •

ومِنَ العجائِبِ أنَّ شيئاً (١) واحداً
هُوَ منكَ سَهْمٌ وهْوَ مِنّيْ مَقْتَلُ

فليس من هذا الباب إلا أن فيه نوعاً من مجانسته ، وضرباً من مناسبته ، وهو من بديع ما ابتكره ، وغريب ما اخترعه • [١١٣]

وكذلك قوله في وصف القوس (٢) :

تَوَدَّدتُ حتى لم أَجِدْ مُتَوَدِّدَا
وأَمْلَلْتُ أقلامي عِتاباً مُرَدَّدَا

كأنيَ استدني بكَ ابنَ حَنِيَّةٍ
إذا النزعُ أدناهُ من(٣) الصَدْرِ أبْعَدَا

وقوله أيضاً فيها (٤) :

تُشْكِي المُحِبَّ وتُلْقَى الدهرَ شاكيةً
كالقوسِ تُصْمِي الرَّمايا وَهْيَ مِرْنَانُ

وقد أحسن ابن حيوس (٥) في قوله :

---

(١) في الديوان : معنى •
(٢) ديوانه : ٧٧٠ (تحقيق الدكتور حسين نصار) وهما بيتان مفردان •
(٣) في الديوان : الى الصدر •
(٤) ديوانه : ٥٩٨/٢ (اختيار كامل الكيلاني) من قصيدة أولها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان

(٥) ديوانه : ٥٩٨/٢ من قصيدة يمدح بها محمود بن نصر بن صالح وأولها :

قفوا في القلى حيث انتهيتم تذمما ولا تقتفوا من جار لما تحكما

أَرَى كُلَّ مُعْوَجِّ المودةِ يُصْطَفَى
لَديكُمْ ويَلْقَى حَتْفَه مَنْ تَقَوَّمَا

حَنَى الناسُ من قبلُ القِسِيَّ لتُقْتَنَى
وثُقِّفَ مُنْآدُ القَنَا ليُحَطَّمَا

على أن صدر البيت الثاني مأخوذ من قول كُشاجمَ في وصفها :

قَدْ قُوِّمَتْ للرَّمْي بالتعويجِ (١)

إلا أنه أحكم الأخذ والتركيب ، وتصرَّف التصرف البديع الغريب ، وقد اقتضت الأبيات في القوس ذكر الحكاية العجيبة في إتقان الصناعة في الرماية عنها ، وهي أن راميَيْن عَرَضَ لهما أسد ، فقال أحدهما للآخر : اكفِني عينه اليمنى أكفِك اليسرى ، فرمياه عن يد ، فأعمياه وسَلِمَا .

ولبعض الأندلسيين (٢) :

تَقَوَّسَ بعدَ طولِ العُمْرِ ظهري
ودَاسَتْني الليالي أيَّ دَوْسِ [١١٤]

(١) ديوانه : ٩٨ ، وقبله :

كالعود يحدو هَزَجَ الصنوجِ

وهو من أرجوزة يصف فيها كشاجم النمر ، ومطلعها :

وكالح كالمغضب المهيج

(٢) البيتان في وفيات الأعيان : ٢/١٣٠ ، ولكن ذكر ابن خلكان أنهما يرويان للوزير نظام الملك الطوسي .
وهما في الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٨٨ ، وفي المطرب : ٧٣ ، وقد نسبا لأبي علي كاتب مؤنس .

فأمشِي والعَصَا تمشِي أمـــامي
كأنَّ قوامَهـــا وَتَـــر لقوسِي

وعلى ذكر التشبيه فمن غريبه قولُ الآخر :

وألزمته ألحاظَ طَـــرْفٍ يُحِبُّه
فليسَ بِمرْتَـــدٍّ ولا بِمُغَمِّضِ

إلى أنْ ثَنَتْ عيني الشَّمُولُ كأنَّني
أُلاحِظُهُ سُكْـراً بأجْفَانِ مُبْغِضِ

من المدح الذي قلَّت أمثالُه ، وعزَّتْ أشباهه ، وعُدِمَتْ له النظائر ، وعُقِمَتْ عنه الخواطر قولُ حسنِ بن عبد الصمد :

سَبَقَتْ مكارِمُهُ مواعِـــدَه فلَمْ
تُوسَمْ بإنْجَـــازٍ ولا بِمِطَـــالِ

وقولُه :

ضَنَّتْ أكُفُّهُمُ عَـــلاً وَسَخَتْ
مـــالاً فَمَا كَرُمُـوا ولا بَخِلُوا

وقولُ الجرجاني :

ما قالَ لا قَطُّ مُذْ حُلَّتْ تَمَائِمُهُ
بُخْلاً بها فَوَجَدْنا الجُودَ في البَخَلِ

والتوصُّلُ إلى المدح بالبخل من أغرب ما تَنتَجَهُ خاطر .

من الأشعار الدّالةِ على النظر في العلوم الشرعيات

عبدُ الله بن سعيد (١) :

وأَمْسَتْ صَبَاه (٢) تَبُثُّ الحديثَ
وتُسْنِدُ عَنْ بَانَةِ الأَجْرَعِ
وتُقْسِمُ أنّيَ أَهْوَاكُمُ وليسَ اليمينُ على المُدَّعِي

وهذا قول أحمدَ بنِ سَلَمَةَ :

لقد جئتَ بابنِ أبي تُبَّعِ
بأُمِّ الأوابِدِ في المَجْمَعِ
حَلَفْتَ بأنّكَ مِنْ حِمْيَرٍ
وليسَ اليمينُ على المُدَّعِي

وقال آخر :

يا غَرِيراً غَرَّني مَا ذَا ترَجّي بِصَلاتِكْ ؟
أَرَى (٣) نُسْكَكَ هذا خَجَلاً مِنْ فَتَكَاتِكْ

(١) ابن سنان الخفاجي ، والبيتان في ديوانه : ٦٧ ـ ٦٨ ، من قصيدة يمدح بها الأمير سيف الدولة أبا الحسن علي بن المقلد ، وأولها :

دعوها تناضل بالأذرع فأين العواصم من لعلع

(٢) في الديوان : وصارت صباه ...

(٣) كذا وردت ، ولعلها : وأرى ، حتى يستقيم الوزن .

كيفَ تَجْزِيكَ صَلاَةٌ ودَمِيْ في وَجَنَتِيكَ

وعلى ذكر الدماء في الوجنتين فقد أجاد ابنُ شرف في قوله :

هَمَّتْ عَذارَاهُ بتقبيلِهِ
فَجَرَّدَتْ عيناهُ سَيْفَيْنِ

وقامَتْ الحربُ على سَاقِها
بينَ أميرَيْنِ فَتُولَيْنِ

فَهَذِهِ الحُمْرَةُ في خَدِّهِ
دماءُ ما بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ

وقال أيضاً :

حَجَّتْ إلى وجهِكَ أبصارُنا
طائِعَةً ياكَعْبَةَ الحُسْنِ

تَلْثُمُ خالاً منكَ في وجْنَةٍ
كالحجرِ الأسودِ في الرُّكْنِ

وهذا من قول كشاجم (١) :

فلم يزلْ خَدُّها رُكْناً أطوفُ به
والخالُ في خَدِّها يُغْنِي عَنِ الحَجَرِ

---

(١) لم نجده في ديوانه .

ولأبي نصرٍ محمدِ بن الحسن (١) :

ملكتَ قلبي مسترقاً له
وكانَ حرّاً غيرَ مستعبدِ

سكنتَ فرداً فيه حتى لقد
خِلتُكَ تشكو وحشةَ المُفرَدِ [١١٦]

فنحن تنازعنا إلى حاكمٍ
قضى لك استحقاقَهُ باليدِ

ولمحمدِ بن عمارٍ في مغنٍّ يُكنى أبا الفضلِ (٢) :

غنّى أبو الفضل فقلنا له :
سبحانَ مُخليك منَ الفضلِ

غِناؤه حدٌّ على شُربِها
فاشربْ فأنتَ اليومَ في حِلِّ

الخوارزمي :

مُقابِلٌ بينَ أقلامٍ وألويةٍ
مُرَدَّدٌ بينَ إيوانٍ وديوانِ

(١) هو أبو نصر ابن النحاس الحلبي كما في المختار من شعر شعراء الأندلس: ١١٤ ، والأبيات الثلاثة هناك ٠

(٢) البيتان في الوافي بالوفيات : ٤/٢٣٢

يا تَرْجُمانَ الليالي عن مَقادِرِها
وحُجَّةَ الزمنِ الباقي على الفاني

طلَّقتُ بعدَك مدحَ الناسِ كلِّهِمُ
فإنْ أُراجِعْ فإني مُحْصَنٌ زانِ

وللصابي في سابورَ لما أُعِيد إلى الوزارة (١) : /

قد كنتَ طلَّقْتَ الوِزارةَ بعدَما
زلَّتْ بها قَدَمٌ وساءَ صَنِيعُها

فَغَدَتْ بغيرِك تَسْتَحِلُّ (٢) ضرورةً
كيما يحِلّ إلى ذَراك رُجُوعُها

فالآنَ عادَتْ ثم آلَتْ (٣) حَلْفةً
ألا يَبِيتَ سواكَ وهْوَ ضَجِيعُها

أبيات الأنساب

ابنُ الرومي (٤) :

وكمْ أبٍ قدْ علاَ بابْنٍ ذُرا شَرَفٍ
كَمَا عَلا برسولِ اللهِ عدنانُ

---

(١) الأبيات في اليتيمة : ٢/٢٨٥ وقد كتب بها الى الوزير أبي نصر سابور ابن أردشير عندما أعيد الى الوزارة بعد ما صرف عنها .
(٢) في اليتيمة : تستحيل .
(٣) في اليتيمة : فالآن آلت ثم آلت .
(٤) لم نجده في ديوانه المطبوع ، ولا في اختيار الكيلاني .

وتخصيصُه عدنانَ دون غيره من أجداد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عمل بما جاء في الحديث من قوله عليه السلامُ : (لا تَجَاوِزُوا [١١٧] عَدنانَ كَذَبَ النَّسَّابُون) وقد كان المملوكُ ضَمَّن معنى بيت ابن الرومي منشوراً كتبه أوانَ تصرفِه ، وفي حين تريُّثِ الزمان عن الإساءة إليه وتوقفِه ، لمولاتنا السيدةِ الملكةِ والدةِ مولانا الإمام المستعلي بالله صلى الله عليه لما أُضيف إلى ديوانها بعض الإقطاعات الجارية الآن فيه ، فقال في تشبيهٍ : إن أَوْلَى من ارتفع محلُّه عن مُتَعَارَف المِنَح ، / وجلَّ خطَرُه عن مُتَعَالَم المِدَح من ظهرت بأمير المؤمنين آياتُ شرفه ومجده ، وعلا ذروة الشرف به كما علاها عدنانُ بِجَدِّه . وهذا من باب مدح السَّلَف بالخَلَف ، وضِدُّه قول مهيار ؛ فإنه مدح الخلف بالسلف ، ورجَّح المعلول على العلة ، فقال (١) :

وسَيِّدُ قومِه مَنْ سَوَّدُوهُ
بلاَ عصبيةٍ وبِلاَ تَحَابِ (٢)
وإنْ كانَ الفتى لأبِيْهِ فَرْعاً
فإنَّ الغيثَ فَخْرٌ للسَّحَابِ

ومثلُه قولُه (٣) : [١١٨]

---

(١) ديوانه : ١/٣٧ من قصيدة كتب بها الى مؤيد السلطان أبي القاسم بن الأوحد يشكره على هدية سنية جاءته منه ، وأولها :

سلا دار البخيلة بالجِنَاب ... متى عَرِيَتَ رباك من القباب

(٢) في الديوان : محاب .

(٣) ديوانه : ١/٢٥٤ ـ ٢٥٥ . من قصيدة كتب بها الى الصاحب أبي القاسم بن عبد الرحيم يهنئه بالعيد ، وأولها :

حاشاك من عارية تَرُدُّ ... ابيضَّ ذاك الشَّعَر المسْوَدُّ

ومِنْ بني عبدِ الرحيمِ قَمَرٌ
كلُّ لياليهِ تَمَامُ سَعْدِ

كانوا الخيارَ وفَرَعْتَ زائداً
والنارُ تعلو وأبُوها الزَّنْدُ

وقد أكثر أبو الطيب من استعمال هذا المعنى ، نحو قوله (١) :

فإنْ تَفُقِ الأنامَ وأنتَ منهمْ
فإنَّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغَزَالِ

وقوله (٢) :

فإنَّ في الخمرِ معنىً ليسَ في العِنَبِ

وقوله (٣) :

---

(١) ديوانه : ٣/ ٢٠ من قصيدة يرثي بها والدة سيف الدولة ، وأولها :
نعدُّ المشرفية والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

(٢) ديوانه : ١/ ٩١ ، وهو عجز بيت صدره :
وإن تكن تغلبُ الغلباء عنصرها
وهو من قصيدة يرثي بها أخت سيف الدولة ، وأولها :
يا أخت خير أخ يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

(٣) ديوانه : ١/ ٣٨٠ ، وهو عجز بيت وصدره :
فإن يك سيار بن مكرمٍ انقضى
وهو من قصيدة يمدح بها محمد بن سيار بن مكرم التميمي ، وأولها :
أقل فعالي بَلْهَ أكثره مجد وذا الجدُّ فيه نلتُ أم لم أنل جَدُّ

فإنَّكَ مـاءُ الوردِ إنْ ذَهَبَ الوردُ

وقولِه (١) :

ولكنْ معـدِنُ الـذهبِ الرَّغَامُ /

وقولِه (٢) :

لو كـانَ سُكناي فيكَ مَنْقَصَةً

لـم يكنِ الـدُّرُّ ساكِنَ الصدف

فأما الجمع في المدح بين ذكر الآباء والأبناء فمن مليح ما جاء في ذلك قولُ مهيار (٣) :

وفَيْتَ الآبـاءٍ تَكَفَّلْتَ عنهـمُ

مَنَاسِكَ ماسَنُّوا فَخَاراً وسَـيَّرُوا (٤)

وجئتَ بمعنىً زائـدٍ فكأنَّهُـمْ

ـوماقَصَّرُوا عن غايةِ المجدِ ـ قَصَّرُوا

---

(١) ديوانه : ٤/٦٩ ، وهو عجز بيت صدره :

وما أنا منهمُ في العيش فيهم

وهو من قصيدة يمدح بها المغيث بن علي العجلي وأولها :

فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثل ما تهب اللئام

(٢) ديوانه : ٢/٢٨١ من قصيدة في أبي دلف وقد توعده في الحبس بالبقاء ، وأولهـا :

أهونْ بطول الثواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف

(٣) ديوانه : ٢/١٠٠ من قصيدة يمدح بها زعيم الملك أبا الحسن ويهنئه بالنيروز ، وأولها :

وفى لي من الحظ الذي كان يغدر وصح لي الدهر الذي يتغيَّر

(٤) رواية الديوان : فضائل ما سنوا الفخار وسيروا .

وقولُه (١) :

مِنَ النَّفَرِ الـذينَ إذا استُغيثُوا
رأيتَ بهِم وَسَاعَ الأرضِ ضِيقَا
تَرَى الأَبَ بالشهادةِ في بَنِيْهِ
قريباً وهْوَ قَدْ أمْسَى سَحِيقَا

وقولُه (٢) : [١١٩]

ولهُمْ (٣) سُيوفُ الخلفاءِ التي
تُعَلِّمُ الضَّرْبَ يَدَ الضَّارِبِ
غادُوا نُجوماً وَوَفَتْ في ابْنِهِمْ
شهادةَ الطالِعِ لِلغَارِبِ

وقولُه (٤) :

سارتْ بهِمْ أيامُ سُؤْدُدِهِمْ (٥)
سَيْرَ الحديثِ بِمُعْجِزِ الرُّسُلِ

---

(١) ديوانه : ٢/٣٥٥ من قصيدة كتب بها الى كمال الملك أبي المعالي ، وعرض في آخرها بغرض له ، وأولها :

الى كم حبسها تشكو المضيقا   أثِرْها ربما وجدتْ طريقا

(٢) البيتان غير موجودين في ديوانه ·
(٣) كذا وردت ، ولعلها : لهم ، بدون واو ، ليستقيم الوزن ·
(٤) الديوان : ٣/٢٠٩ من قصيدة يهنىء بها الوزير أبا القاسم هبة الله ابن علي بن ماكولا بالنيروز ، وأولها :

مالي شرفتُ بماء ذي الأثل   هل كدَّه الوراد من قبلي

(٥) في الديوان : أيام سؤدده ·

وأتى الوزيرُ فكـــان (١) بَيِّنَـــةً

شهِدتْ (٢) لهـم بسلامةِ النَّقْـــلِ

الإخبارِيَّات

وهي كثيرة جداً ، ومن بديع ما فيها قولُ جعفرَ بنِ إبراهيمَ (٣)

أبا جعفرٍ مـــاتَ فيكَ الجمـــالُ

فأظهـــرَ خَدُّكَ لُبْسَ الحِـــدادِ

وقـــد كان يُنْبِتُ زهرَ الربيـــعِ

فقـــد صارَ ينبتُ شَوْكَ القَتَادِ /

فهل كنتَ في المُلْكِ من عبدِ شَمْسٍ

فأخْنَى عليكَ ظُهـــورُ السَّوادِ ؟

ومن مليح ما في هذا المعنى قول الآخر :

تـــابوهُ لمَّـــا التَحَى فَقُلْنـــا :

عِبْتُـــمْ وغِبْتُمْ عن الجَمَـــالِ

---

(١) في الأصل : (فكأن) . وما أثبتناه من الديوان ليستقيم الوزن .

(٢) في الديوان : كفلت .

(٣) هو أبو الحسن جعفر بن ابراهيم بن الحاج اللرقي . من مدينة لَرقة ، عاش بعد الخمسمائة ، وعمر طويلاً (ترجمته في الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٣٩ ، وفي المغرب : ٢/٢٧٧ ، وفي المطـرب : ١٧٥) والأبيات الثلاثة في الخريدة : ٢/١٤٠ ، وفي نفح الطيب : ٤/١٠٣ ، والمغرب .

هــــذا غـَزَال" وهـــــل عَجِيبْ"
تـَوَلـُّـــدُ المِسْكِ في الغـَــــزَالِ

النحويات

ابنُ الحدّاد من قصيدة أوّلها (١) :

عُجْ بالحِمَى حيثُ الغِياضُ الغِيْنُ (٢)
فعَسَى تَغنّ لنا مَهَـــاهُ العِيْنُ (٣)

يقول :

لا تأْلَفُ (٤) الأحكامُ حَيْفاً عِنْدَهُ
فكأنّهـــا الأفعـــالُ والتنوينُ

ولآخر في رجل تزوج ، فظهر أنه عِنِّيْن : [١٢٠]

كم ذكرٍ في الورَى وأنثَى أَوْلَى من اثنيْنِ باثنتينِ
أَرَى الليالي أتتْ بلحْنٍ إذْ جمَعَتْ بينَ ساكنيْنِ

---

(١) القصيدة في نفح الطيب : ٤/١٠١ ، في مدح المعتصم بن صمادح ، وقد سبق تخريجها .

(٢ـ٣) رواية النفح : العين ، تعن .

(٤) في النفح : لا تلقح .

الطبيَّات

من ذلك قول الزاهي (١) :

رثَى طبيبي لسَقامي ومَنْ   أسقَمَني هجرانُه ما رَثَى
وقالَ : هذا مرض" مُعْضِل"   ورُبَّما أشفقْتُ أنْ يلبَثَا
وهــذه الصفراءُ قتَّالــةٌ   فليتــه ذَكَّـــرَ ما أنَّثَا

وحدثني من كان معــه عند عمله هذه الأبياتَ وأن السبب فيه إنشاد بعض الحاضرين لابنِ المغربيِّ : /

قــال الطبيبُ وقد تأمَّـــلَ عِلَّتي
هـــذا الفتى أودَتْ بـــه الصفراءُ

فعجبـــتُ منــه إذ أصابَ وما دَرَى
لفظـــاً ومعـــنىً ما أراد خطـــاء

وهذا من قول الصَّابي (٢) وذكر الطبيبَ :

فقـــال : شفاؤُه الرمـــانُ ممَّـــا
تَضَمَّنَه حَشَاهُ مِنَ السَّعِيــرِ

---

(١) أبو القاسم الزاهي ، علي بن إسحاق بن خلف ، شاعر وصاف محسن ، كثير الظرف ، من شعراء اليتيمة : ١/٢٤٩

(٢) البيتان في اليتيمة : ٢/٢٥٨ ، مع أبيات أخرى .

فقلتُ لهمْ : أصابَ بغيرِ عَمْدٍ
ولكنْ ذاكَ رُمَّانُ الصدُورِ

وقال جعفرُ بن شرفٍ (1) :

صَنَمٌ من الكافورِ باتَ مُعانِقِي
في حجبتَيْن : تَعَفُّفٍ وتكرُّمِ
فَكَسَرْتُ ليلةَ وصلِهِ في صدِّهِ
فَجَرَتْ بقايا أَدْمُعِي كالعَنْدَمِ
فطفِقْتُ أمسحُ مقلتيَّ بصدرِهِ
إذْ عادةُ الكافُورِ إمساكُ الدَّمِ

الهندسيَّاتُ [١٢١]

هشامُ بن أحمدَ (2) :

قد بَيَّنَتْ فيه الطبيعةُ أنَّها
ببديعِ أعمالِ المهندسِ ماهِرهْ

---

(1) هو جعفر بن محمد بن شرف ، والأبيات في الخريدة (قسم المغرب) ٢/٢٣٠ ، وذكر العماد أنها تنسب كذلك لأبيه محمد ، وهي في وفيات الأعيان : ٢/٧٨ منسوبة لابن رشيق القيرواني .

(2) هو أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام ، يعرف بالوقَّشي . انظر ترجمته في الخريدة (قسم المغرب) ٢/١٩١ ، وفيها أنه : هشام بن محمد ، وانظر المطرب : ٢٢٣

عُنيَتْ بِمَبْسَمِهِ فَخَطَّتْ فوقَه
بالمسكِ قوساً من محيطِ الدائِرَهْ (١)

الفلسفيّاتُ

مجبرُ بن محمد يمدح مولانا ، خلّد الله ملكه :

شِعْرٌ أرقُّ من النسيمِ حواشِياً
لم تَروِ حُوشِيَّ الكلامِ رُواتُه

نُظِمَتْ لشاهِنْشاهَ منه قصائِدٌ
قُصِدَتْ مدائِحُه بها وصِفَاتُه

فأتَى بديعاً في بديعٍ أطْمَعَتْ
ألفاظُه وتَمَنَّعَتْ طُرُقَاتُه

كالرُّوحِ يُدرَكُ بالحقيقةِ فِعْلُه
وتَغيبُ عنْ أهلِ البصائرِ ذاتُه

وحدثني ابن مكنسةَ ، قال : حضرت جَنَازَةَ ابن الطائي المقرىءِ ، فرأيت من إعظام الناس له ــ وهو محمولٌ على نعشه ــ مالم يكن له منهم في حياته ، فقلت بديهاً :

أرَى ولَدَ الطائيِّ أصبحَ يومَه
يعظّمُهُ الأقوامُ أكثرَ منْ أمسِ

(١) البيتان في الخريدة والمطرب .

وقد أكرموهُ في المماتِ ، تراهمُ

يظنّون أن الجسمَ أزكى من النّفسِ ؟

عليُّ بن محمدٍ الإياديُّ (١) :

ليهنكَ أنَّ اللهَ أعطاكَ رتبةً

من الفضلِ ركناها التّقى والتواضعُ

مضمّنةً حملَ المكارمِ والعُلا

كما ضمّنتْ حملَ الحياةِ الطبائعُ

وله :

ألقى زماماً إليه الدهرُ واجتمعتْ

على فضيلتهِ الشبّانُ والشيبُ

ملكٌ هو الصورةُ الأولى التي اصطُفيتْ

من قبلِ أنْ يلحقَ المبسوطَ تركيبُ [١٢٢]

من جيد الطريقة (٢) التي استعملها المحدثون قولُ عبد الله بن العابد من قصيدة :

---

(١) هو أبو الحسن علي بن محمد الايادي التونسي (انظر وفيات الأعيان : ١/١١٢ ، ونفح الطيب : ٤/٥٧) .

(٢) في حاشية النسخة ما يأتي : (قلت : هذه الطريقة التي يشير اليها مؤلف هذه الرسائل وهو علي بن منجب بن سليمان التنوخي المعروف بابن الصيرفي قبل تصنيف ديوان رسائله التي في النثر والانشاء على عشرين مجلداً ، ونرى القاضي الفاضل يستمد منه كثيراً ، وبالجملة فهو أستاذ زمانه . وهذه ـ أعني الطريقة المذكورة ـ سماها علماء البديع بالتطريز) .

وما خصصتُ ولكنْ عَمَّ نائلُه

فاستعبد الثَّقَلَيْنِ : الجنَّ والبَشَرَا!

عَدْلٌ تَمُدُّ رواقَ الفضلِ سيرتُه

فتشملُ الموطنَيْنِ البدوَ والحَضَرَا

وتكشفُ الظُّلْمَ والإظلامَ غُرَّتُه

فتُخْجِلُ النَّيِّرَيْنِ : الشمسَ والقمَرَا

ويستوي ذِكرُه حُسناً ومنظرُه

فيَشْغَلُ المُتعَيْنِ : السمعَ والبَصَرَا

سَرَّحْ مُنَاكَ إلى ساحاتِ أنْعُمِهِ

وضَمِّنِ الصادقَيْنِ : الخُبْرَ والخَبَرَا

هذه الخدمة مشتملة من الأدب على لُمعة ، وشاهدة بقوة في البلاغة وصَنْعَة • وقد جعل المملوك ما اعتمده من تقريرها ، وقصده من ترتيبها وتحريرها سفيراً بين مقاصده وبين النُّجح ، وسبيلاً إلى رغبة الأيام إليه في السلم والصُّلْح ؛ إذ كان السعد مضموناً للذين لاذوا برجاء مولانا وتَحَرَّموا ، والحظ محتوماً للذين تَبَسَّطوا على تأميله وتحكَّموا :

كُلُّ الورَى داعٍ وكُلُّ دعائِهِمْ

أنْ لا يُزِيلَ اللهُ ظِلَّك عنهُمُ

أغْنَى نوالُك بعضَهُمْ عن بعضِهِمْ

كيلا يُرى في الأرضِ غيرُك مُنْعِمُ [١٢٣]

فلذاكَ ألسُنُهُمْ لسانٌ واحدٌ

يُثْنِي بِمَا خَوَّلْتَ والدُّنيا فَمْ

لا زالت الأقدار بإرادة المقام الأشرف ـ خلَّد الله ملكه ـ جارية : والأقضيةُ في خدمته متنافسة متبارية ، ما اتصلتِ الأيامُ والليالي ، وتزيَّن الدهرُ من مناقبه بفاخر اللآلي ، إن شاء الله عز وجل.

الحمد لله ربِّ العالمين ، وصلى الله على سيد المرسلين محمدٍ خاتم النبيين ، وعلى آله الطاهرين وسلَّم تسليماً . اللهُ حسبُ المملوك ونعم الوكيلُ .

وعند عرض هذه الرسالة رضِيَ عنه ، وأعادَه إلى ديوان الإنشاء .



(٤)

رِسَالَةُ مَنَائِحِ ٱلقَرَائِحِ



رسالـــة

سماها منائحَ القَرائح

أولى ما تُقرِّب به الى الله تعالى الإكثارُ من تحميده ، والإقرارُ بربوبيته وتوحيده ، والصلاةُ على نبيِّه محمدٍ الذي عضدَه بتأييده ، وخصَّهُ من الشرف بما لا سبيلَ إلى تحديده ، وعلى آله الممنوحينَ من الفَضْل ما يعجز الوَصْفُ عن تعديده ، ثم التوسُّلُ إلى ملوك كُلِّ وقتٍ بشُكْرِ نِعَمهم [١٢٤] ومواصلَة خِدَمِهم ، ونَشْر خصائصهم التي امتازوا بها عن العباد ، وذكر مناقبهم التي سارت في الأقطار ونَقَّبت في البلاد ، والاجتهادِ فيما تَفَقَت بشريف مقاماتهم سُوقُهُ ، والاعتمادِ على ما ظَهَر سُموقُهُ في البلاغة وبُسُوقُهُ •

ولا خلاف أنَّ سلطانَ هـذا العصر ، والمخصوصَ من الفضائل بما لا يدخُلُ تحت الحَصْر ؛ مولانا الملكَ السيدَ الأجلَّ الأفضلَ ، أميرَ الجيوش ، سيفَ الإسلام ، ناصرَ الإمام ، كافلَ قضاة المسلمين ، وهاديَ دعاة المؤمنين ، عَضَدَ الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين ، وأدام قدرَتَهُ ، وأعلى كلمته ؛ سَيِّدُ من ملَكَ الأرضَ ، ولم يَكْتَفِ بالدنيا دون الآخرة ولم يَرْضَ ، وخيرُ من زَخَرَتْ بحارُ مَكَارِمِه الفائضة وطَمَتْ ووَهَتْ أركانُ الشِّرك بعزماته الماضية وتحَطَّمت ، وأفْضَلُ من دَبَّر البرِيَّةَ من الأكابر العُظماءِ ، واستقرَّ الثناءُ عليه في الأرض لمَّا استقرَّ عليه في السماء ، وتَمَّتْ بيُمْنِ نظرِه محاسنُ الدنيا وتكامَلَتْ ، وفخَرَتْ أيامُهُ على

الأزمنة المتقدمة وتطاولت ، [١٢٥] لا جرم أن الآفاق قد غدت طامعة باستيلائه عليها راجية وأصبحت ملوكها وافدة إلى بابه العزيز لاجية ، فعادت آمالهم متخلصة من يد الإخفاق ناجية ، وأضحت أيامهم مشرقة وقد كانت من قبل داجية ، وصارت أحوالهم بمكارمه حالية نامية زاجية ، فقد زهيت به المملكة وأظهرت بهجتها وجمالها ، واختالت في ملابس فخره فسحبت على على السحب أذيالها :

ولم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها (١)

فيجب على من صفت فكرته ، وصحت فطرته ، وأمكنه استنباط معنى غامض ، واستدل على المحاسن ببرقها الوامض ، وعرف موضع الفضيلة فيما يصنعه من تصنيف ، وعلم موقع الوسيلة به إلى كل مقام شريف أن يظهر كامن قوته ، ويعمل مطايا رويته فيما يخدم مجلسه العالي به مما يطرب موروده ومسموعه ، ويعجب مؤلفه ومجموعه ، ويستحسن موضوعه ومصنوعه ، ويذكر من ذلك ما يؤدي إليه أقصى حرصه [١٢٦] وجهده ، ويعتمد منه ما يتعين لكل مولى على مملوكه وعبده ، بعد شكر الله الذي لطف بأمة جعله مالكها ، وأوضح به إلى الخيرات مسالكها ، وأولى منه منة أقر بالعجز عن فرضها من يحاوله ، وأسبغ نعمة تطامن لها من الشكر متطاوله ، وأحيا به ملة نسخت ما تقدمها من الملل ، وحسم

(١) البيت : لأبي العتاهية .

ديوانه : ٦١٢ ، وهو من قصيدة يمدح بها المهدي ، أولها :

ألا ما لسيدتي مالها   أدلا فأحمل إدلالها

في اعتقاد عبوديته جميع الموانع والعلل ، فالقلوب إلى الاجتهاد في طاعته مسرعة مرجفة ، والملوك في الانقياد لعظمته لا متوقفة ولا متخلفة ، فأبقى الله على الدهر بهجة سلطانه وملكه ، وجعل من كفر نعمته صريع بطشه وفتكه ، وحكّم مواضيه وعواليه في إراقة دمه وسفكه بفضله وقدرته وعدله ومشيئته .

ولذلك خدم المملوك بهذا الجزء الذي ألّفه وجمعه ، وأودعه مختار ما سمعه ، وأضاف إليه ما استنبطه وابتدعه مما لم يعلم أحداً سبقه إلى ما عمله منه وصنعه ، وقصد في هذه الجملة أن يوجز ويختصر ، [١٢٧] إذ كان الواجب أن يعتمد على اليسير ويقتصر ، لأن هيبة المقام الأعظم تمنع ما يستطال وإن كان يستطاب ، على أن المثول بين يديه يبيح استيفاء الحجة وإن اتسع الخطاب ، والله — عز وجل — يهديه في خدمة مالكه أقوم جدد (١) ، ويريه من نعمه السابغة مالا يحصيه عدد ، فله القوة والحول ، وبيده القدرة والطول .

في الشكر الذي يصون النعم من الانتقال

ويلزم تقديمه أمام كل مقال

إن الله تعالى جعل الشكر فريضة لا رخصة فيها ، وطريقة لا يضل مقتفيها ، وكان لمن حافظ عليها وحالفها المزيد ، ولمن عدل عنها وخالفها التهديد والوعيد . قال الله — عز من قائل — :

(١) الجدد : الأرض الغليظة ، وقيل المستوية ، وفي المثل : من سلك الجدد أمن العثار ، والصحراء جدد ، والفضاء جدد (اللسان : جدد) .

« وإذْ تأذَّن ربُّكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إنَّ عذابي لشديد » (١) فواجبٌ أن تُقابَلَ النعمُ من الشكرِ بما يؤنسُ وَحْشيَّها ، وتُواصَلَ من الحمد بما يعطفُ أَبيَّها ، فإحسان مجاورتها مُقرِّبٌ لقَصيِّها ، وإجمالُ مُصاحبتها مُليِّنٌ [١٢٨] لعَصيِّها ، والتَّضرُّعُ لموليها في حراستها يُؤكِّدها ويُجدِّدُها ، والتوسُّلُ إلى مُسْبِغِها في إدامتها يُقيِّدها ويُخلِّدها ، ولازمٌ لكل ذي عقلٍ أن لا يجهل معرفةَ قدرها ، ولا يَشتغِلَ بسُكْرِها عن شُكرِها ، ولقد أحسَنَ أبو إسحاق الصَّابي في قوله :

موقعُ الشكر من النعمة موقعُ القِرَى من الضيف : إنْ وجَدَهُ لم يَرِمْ ، وإنْ فَقَدَهُ لم يُقِمْ .

وإذا عدَدْتَ نِعمِ اللهِ التي أضفاها ، ومِنَنَهُ التي أولاها ووالاها ، ومواهبَهُ التي منَحَها كَرَماً وتفضُّلاً ، وعوارِفَهُ التي جازى المعتَرِفَ بها رِضىً وتَقَبُّلاً ، كانت منقسمَةً إلى العموم والخُصوصِ ، ومُسْتَوْجِبَةً من الشكر ما ثَبَتَ في العقول والنُّصُوص ، فالنعمةُ التي تَخُصُّ ما تعلق بالمرءِ في ذاتهِ ونفسه ، والنعمةُ التي تَعُمُّ ما كان شامِلاً لنوعه ، شائعاً في جنسِهِ . وهذا لا يكون إلا بالملوك الذين هم أولياءُ النعم ، وزعماءُ الأمم ، وقد أقدرهم الله جَلَّ وعَزَّ على ما يَعُمُّون به دواعيَ الشكر [١٢٩] ونصَبَهُمْ ـ تباركَ وتعالى ـ للأمر بالعُرْفِ والنهي عن النُّكْرِ ، ويتباينون في التَّعميرِ والتَّدميرِ ، فمنْ عَدَلَ منهم وأقسَطَ ، وأرْضَى في ذات الله وأسْخَطَ ، فقد أنال المُتَفيِّىء بظلِّهِ أقصى

---

(١) إبراهيم : ٧ .

أَرَبِهِ ، ووجَبَ على كلِّ مُكَلَّفٍ شُكرُهُ وشُكرُ النعمة بهِ .
ومن أبَى الحقَّ وصرَفهُ ، ودَفَع الواجِبَ وصَدَفَهُ ، فلا مجال له هاهُنا ولا مَسْرحَ ، ولاسُمُوَّ لناظرهِ في هذا الأفقِ ولامَطْمح،
والإجماعُ واقعٌ من الحاضرِ بالدِّراية ومن الغَائب بصحةِ الرِّواية أنَّ سَيِّدَ ملوكِ الأرض بلا مُدافَعَةٍ ، وأشرفَ سلاطينِ العالم بغير مُمانَعَةٍ ، وأكملَ من كُلِّ من تقدم لما عُلِم بالنَّقْل ، وأَفْضَلَ من كُلِّ من يأتي بمقتَضَى القياس والعَقْل مولانا الملكُ السَّيِّدُ الأَجَلُّ الأَفْضَلُ أميرُ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الإمام ، كافلُ قضاة المسلمين ، وهادي دُعاة المؤمنين ، عَضَد اللهُ به الدين ، وأمتع بطُولِ بقائه أميرَ المؤمنين ، وأدام قدرَتَهُ ، وأعلى كلمتَهُ ، الذي حَكَمَ فأنصف وعَدَل ، وسلكَ جـادَّة الحقِّ فما نَكَبَ ولا عَدَل [١٣٠] ووضَحَتْ له طُرقُ الشُّبَهِ فانحرَفَ عنها وجار، وقَضَى بين البريَّة فما ظلم ولا جار، وتَيَقَّنَ برقَ الثوابِ مُومِضًا فتمثَّلَهُ وشامَهُ ، وتحقَّقَ التناصُفَ بهَيْبته فما انتضَى سيفَهُ ولا شامَهُ ، ولذلك سَمَا بِفَخْرِهِ ناظرُ الدين الحنيفِ وَقَرَّ ، وانزعَجَ بذكرهِ مضجعُ أَوَّلِ الكُفْر فما ثَبَتَ ولا قَرَّ ، وغدا كُلُّ ملكٍ يكتفي بأيسرِ رضاه ويَقْنع ، وكُـلُّ مشمولٍ بأنزرِ مواهبهِ لا يطلب ولا يقنـع ، فإنْ يُسْألْ عطـاءً يمنحِ الرَّغائبَ ويهَبْ ، وإنْ يباشِرْ هيجاءَ لم يُرَعْ لِمَا التَهَبَ من ضرامها ولم يَهبْ ، هذا إلى ماله من المناقب التي آمَنَتِ الديارَ ، وأَرْخَصَتِ الأسعـارَ ، وحَسَّنَتِ الآثــارَ . وأدركَ الإسلامُ بهـا الثارَ ، وانْحَسَمَتْ فيها موادُّ الكفرةِ والأعـداء ، وبَرِئَتِ الأحوالُ بطِبِّها من المرض والـداءِ وأمِنَتِ المَطَالِبُ معها من الخَيْبَة

والإكداء ؛ فلا ثناءَ ينهَضُ بواجب جزائها ، ولا تقريظَ يَستقلُّ بأول أجزائها . [١٣١] فمن الواضح البيِّن ، واللازم المتعيِّن ، لنعمتي الخصوص والعموم ، وإنْ كان الشكرعليهما من المفروض المحتوم أن يَقَعَ التوفّرُ على حق الموهبة التي عَمَّتْ وشَمِلَتْ ، ويُبالغ في ذلك طلباً للجزاء يومَ «تُوَفَّى كلُّ نفسٍ ما عَمِلَتْ»(١) فقد نَتَجَتْ هذه المقدمة وجوبَ الإجماع على حَمْد مالكها وشُكره وبعَثَتْ على تعمير المحافل بنَشْر إحسانه وذكره ، وقضَتْ بأنْ يُعَطَّرَ بوصفه نَسيمُ الشَّمال والقَبُول ، ودَعَتْ إلى مُواصلة الدُّعاء له في مَظَانِّ الإجابة والقَبُول ، وفرضَتْ بذلَ الاستطاعة في ذلك توخّياً للصواب ، وجعلَ اعتقادَهُ أفْضلَ ذخيرةٍ تُورَثُ للذَّراري والأَعْقاب ، فأوزع اللهُ الكافّةَ شُكْرَ النّعمة على ما أصْلَح به من دُنْياهم ، وألهَمَهُمُ القيامَ بما يلزم قوماً أدركوا من السَّعادة مالم يبلُغْهُ مُناهم ، ووفّقَهم لما يجب عليهم من فَرض أكرم كَفيلٍ منه للشريعة ونصيرٍ ، وأنهضَهُم من الاجتهاد لما يقيم [١٣٢] عُذْرَهُمْ في العجز والتّقْصير ، وأعانَ كُلّاً منهم على مُواصلته إلى حين المُنقلبِ والمَصير ، إنه السميعُ البصيرُ ، اللطيفُ الخَبيرُ ، وهو ــ بعزّته ــ على ما يشاءُ قدير .

من المعاني التي استنبطها المملوك وابتدعها واستخرجَها فكرُهُ واخترعَها .

فمن أنشأ فيها شيئاً من أُدباء الوقت ، وشُعراء العَصْر ، فإنما انتهج قصدَ المملوكِ مُتَتَبِّعاً لدليله ، واقتفى أَثَرهُ محتذياً على

---

(١) النحل : ١١١ .

تمثيله ، وكلٌّ من تعرَّض لذلك ــ وإنْ أحسَنَ وأجاد ، ورَجَح وأوفى وزاد ــ فللملُوكِ مَزِيَّةُ البِدايةِ ، وحرمةُ الهداية ، ومَاتَّةُ الابتكار ، وفضيلةٌ يأمن فيها من الدَّفعِ والإنكار .

قد وقَعَ الإجماعُ على فَضْلِ واصلِ بن عطاءٍ ، وكشفهِ في البلاغةِ كلَّ حجابٍ وغطاءٍ ، ودلَّ كلامُهُ على القُدرة في الفصاحة وبُعْد الغَوْرِ [١٣٣] واشْتَهَرَ من أجْلِ لُثْغَتهِ بحذفِ الراءِ من لفظهِ ، وهي حرفٌ كثير الدَّور .

ومن المحكِيِّ عنـه قولُهُ ــ وذكَـرَ بشَّاراً وكان يُرْمَى بالزندقة ولهذا قَتَلَهُ المهدي ــ :أما لهذا الأعمى المُكْتَنَي بأبي مُعاذٍ من يَقْتله ! واللهِ لولا أنَّ الغِيلةَ خُلُقٌ من أخلاقِ الغالية لبعثتُ إليه من يَبْعجُ بطنه عـلى مَضْجَعهِ ! فقال : الأعمى ، ولم يَقُل : الضَّرير ، وقال : المُكْتَنِي بأبي معاذٍ ، ولم يقل : بشاراً ولا ابنَ بُرْد ، وقال : من أخـلاقِ الغالية ، ولم يَقُـل : المُغيريَّة (١) ولا المنصوريَّة ، وقال : لبعثت إليه ، ولم يقـل : لأرسلت [إليه] ، وقال : على مَضْجَعهِ ، ولم يقل على فراشه !

ومما قيل فيه (٢) :

ويَجْعَـلُ البُرَّ قَمْحاً في تَصَرُّفِـهِ

وخالَفَ الرَّاء حَتَّى احتـال للشَّعَرِ

---

(١) في الحاشية : (المغيرية ، منسوبة الى المغيرة بن سعيد ، وكان في بدء أمره شيعياً ، ثم انتحل أنه إمام ، ثم نبي ، ثم إله) .

(٢) البيتان في الوفيات : ٦/٨ ، وهما غير منسوبين هناك .

ولم يُطِق مَطَــراً والقولُ يُعْجِلُهُ

فعـــادَ بالغيث إشفاقاً من المَطَـــرِ (١)

ومن اللغز الـذي تَضَمَّن خَبِيّاً وسراً ، وأحسَنَ قائله إذْ عَمَّى فيه وَوَرَّى ، إلا أنَّ إيرادَهُ هاهنا يجعَلُ خافيهُ ظاهراً ، ومُبَرْقَعَهُ سافراً قولُ الشاعر : [١٣٤] :

ولمَّا رأيـت الشَّيبَ راءً بعـــارضي

تيقَّنْتُ أنَّ الوصـل لي منك واصِلُ

---

(١) في الحاشية : (كان بشار يتعصب للنار على الأرض ، ويصوب رأي إبليس في الامتناع من السجود ، فاتصل ذلك بواصل ، فتكلم فيه ، فهجا واصلاً . وكان بشار يدين بالرجعة ، ويكفر جميع الأمة ، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين ، وذكر ذلك في شعره ، فقال :

النار مشرقة والأرض مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار

فلما تتابع على واصل ذلك منه قال : أما لهذا المشنف المكتني بأبي معاذ من يقتله ؟ والله ، لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه مـن يبعج بطنه في جوف منزله ، ثم لا يتولى ذلك إلا عقيلي أو سدوسي ، فقال : المشَنف ، ولم يقل ابن برد ، فهو يلقب المرعث . لقوله :

رب ظبـــي مُـــرعث فـــاتر اللحـــظ والنظـر

قـــال لـــي لـــن تنـالني قلت إذ يظهـــر القـــدر

وقـــال :

أنا المـرعث لا أخفى عـلى أحـــد

ذرت بـي الشـمـس للـــداني وللنائـي

ويقال : إنه من آمم سدوس ....) .

فَخَصَّ الراءَ لحفظِهِ المعنى الذي قَصَدَهُ وإحرازِهِ ،
وأحسَنَ التوصُّلَ بواصلٍ إلى تجنيسهِ وإلغازهِ .

وللرُّسْتُمي في الصاحب (١) :

نَعَمْ ! تَجَنَّبَ : لا يومَ العَطاء كما
تَجَنَّبَ ابن عطاءٍ لُثْغَةَ الراءِ

وَلَمّا أكثرَ الناسُ من تقريظ هذا الفَنِّ ووصفِهِ ، وادّعَى قومٌ أنَّ المُتَعرِّضَ له إنَّمَا يُخْبِر عن عجزِهِ وضَعْفِهِ ؛ اعتمد المملوكُ تأمُّلَهُ وتدبُّرَهُ ، واستنجَدَ ، فيما يُعرِبُ به ، رويَّتَهُ وتفكُّرَهُ ، فلم يَرَ أنْ يكونَ لهذه السبيل مُقْتَفياً ، ولم تَرْضَ له الخدمةُ الشريفةُ أن يُلْفَى في هذا الباب مُصَلّياً (٢) ، فعمِلَ في مولانا شعراً لم تُجْتَنَبْ فيه الراءُ ، وإذا قرأَهُ الألثَغُ أفاد معنىً يزول في استحسانهِ المراءُ ، وكانَ في ذلك من الإعجاز أنَّ الصَّريحَ والمستعجِمَ ، والفصيحَ والمتلعثِمَ إذا أخذوا في ذكرِ أوصافِ مولانا لم يُشكِلِ اللفظ الذي يُوردونَهُ ، ولم يَستَبْهم المعنى الذي يُؤَدُّونه ، ولم يُعْتَذَرْ [١٣٥] بأنَّ اللُّثْغَةَ أفسَدَتِ المُرَاد ولا حالَتْ دُونَهُ ، وتساوَتْ في روايتها الآلةُ الصحيحةُ والسقيمة ، وتماثلَتْ في تلاوتها الألسنةُ المعوجَّةُ والمستقيمةُ ، وأجرَى المملوكُ ذِكْرَ هذه الجُملة مع محمود ابن القاضي الموفق ، إذْ كان

(١) ورد البيت في الوفيات : ٦/ ٩ منسوباً الى أبي محمد الغازن ، وذكر ابن خلكان أنه من جملة قصيدة يمدح بها الصاحب أبا القاسم إسماعيل ابن عباد . والرواية هناك : لفظة الراء .

(٢) الفرس المُصَلّي : هو الفرس الذي يأتي تالياً لسابقه .

الإغرابُ في الصفاتِ الشريفةِ من مذهبهِ ، والإبداعُ فيها من بغْيتهِ وأَرَبهِ . فلمَّا رأى هذه الطَّريقة من أسلُوبهِ وشَرْطهِ ؛ بالَغَ في استحسانها وعمل لوقتهِ :

وذاتِ وجهين أتَتْ بدعةً
غايتُهَا في الحُسْنِ لا تُبْلَغُ

قافيةٌ رائيَّةٌ فيك لا
يُعابُ في إنشادِهَا الألثَغُ

وشفعَهُ بأنْ قال :

يا ملكاً فائضُ إحسانهِ ... في كُلِّ آفاق الدُّنَى سائرُ
وَصفُكَ عنديذَهَبٌ خالصٌ ... نظمي له حيث انتهى صائرُ

والذي عَمِلهُ المملوك :

من شاءَ جَمْعَ مَعالٍ قد خُصِصْتَ بها
وجاوزَتْ كُلَّ حَدٍّ لم ينلْ [......](١)

وكيف تستطيع أنْ تحصي فضائلَهَا
وزندُكَ الغِرُّ مهما تَقْتَدِحْه [وَرِي](٢)

---

(١) مطموسة في الأصل .

(٢) مطموسة في الأصل ، ولكنها فهمت من السياق ، ومما ورد في الحاشية وهو : (ورى الزند ــ بالفتح ــ ورياً ، إذا خرجت ناره ، وفيه لغة أخرى ، وري ، يري ، بالكسر فيهما) .

ثم رأى المملوكُ أنْ لا يُخليَ النثرَ من هذا النوع الذي تتعبُ الأفكارُ في طلبه ، وأنْ يُوردَ فصلاً يَتَوخَّى فيه ذِكْرَ الشَّيء على ما هو به ، فعمِلَ في وَصْفِ مالكه [١٣٦] ثَبَّتَ الله قدرتَه ، وأدامَ سُلطانَه ودولتَه (١) :

ملكٌ أبانَ اللهُ إعلاءَ رايته فازدانَتْ بأوصافها المحافِلُ ، وتاهَ الزمَنُ بمحاسنه فهو عن الإساءة لاهٍ رافل ، قد سارت بالألسنة والأفواهِ مدائحُه ، وصارت حُلَى المجامِع والأندية منائحُه ، وأصبَحَ الكافَةُ من ظِلِّهِ في رياض أنيقةٍ ، ورامت السَّماءُ إحياءً للأرض فخدمَتْهُ بذاك على الحقيقة .

ولما انتهى إلى هذا الحَدِّ أملَّ خاطرُهُ عليه من غير رَويَّة ، ونظم ــ عفواً ــ ما يشهدُ بصحة هذه القضيَّة :

لمَّا غدوتَ مليكَ الأرض أفضل من

جَلَّت مفاخره [عن كل إطراء](٢)

---

(١) حرص المؤلف في صياغة هذه القطعة على أن تكون الراء التي في كلماتها إذا انقلبت غيناً عند نطق الألثغ لها بقي الكلام متسقاً ، وكان ذا فائدة ، فتصبح العبارة عند الألثغ كالتالي :(ملك أبان الله إعلاء **غايته** ، فازدانت بأوصافها المحافل ، وتاه الزمن بمحاسنه فهو عن الاساءة لاهٍ غافل قد **ساغت** بالألسنة والأفواه مدائحه .**وصاغت** حلى المجامع والأندية منائحه ، وأصبح الكافة من ظله في **غياض** أنيقة ، **وغامت** السماء إحياء للأرض ...) .

وقد ورد في أصل النسخة فوق كل كلمة الرواية الثانية لها .

(٢) مابين المعكوفين مطموسة في الأصل ، وقد أكملناه من معجم الأدباء : ١٥/ ٨٠ . فالبيتان هناك لابن الصيرفي .

تغـايرت أدواتُ النُّطقِ فيك عـلى

ما يصنـع الناس من [نظـم وإنشاء](١)

ثم اقتضت فكرته ، وأوجَبَتْ خدمتُه أن يَجْعَلَ هذه القافية عـلى وجوه من الرَّوِيّ ، عمـلاً بما رآه منسوباً إلى ابن نُبَاتة والشريف الرَّضِي ، لتشترك الحروف في حَـظٍّ مـن الشـرف وافٍ ، وتَتَبَيَّنَ فضيلةُ مجيئها متناوبة في قوافٍ . والمنسوب إلى الشريف وابن نباتة : [١٣٧]

لا يبلـغُ الغايةَ القُصْوى بهمَّتِـهِ

إلا المُقَسَّمُ بين (٢) الخَيْلِ والإبلِ

يَطْوي حَشَاهُ إذا ما الليـلُ عانَقَهُ

عـلى وشيج من الخطّي معتـدلِ (٣)

والتعبير الأول :

لا يبلـغُ الغايةَ القُصْوى بهمَّتِـهِ

إلا المُقَسَّمُ بين الجُـرْدِ والكُومِ

يَطْوي حَشَاهُ إذا ما الليـلُ عانَقَهُ

عـلى وشيـجٍ من الخَطّي مَحطُومِ

---

(١) ما بين المعكوفين مطموسة في الأصل ، وقد أكملناه من معجم الأدباء .

(٢) في الأصل : من ، وهو تصحيف يخل بالوزن .

(٣) لم نجد البيتين في ديوان الشريف الرضي ولا في ديوان ابن نباتة .

والثاني :

لا يبلغُ الغايةَ القصوى بهمّتِهِ
إلا أخو الحرْب والجُرْد السّلاهيب
يَطْوي حَشاهُ إذا ما الليلُ عانَقَهُ
على وشيجٍ من الخطّي مخضوب [1]

والثالث :

لا يبلغُ الغايةَ القصوى بهمّتِهِ
إلا المُقسّمُ بين السّرج والكُورِ
يَطْوي حَشاهُ إذا ما الليلُ عانَقَهُ
على وشيجٍ من الخطّي مكسُورِ

والرابع :

لا يبلغُ الغايةَ القصوى بهمّتِهِ
إلا المُصيخ وإنْ لم يَدْعُهُ الداعي
يَطْوي حَشاهُ إذا ما الليلُ عانَقَهُ
على وشيجٍ من الخطّي زَعْزاعِ

والخامس :

لا يبلغُ الغايةَ القصوى بهمّتِهِ
إلا المُقَسّمُ بين الجُرد والقُود

---

(1) البيتان في معجم الأدباء : ١٥/٨١ ، في ترجمة ابن الصيرفي .

يَطْوي حَشَاهُ إذا ما الليلُ عانَقَهُ

على وشيجٍ من الخطّي [.......] (١)

والسادس :

لا يبلُغُ الغايةَ القُصْوى بهمَّتِهِ

إلا المُقَسَّمُ بين الجُرْدِ والنُّوقِ

يَطْوي حَشَاهُ إذا ما الليلُ عانَقَهُ

على وشيجٍ من الخطّي مدقوقِ

فهذه ستة تَغَيُّرات .

والذي صنعه المملوكُ في البيتين اللذين أوردهما [١٣٨] على قافية الهمزة يستوعِبُ الرَّويُّ فيهما جميع حروفِ المعجم الثمانية والعشرين ، وقومٌ يجعلونها تسعة وعشرين ، فَيُضيفون إليها الحرف المركب من اللام والألف ، ولا يجوز دُخولُ المركب في البسيط ، وهي — على مذهبِ جماعةٍ من المحقّقين — ثمانية وعشرون حَملاً على عِدَّة منازلِ القمر ، ولذلك قالوا : إن لام التعريف إنما صارَتْ تُدْغم في نِصْفِ الحُروف فَتَظْهَرُ عند نصفِها ؛ لأنَّ نِصْفَ منازل القمر ظاهر أبداً فوق الأرض ، ونصفها خافٍ أبداً عن ظاهر الأرض . وقد بَيَّن المملوكُ ما عملَهُ وهو — قد تَقَدَّم ذكر الهمزة — :

(١) مطموسة في الأصل .

البـــاء :

لمَّا غَدَوْتَ مليك الأرض أَفْضَل مَنْ
حَلَتْ مفاخِرُهُ في النَّظْـمِ والخُطَبِ
تغـــايَرَتْ أدواتُ النطق فيك عـــلى
ما يصنعُ الناسُ من مستغرَبِ (١) الأدبِ

التـــاء :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
سَاسَ البريَّـةَ في المـاضي وفي الآتي
تغـــايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عــلى
ما يرفَعُ الناسُ أعقـــابَ المناجـــاة

الثاء :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
غـــدا الـــدعاءُ له في الأرضِ مبثوثا
تغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكعلى الـ...
... ثنـــاءِ مكتسِياً (٢) منه وموروثا

---

(١) فوقها : مستحسن ، ويبدو أنه رواية ثانية .

(٢) كذا وردت ، ولعلها : مكتسباً .

الجيم :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

جَلّتْ مواهبُهُ عن مَطْلَبِ الراجي[١٣٩]

تَغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ على

وصفٍ يريكَ ظلامَ الحِنْدِسِ الداجي

الحاء :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

سعَتْ عطاياه عما اعتِيدَ من مِنَحِ

تَغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ على

ما يصنَعُ الناس من وصف ومن مِدَحِ

الخاء :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

تَطَرَّزَتْ بمعاليهِ التواريخَ

تَغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ على

وصفٍ به كُلُّ ما يعدوه منسوخُ

الدّال :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

جَلّتْ أياديه عن وصفٍ (١) وتعديد

---

(١) فوقها : شرح ، ويبدو أنها رواية ثانية .

تغـايَرَتْ أدواتُ النّطقِ فيكَ عـلى
شكرٍ يضاهي الأيادي غـيرِ محدودِ

الذّال :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
أرضى العوامـل إمضاءً وإنفـاذا

تغـايَرَتْ أدواتُ النّطقِ في مِدَحٍ
عادَتْ بها أكبـدُ الأعداءِ أفـلاذا

الرّاء :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
أَفْنَـى أعاديَـه لا زالَ منصورا

تغـايَرَتْ أدواتُ النّطقِ فيكَ عـلى
ما يصنَعُ النّاس منظومـاً ومنثورا

الزّاي :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
قامَتْ معـاذير من في وصفهِ عَجزا

تغـايَرَتْ أدواتُ النّطقِ في مِدَحٍ
ما حال من دونهـا عِيٌّ ولا حَجَزَا

السين :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

أزال أطمـــاعَ باغي شأوِهِ الياسُ

تغـايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عـلى

وصفٍ تَنَوَّعَ في إحسانـهِ الناس[١٤٠]

الشين :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

ساسَ الأنـامَ فما حابَى (١) ولا حاشا

تغـايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عـلى

وصفٍ يواصلـهُ الإنسان ما عـاشا

الصاد :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

غالي الثنـاءِ بما يأتيـه مُرْتَخَصُ

تغـايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عـلى

وصفٍ له فيمَحَلِّ المُشْتَري حِصَصُ

الضاد :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

لا يبلغُ المـدحُ في استحقاقهِ غرَضا

---

(١) في الأصل : حابا .

تغـــايـرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عــلى

مايصنَعُ الناسُ منــدوباً ومُفْتـرَضـَا

الطاء :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

يبغي بأفعالـــــهِ تقوى الإلـــــه فَقَطْ

تغـــايـرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عــلى

ما يصنَعُ الناس منَّا ليس فيه سَقَطْ

الظاء :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضَ أجمَعِهـا

بالحق إذ كـــانَ من يعـــدوك محظوظا

تغـــايـرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عــلى

غُرِّ المَغـَـــاني (١) بلفظٍ ليس ملفوظا

العين :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

غـــــدا الملـــــوكُ له جُنـــــداً وأتباعا

تغـــايـرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عــلى

ما يصنـــــع الناسُ إعرابـاً وإبـــــداعا

---

(١) كذا وردت ، ويبدو أنها المعاني .

الغين :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضَ أجمَعِها
وقلتَ ما لم يَنَلْ مَلِكٌ ولا بلغا

تغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ على
وصفٍ تنافس في إحكامه البُلَغا

الفاء :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
أعطى ، فقال العِدا : قد زاد في الشَرَفِ

تغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ على
صفاتِ ما حُزت من فخرٍ ومن شَرَفِ[141]

القاف :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضَ أجمَعِها
وحزتَ ما جُزْتَ فيه كلَّ مخلوق

تغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ على
وصفٍ صنيعٍ بديعٍ غير ملحوق

الكاف :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
جَلَّتْ مفاخرهُ لما غدا ملكا

تغـــايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ في مِدَحٍ

وفي دعـــاءٍ مَلأْنَ الأرضَ والفلكا

اللام :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

جَلَتْ مفاخرهُ في القَول والعَمَـلِ

تغـــايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عـلى

وصفٍ يُقَصِّر عنـــه منتهى الأمـلِ

الميم :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

غـدا به العــدلُ بين الخلق مقسوما

تغـــايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عـلى

ما يصنَــعُ الناس منثوراً ومنظـوما

النون :

لمَّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ

جَلَّــت مفــاخره في السِّر والعَلَنِ

تغـــايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عـلى

وصفٍ بليـغٍ يُحَلِّي عاطـلَ الزَّمنِ

الهاء :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
ركنُ الأعـــادي بماضي عزمِهِ واهِ

تغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ واتفقت
مــع التغايــر في ذكــرى شهنشاهِ

الواو :

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
يزهى به الخلق فيمــا عاينوا وَرَوَوْا

تغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عــلى
ما يصنَعُ الناسُ فيما أظهَرُوا ونَوَوْا

الياء : [١٤٢]

لمّا غَدَوْتَ مليكَ الأرضِ أفضل مَنْ
غــدا بمعروفِهِ مَيْتَ الرجـا حَيّا

تغايَرَتْ أدواتُ النُّطقِ فيكَ عــلى
منــاقبٍ ليس يخشى نَشْرُهــا طيّا .

فقد جَمَعَ ذلك غايةَ ماتبلغهُ عِدَّة التغيير ، وعَفْوَ ما يقتضيه هذا المَعْزَى من التبيين والتعبير ، وهو ، وإن كان بعضُه يتميَّزُ عن بعض ، فإنَّهُ عاجل اجتهاد المملوك في أداء اللازم الفرض . على أن

هذا الغرضَ المَقْصودَ كثيرُ الشَّعْبِ (١) ، والوصول إليه من العزيز العَسِير الصَّعْبِ فإنْ أتى غير مُعْجِبٍ فلوعورة مَطْلَبِهِ ، وإنْ أبى إلا جودةً فلسَعادةِ من خَدَمِ به .

ومن ضُرُوب التعبير التي دعَت الاستحسان فلبَّاها ، وفَخَرَ بها مُبدعها وباهى ، ما يُنْشَد مرفوعاً ومنصُوباً كقوله :

إذا طـــالَ النَّهـــار عَـلـيَّ يوماً

دعوت لـــــه فقَصَّـره زيـــادُ (٢)

حـــديثٌ يَعْجَبُ الحُكَمَاءُ منـــه

ويُونِقُ حـــين يسمعـــه الفؤادُ (٣)



في ذِكْرِ خيمة الفَرَج

لمَّا خَرَجتْ أوامرُ مولانا ــ ثبَّتَ اللهُ دولته ــ بإنشاء خيمةٍ للنظر ، وعمــلِ فازةٍ تتكفَّلُ بمصالح البدو والحضر ، امتُثِلَتْ مراسِمُه السامِيَةُ في إنشائها [١٤٣] ووقعَت المُسَارَعة إلى ابتهاج تخيلاته واحتذائها ، فجاءت تُوفِي في الجلالة على إيوانِ كسرى ، وظلَّت الأبصار في أرجائهـا الفسيحـة خاسئة حَسْرى ، إذ كانت مناسِبَةً لأمثالها من المنازل الشريفة في الاتساع، ومجانِسَةً لأقطارها من المقامات الكريمة في السُّمُوِّ والارتفاع ، وتَضَمَّنَتْ من صُوَر

(١) الشعب : البعد والبعيد (القاموس) .
(٢ـ٣) ذكر فوقها رواية النصب ، وهي : زيادا ، الفؤادا ..

ناطق الحيوان وصامته ما أحاط بالحسن واستولى على غايته ، تخالها حومة وغى لما اجتمع فيها من المقانب والجيوش،أو بيداء لامحيص عنها لأنواع السباع والوحوش ، قد حوت آفاقها متضادة الحيوان بلا أذى ولا ضير ، فكأنه فيها سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير ، وفي يوم إظهارها ونصبها ، واستقرار جلوسه الأشرف الأسنى بها ، وهب الأموال الجمة ، وعم بالإحسان الأمة ، ونشر الرأفة والرحمة ، وسامح بالكبائر والعظائم ، وصفح عن الجرائر والجرائم ، وأنعم بما لم ينعم به أحد من ملوك الدهر ، [١٤٤] واستخلص الضمائر بالدعاء له في السر والجهر ، فتضوعت بالأرض (١) من الثناء عليه بأعطر أرج ، ووقع الاتفاق على تسميتها بخيمة الفرج ، ووصفها الشعراء وصفاً أجادوه وأحكموه ، وأحسنوا فيما صنعوه منه ونظموه :

فمن ذلك قول ابن الحوّاري :

وبنى للمجد فوق السبعة الأفلاك فازه
لو رأى كسرى سناها صاح إعجاباً بها : زه

ومن تأمل هذا الشعر البديع ، وتدبر هذا التركيب الصنيع ، وجد فيه مالا يأبى استحسانه طبع سامع ، وعلم أنه مما لا يظفر به كل طامع .

وقد استحسنوا هذه اللفظة ــ أعني: زه ــ في قول الأول ــ وهو مما يتغنى به :

---

(١) كذا وردت .

في مثل هذا يَحْسُنُ البلوى ليس على عاشقٍ ذا عَدْوَى

وكــلُّ من أبصرَهُ قال لي زه يافتى تُحسِنُ أن تَهْوَى

فإذا كانت مع ضعفها في الحَشْو مستجادةً مستحسنةً ، فما الظن بها وقد أتَتْ قافيةً قوية متمكّنَةً ؟ وعلةُ فضيلة التقفية أنها أقصَى ما يحصره الوزن ، [١٤٥] وآخر ما يلقاه السَّمْع ، وبهذا احتجَّ مُفضّل المقاطع على المطالع ؛ فإذا كانت القافيةُ مدى الشعر ، ومُنتهَى حَدّه ، وغايةَ ما يبلغه مما لا مطلبَ من بعده ؛ فلا غَرْوَ أن تكونَ مدَحُ مولانا إذا تُؤُمّلَتْ قوافيها مُشْتَمِلةً عـلى الألفاظ التي لا تحسُن في شيءٍ حُسْنَها فيها ؛ إذْ كان آخرَ ملوك الدنيا وقتاً وزماناً ، وإنْ كان أوّلهم شرفاً ومجداً وسلطانا :

تُسبِقوا لنا نَسْقَ الحساب مقــدماً

وأتى ــ فــذلك ــ إذ أتى متأخّرَا

ولهــذا فُضّل البيتُ الــذي يكــون المستحسنُ في آخــر أجزائه ، على البيت الذي يَتَضَمّنُهُ حَشْواً في تضاعيفه وأنحائه . على أنَّ من الحشو مالا تخفَى بَهْجَتُهُ ، ولا تُجْحَدُ فضيلَتُهُ .

حضر المملوك يوماً بين يدي الشيخ الأجــل أبي الحسن بن أبي أسامة فجرى ذكر الحشو في الشعر فأنشدَ لأبي الشيص (١) :

حُلّي عِقال مطِيَّتي ــ لا عن قِلىً ــ

وامضِي فإني ــ يا أميمــةُ ــ ماضِ (٢)

---

(١) هو محمد بن عبد الله بن رزين الخزاعي ابن عم دعبل بن علي الخزاعي .

(٢) البيت في طبقات ابن المعتز : ٧٣ ، ومعه بيت بعده هو :

←

وقال : قوله : لا عن قـلىً ، فضلة لا يفتقر المعنى إليها فلهـذا سُمِّيَتْ حشواً ، وقد جاءَتْ في الحُسْن عـلى ما ترى • [١٤٦]

ولم يكن المملوك تَنَبَّهَ عـلى ذلك من البيـت وإنْ كان من حِفظِه فاعتَدَّهُ من فوائد مجلسِه ، وأضافهُ إلى ما أخَذَهُ عنه من نظائره ؛ وأنشده المملوكُ قولَ ابن حيّوس (١) :

وجـادَ (٢) بنفسٍ لا يجودُ بمثلها
مـع العلم بالعُقْبى نبيٌّ مُقَـرَّب

إذ كان قوله : مـع العِلم بالعُقْبَى ، من أحسن ما جـاء في هذا الباب •

ولم يذكر ما جاء من الحشو : بحاشا ، وما تصرّف منها نحو قول المتنبّي (٣) :

←
اثنان لا تصبو النسـاء إليهمـا
ذو شيبةٍ ومحـالف الانفـاض

(١) ديوانه : ١/٤٠ •
وهو من قصيدة يمدح بها ناصر الدولة ابن حمدان ومطلعها :
لكـم أن تجوروا معـرضين وتغضبـوا
وعادتكـم أن تزهـدوا حين نرغب

(٢) الديوان : وجَدْتَ •

(٣) ديوانه : ٤/٢٩٠ •
والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً ، ومطلع القصيدة :
كفـى بك داءً أن تـرى المـوت شـافيـاً
وحسب المنـايا أن يكُـنَّ أمـانيـا

ويَحتقِرُ (١) الدُّنيا احتقارَ مُجَرِّبٍ

يَرَى كلَّ ما فيهـا ـ وحاشاك ـ فانيا

وقولِ الآخر :

مواهِبُ شَتَّى لو عَدَتني ـ وحُوشِيتَ ـ

كفـاني ما أحرزتـه مُتَسلِّفَا

وقوله :

ولو أنَّ ياجُوجَ استعانوك مُرشِداً

وحُوشِيْتَ من إرشادهم خرقوا [٠٠٠٠٠](٢)

لأن ذلك مما أكثر الناسُ فيه ، فلا لذَّةَ في المحاضرة به .

ومن مليح الحشو قولُ نُصَيب (٣) :

فكِدتُ (٤) ـ ولم أُخْلَقْ من الطَّيْرِ ـ أَنَّني

أُعـارُ جناحَيْ طـائرٍ فأطـيرُ

---

(١) الديوان : وتحتقر .

(٢) كلمة غير مقروءة في الأصل .

(٣) ديوانه : ٩١ . ومعه بيت آخر قبله هو .

أتصبر عـن سعـدى وأنت صبـور

وأنت بحسـن الصبـر منك جـدير

(٤) في الحاشية : (وددت) ويبدو أنها رواية ثانية . والبيت في الديوان :

وكـدت ولـم أخلق من الطير أن بدا

سـنا بارق نحـو الحجـاز أطير

فقوله : ولم أُخْلَقْ من الطـير ، من مستحسَنِ ما أتى من هذا النوع •

وقولُ عوف بن مُحَلِّم لعبد الله بن طاهر (١) : [١٤٧]

إنّ الثمانـــين ـ وبلّغْتَهَـــا ـ

قــد أحوجَتْ سمعي إلى تَرجُمـــان

على أنّ قوله : وبلّغْتَهَا ، معدودٌ في الالتفات عند قوم ، وفيْ التتميم عند آخرين •

وقول ابن المعتزّ (٢) يَصِفُ خيلاً :

صَبَبْنَا عليها ـ ظالمين ـ سِيَاطَنا

فَطارتْ بها أيـدٍ سراعٌ وأرجُـــلُ

فقوله : ظالمين ، من بديع الحشو •

(١) البيت في طبقات ابن المعتز : ١٨٧ ، وهـو مـن قصيدة يخاطب بها عبد الله بن طاهر بن الحسين وقد أذن له بالقفول الى بلده بعد صحبة دامت أكثر من ثلاثين عاماً مع آل الحسين ومطلع القصيدة :

يابن الذي دانت له المشرقان وأُلبِس الأمن به المغربان

إن الثمانين و ••••

والبيت في تاريخ بغداد : ٤٨٦/٩ ، وفي فوات الوفيات : ١٦٤/٣ •

(٢) ديوانه : ٣٦٤/٢ وهو من قصيدة مطلعها :

أهاجـــك ـ أم لا ؟ ـ بالدويرة منزل

يجـــد هبـــوب الـــريح فيـه ويهـزل

وقول مهيار (١) :

وكم ـ ثَمَّ ـ من مُسْترزقٍ حَلَفَتْ له
لُهاكَ ـ وَبَرَّتْ ـ أنَّهُ لا يُخَيَّبُ

فقوله : وبَرَّتْ ، لَفْظَةٌ يتمُّ المعنى دونها إلا أنَّهُ تَبَرَّعَ بها ، فتضاعَفَ المدح بسَبَبِها .

وقوله (٢) :

لَوَ انَّ الورى أهلي لكنْتُ وأنتَ لي
أقومُ بهم مستظهراً وأَمْو [نُ] (٣)

فإحسانه بقوله : مستظهراً ، مما لا يستطيع أحَدٌ جحدَهُ ، ولا يَسُدُّ غيره مَسَدَّه .

وقوله (٤) :

---

(١) ديوانه : ١/١٤٥ .
وهو من قصيدة يمدح بها الوزير عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم ، ومطلعها :

عزفْتُ فما أدري الفتى كيف يرغَبُ
وعفتُ فما أشكو القذى كيف يُشْرَبُ

(٢) ديوانه : ٤/١٦٤ ، وهو من قصيدة كتب بها الى حضرة ناصر الدين أبي القاسم بن مكرم .
(٣) النون ساقطة في الأصل والتكملة من الديوان .
(٤) ديوانه : ١/١٣٢ ، من قصيدة يمدح بها كمال الملك ، ويهنئه بالنيروز ، ومطلعها :

لكِ الغرامُ وللواشي بكِ التَّعَبُ
وكلُّ عَذْلٍ إذا جَدَّ الهَوَى لعِبُ

عِزّي بنفسيْ ولكـــنْ زادني شــرفاً

أني إليكـــمْ إذا باهَلْـــتُ أتتسِبُ

فأبدع بقوله : إذا باهلتُ ، لأنها أفضل ما ورد مع النسب .

وقول ابن أبي الشَّخْباء :

يُصَرِّفُ الأمرَ في الآفـــاق خاتمُهُ

ويصبح الـــدهرُ طوعاً وهو خادِمُه [١٤٨]

فقوله طوعاً ، ممّا تَطَوّع به فأغْرَبَ ، وأتى منه بما أعجَبَ به وأطْرَب . ونظائرُه كثيرة .

ومن مليح ما قيـــل في الخيمةِ المنصورةِ قول ابن زيـــدُ الأنصاري (١) :

أخيمـــةٌ ما نَصبْتَ اليومَ أم فلكُ

ويقظـــةٌ ما نراهُ منك أو (٢) حُلُـمُ

ما كان يخطرُ في الأفكـــار قبلكَ أنْ

تسمو عُلُوّاً على أُفقِ السُّها الخِيَمُ

حتى أتيتَ بهـــا شَمّاءَ شاهقـــةً

في مارنِ الدّهرِ من تيــهٍ بها شَمَمُ

(١) هو حسن بن زيد الأنصاري ، مـــن شعراء الخريدة (قســـم مصر) ٦٨/٢ ـ ٦٩ ، والأبيات جميعها هناك إلا البيت السادس .
(٢) في الخريدة : أم .

إنَّ الدليلَ على تكوينها فلكاً
أَنِ احتوَتكَ وأنت الناسُ كلُّهُمُ

والطيرُ قد لزِمت فيها مواضِعَهَا
لمَّا تحقَّقْنَ منها أنَّهَا حَرَمُ

تغدو القَماريُّ والبازيُّ يحفَظُهَا
كأنَّما بينهم في جَوِّها رَخَمُ

كأنها جَنَّةٌ فالقاطنون بها
لا يستطيل على أعمارهم هَرَمُ

إنْ أنبتَتْ أرضُهَا زهراً فلا عَجَبٌ
وقد هَمَتْ فوقها من كَفِّكَ الدِّيَمُ

وقول الآخر (١) :

عزَّتْ على الشعراءِ مِدْحَةُ خيمةٍ
فوقَ النجوم أساسُهَا أشطان

لمَّا مَثَلْتُ بها ظننتُ بأنَّهَا
دارُ الخلود أباحها رضوانُ

مِمَّا عارَضَ المملوكُ فيه من سبقه ، وبعثه على إيراده رضى من استجادَهُ واستوفقه •

(١) ورد في الحاشية أنه محمد بن حيدرة الحسيني •

قد بالغ الناسُ في استحسان قولِ ابن سورين فيما كَتَبَ به عن الإمام الحاكم بأمر الله عليه السلام الى عامل القدس في إخراب قمامة وهو :

صِرْ إلى قمامة ، فاجْعَلْ طُولها عَرْضاً ، وسماءها أرضاً .
[١٤٩] واتفق للملوك لما سَمِعَ هذا الفصل أن استحسنه ، واستجاده على حَسَبِ ما أمكنه ، فلم يقنع موردُه بما وصفه به وقرّظه ، فاعتمدَ في تكثير المدح ما أثقل السَّمْعَ وبهظه ، فقال المملوك :

لو قال صِرْ إلى قمامة فأزِلْ باطلها ، واجْعَلْ عاليها سافلها .

أو قال : فَعَفِّها بالمَحْوِ والطَّمس واجْعَلها حَصيداً لم تَغْنَ بالأمْسِ ، لكان أشرف لترصيعِه اللفظَ بالقرآن ، وترتيبِ المعنى في أعلى طبقاتِ البيان .

فقال راوي فَصْل ابن سورين : فَضيلةُ هذا الفصلِ قِلَّةُ حُروفِه ، وفرطُ إيجازِه ، وإنَّ من تحدّي به عَلِمَ حقيقة تعذّرِه وإعجازه .

فقال المملوك : أنا أذْكُرُ هذا المعنى بلفظٍ أصنَعَ(١) وأقْصَرَ ، ومعنىً أجْمَعَ وأحْصَرَ ، فَطُولِبَ أنْ يُوَفّي الضمان ، وقيل له : من تَقَضّ مان ، فقال مالا موضع فيه لحذفٍ ولا سبيل إلى تحقيقِه بحركةٍ ولا حَرْفٍ ، مع استيفاءِ المعنَى ، وأنَّ أحداً لا يجد فيه طعناً . وهو :

---

(١) في الأصل : اصنع .

صِرْ إلى قُمامة ، فَعَجَّل لها القيامة . [١٥٠]

فَفُضِّل هذا الفصلُ على الأول أضعافاً ، وبُولِغ في وصفِهِ إلى أنْ تفادى المملوكُ وتعافى ؛ وعِلَّةُ ذلك أن هذه الأيام الشريفة التي فَخَرَتْ بمالكها على غيرها من العُصُور ، وخرجَتْ فَضَائلُها عن المَحدود المَحْصُور، قدفاضَتْ أنوارها على كُلِّ عَالمٍ ومُتَعَلِّمٍ ، وسَرَى شعاعُ سَعْدها إلى كلِّ ناطقٍ ومتكلِّم ، ولمَّا اتَّفَق كونُ هذا الفصل في التعفية على مُتَعَبَّدِ أهل الشرك ، وتدمير ما يصنعونَه فيه من الضَّلال والإفك ؛ اختصَرَهُ مملوكُ مولانا كما اختصرت مَشْرَفِيَّهُ أعمارَهُم وآجالَهُم ، وضَيَّق فيه على مقتنفيه كما ضيقَتْ هيبَتُهُ منفسحَهُمْ ومجالَهُم ، عملاً بالتهذيبات المالكية [على ما اقتضتهُ الشيمة الفاضلة] (١) ، وتأدباً بالتثقيفات الأفضلية بحسب ما وصلَتْ إليه آلتهُ القابلة ، واللهُ يمدُّ ظلَّها فهو أفضل موجبات هذه الدنيا وأسباب وجودها ، ومُوزِعُ الكافَّة شُكْرَ النعمَةِ فيما غمرهم من كرمها الفائضِ وجُودها ، بفضلِهِ وقدرتهِ وطَولهِ ومشيئته .

فَصْــلٌ

من نادر ما جاء في بابه
وأقوى دليل على إبداع قائله وإغرابه

قال أبو عبـــد الله التميمي اللغـــوي المعروف بالقَزَّاز(٢)

---

(١) الزيادة في حاشية النسخة .

(٢) هو محمد بن جعفر النحوي اللغوي المعروف بالقزاز القيرواني ، كان في خدمة ابن المعز العُبيدي صاحب مصر ، وصنف له كتباً (انظر وفيات الأعيان : ٤/٣٧٤) .

لبعض تلاميذه :

أحاجيك عيـــاد" كزينـــب في الورى

ولـــم تئوتَ إلا من صديقٍ وصاحب

فأجابه :

سأكتـــم حتى ما تحِسُّ مـــدامعي

بما انهَّل منها من دموعي السَّواكب

فكان تصحيف : عياد كزينب ، بعد عكسِه : سرُّك ذائع ، وقال الآخر : سأكتمُ ، فأجاب على الظاهر إجابةً حَسَنةً ، وتصحيف : سأكتمُ ، بعد عكسِه : منك أُتيت ، وفيه مقابلة لقوله :

ولم تئوتَ إلا من صَديقٍ وصَاحبِ

والمملوك يقول : معجز هذه الحكاية أنَّ المجيب ذَكَرَ كلمةً كلٌّ من مستقيمها وتصحيفِ معكوسِهَا جواب" لما حُوجي به •

وتسمية هذا النوع المُحَاجَاة لدلالة الحِجى عليه •

وعلى ذكر التصحيف فمن بديعِه : تَصَحَت فضيَّعت ، وهو تصحيف صعب • وقولهم فيما يُصَحَّفُ بعد عكسه : أُذْناه جرح يسيل •

وهذا : ليس يحرجه أبداً • [١٥٢]

فصـــــول

تَشْتمل على ضُروبٍ أبدَعَ البُلَغاءُ فيها وأحْسَنوا .
وتَنَوَّعوا في أصْنَافِها وتفنَّنُوا
في خُدَعِ البيان وتَمْويه الفصاحة

حكى حسن بن محمد البَسَّامي قال : رأيتُ علي بن با منصور الديلمي (١) ، وكان من مفاخر الديار ، وله شعرٌ يدلُّ على غَزارةِ أدبهِ ، وحُسْنِ طريقتهِ في النظم ومَذْهبهِ كقوله :

ترى في ابيضاض الكأسِ حُمْرةَ خَدِّه
فَتَحسبُها مَلأى ولا شَيءَ في الكأسِ

قال البَسَّامي : وكانت رؤيتي إياه بحِمْصَ جالساً على بعض الدكاكين ، وكان أَعْوَرَ ، فاستثقلْتُ شخصَهُ ، وقيل لي : إنه شاعرٌ فأردتُ العبثَ به فقلتُ : أيها الشاعر ، عمِلْتَ في عَوَرِكَ هذا شيئاً ؟ ، وانتظرت أنْ ينقطعَ ويخجلَ ، فقال : نعم ، وأنشدني :

لستُ آسَى لفقـــدِ إنسان عيـــني
وجميـــعُ الجمـــالِ في مُعْتَاضهِ

---

(١) في وفيات الأعيان : ٣/٢٤٧ : علي بن منصور الديلمي أبو الحسن ، أو أبو منصور الديلمي ، وكان أبوه من جند سيف الدولة بن حمدان ، وكان شاعراً مجيداً خليعاً .

وحبيـــبي من مُقْلتي أخـــــذ الخا

ل وأعطـــــى سوادَها منَ بياضـــه

فاقْشعَرَّ بَدَني منـهُ ، وعلمتُ أنَّهُ من الصيد الـــذي لا يحِلُّ أكلُهُ !

وحُكي عنه أنه تعشَّق صبياً أعورَ فقال فيه : [١٥٣]

له عينٌ أصابَتْ كلَّ عينٍ وعينٌ قد أصابَتْها العيونُ (١)

قال بعضُ الفُضَلاء : أظنُّهُ قال هذا الشِّعرَ لمَّا اعْتَنَّ معناه في نفسهِ ، ثم طلَبَ أعورَ يَعشقهُ ليجعَلَهُ مَعرِضاً لقولهِ ، فقد هوَّن بفصاحتهِ المستكرهَ ، وحَسَّن ببلاغته المستقبَح •

ومن أحسن ما جاء في ذلك ما ذكرَهُ التميمي في سيرة الحَجَّاج من أنَّ عبد الملك بنَ مروان أمر بعمل بابٍ في بيت المقدس يُكْتَبُ عليه اسمُه ، فسأله • الحَجَّاج أنْ يأذنَ له في عَمَل باب أيضاً ، فأذن له ، واتَّفَق أنْ وقَعَتْ صاعقةٌ احترَقَ فيها بابُ عبد الملك ، وسلـــم بـــاب الحجـــاج ، فعظـــم ذلك عـلى عبـد الملك فكتبَ الحجاجُ إليه : بلغني أنَّ ناراً نزلَتْ من السَّماء فأحرقَتْ بابَ أمير المؤمنين ، ولم تحرق بابَ الحجاج ، وما مَثَلُنا في ذلك إلا كمَثَلِ ابنَيْ آدم إذْ قرَّبا قرْباناً فتُقُبِّل من أحـدهما ولم يُتَقَبَّلْ من الآخر ! فَسُرِّي عنه لمَّا وقَفَ على الكتاب •

وكان طاهرُ بن الحسين وهو في قتالِ المخلوع [١٥٤] قد جعَلَ دراهمَ للصَّدقة في كُمِّهِ ، ونَسِيَها ، فأسْبَلَهُ ، فتبدَّدت الدراهم

(١) البيت في وفيات الأعيان : ٣/٢٤٧ •

ـ وهو لا يعلم ـ فلمّا ذكرها تَطَيَّر من ذلك ، فأنشده أحدُ الشعراء :

هـذا تَبَدُّدُ جمعِهم لا غيرُهُ
وذهابُها عنكم ذهابَ الغَمِّ

شيءٌ يكون الهَمُّ نصفَ (١) حروفِهِ
لا خَيْرَ في إمساكهِ في الكُمِّ !

وذكَرَ المملوكُ بالبيت الثاني قولَ محمد بن أبي سعيد ؛ أحد المحدثين :

ألا رُبَّ شيءٍ فيه من أَحْرُفِ اسمِهِ
نواهٍ لنا عنهُ وزجرٌ وإنذارُ

فتُبِنّا بدينارٍ وهِمْنا بدرهمٍ
وآخِرُ ذا هَمٌّ ، وآخِرُ ذا نارُ

وكان خالد بن يزيدَ بنِ مزْيَد تَقَلَّد المَوْصِلَ في أيام المأمون ، فلمّا دَخَلها مَرَّ بأول دَرْبٍ منها اندَقَّ اللّواء ، فاغْتَمَّ لذلك ، وعَظُم عليه ، فقال مروان بن محمد المعروف بأبي الشمقمق بديهاً (١) :

---

(١) في الأصل : نصفُ .

القصة والأبيات في طبقات ابن المعتز : ١٢٩ ، ورواية الأبيات هناك :

ما كان مُنْدَقُّ اللـــواءِ لريبةٍ
تُخْشَى ، ولا صرفٍ يكون مُعَجَّــلا

لكنَّ هـــذا الرمـحَ ضَعَّفَ متنَهُ
صِغَرُ الولايـة فاستَقَلَّ المَوْصِلا !

فكتَبَ صاحبُ البريـد بخبرِه إلى المأمون ، فزادَهُ المأمون ديار ربيعة ؛ وكتَبَ إليه : هذا لتضعيف المَوْصِل مَتْنَ لوائك ، فأعْطَى خالـد أبا الشمقمَقِ عَشْرة آلافٍ منهـم وشخَصَ إلى ديار ربيعة . [١٥٥]

فقوةُ البَراعَة حكمَتْ بالاقتدار على مَدْح ما عادَتُه أنْ يُذَمَّ . وجودَةُ العبـارة ختمَتْ باستحسان ذمِّ ما عادتُه أنْ يُمْدَح ، كما قال عبد الله بن التوأم يذُمُّ النخلةَ التي طاب جناها ، وزاد نفعُهَا وتناهَى : إنها صَعْبَةُ المُرْتقى ، مَهُولة المُجْتَنَى ، بعيدة المَهْوى ، حسنة المس ، قليلة الظل .

وكما حُكِيَ عن سَهْل بن هرون من أنه عـدَل كتاباً يمـدح فيه البخلَ ، ويَذُمُّ الجود ، لِـيُرِيَ بلاغَتَهُ ، وطولَ لسانِه ،

←

مـاكـان مُنـدَقَّ اللـواءِ لـريبةٍ
تُخشَى ولا سـببٍ يكـون مُـزَيَّلا

لكـن رأى صـغر الـولاية فانثنى
مُتَقَصِّدًا لمـا استقـلَّ المـوصـلا

وأهداه إلى الحسن بن سهل (١) • إلا أن الحسنَ وَقّعَ عليه : لقد مَدَحْتَ ما ذمّهُ الله ، وحَسَّنْتَ ما قَبَّحهُ الله ، وما يقوم صلاحُ لفظِكَ بفساد معناك ، وقد جَعَلْنَا ثوابك عليه قبول قولك فيه • ولم يعطِه شيئاً •

وقد اعتمد جماعة من البُلَغاء مَدْحَ الشيءِ وذمّهُ إظهاراً لاقتدارهم ، وإبانةً عن مَحَلّهم ومقدارِهم ، وعملاً بقول القائل :

ما من شيءٍ إلا ولَهُ وَجْهان؛ فالمادحُ يذكرُ أَحْسَنَهُما ، والذامّ يذكرُ أَقْبَحَهُمَا • [١٥٦]

وقد رُوِيَ عن عيسى ــ عليه السَّلامُ ــ أنه مَرَّ هو وأصْحابه على كلبٍ مَيِّتٍ فقال بعضهم : ما أَنْتَنَ ريحَهُ ، فقال عيسَى ــ عليه السلام ــ : ما أشَدَّ بياض أسنانِهِ • فسَلّم لعائبه ما ادّعاهُ من مَسَاوئه ، وذكَرَ من محاسنِه ما لم يُنَازِعْهُ فيه •

والمملوك يقول : إنّ من أبدعِ الكلام قولَ الحكيم: لا عِشْتُ ليومٍ أمدَحُ فيه ما ذممتُهُ ، ولا أَذُمّ فيه ما مَدَحْتُهُ ؛ ذلك يومُ ظَفَرِ الهَوى بالرأي •

---

(١) في البخلاء للجاحظ : ٩ ، رسالة لسهل بن هارون في الاحتجاج للبخل ، ولكنه كتبها لمحمد بن زياد والي بني عمه من آل زياد ، ولكن المحقق ذكر أن النصوص في ذلك مضطربة ، وأن ابن النديم ذكر أنها كُتبت للحسن بن سهل ، وقد رجح المحقق أن تكون هذه الرسالة واحدة أخرى غير التي جاءت في البخلاء (انظر البخلاء : ٢٧٠) •

ومما يُلْحَقُ بهـذا الباب

أنْ يأتي ذمٌّ لا تكون المبالغة فيه إلا باللفظ الذي يكون مدحاً لغيره ، كقوله :

شاهين موسى وإنْ أَرْضَتْكَ عِفَّتُهُ
أبَرُّ منـه وأتْقَى بـازُ عِمـرَانِ

وبـازُ مالانَ لا تنجـو طريدتُهُ
ولـو أتَتْ بأمـانٍ من سليمـانِ

فالعِفَّةُ والتُّقَى مبالغَةٌ في ذمِّ الجوارح ، وهما من أفضل ما يُمْدَحُ به غيرُها .

في تناوب الأعضاء

وهو مما يدلُّ على تجويد الشاعر وقوَّةِ تَصَرُّفِهِ ، [١٥٧] ومَضاءِ خاطرِهِ وقلَّةِ تَوَقُّفِهِ ، ومن أحسن ما جاءَ في ذلك قولُ أبي الطَّيب (١) :

وجَحْفَـلٍ (٢) سَتَرَ العيونَ غُبَارُهُ
فكأنَّمـا يُبْصِـرْنَ بالآذان

---

(١) ديوانه : ٤/١٧٦ .

من قصيدته المشهورة في مدح سيف الدولة :

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أولٌ وهي المحل الثاني

(٢) في الديوان : في جحفلٍ .

وقوله (١) :

كأنَّ الهـــامَ في الهَيْجَا عيـــونٌ
وقـــد طُبِعَتْ سُيُوفُكَ من رُقَادِ

وحكى ابن رشيقٍ قال: جلستُ يوماً إلى ابن حديدة الشاعر وأنا سكرانُ ، فسألني عن حال المكان الذي خرجتُ منه ، فوَصفْتُهُ ، وأفْضَى بي الحديثُ إلى ذكر غـــلامٍ كان ساقياً ، فقلـــتُ في درجِ الكلام (٢) :

فشربتهـا من راحَتَيْـ ـهِ كأنها من جَنَّتَيْهِ

وقلت : أَجِزْ ، فقال :

وشَمَمْتُ وردَةَ خَـــدِّهِ نظراً ونَرْجسَ مُقْلَتَيْهِ

فقلتُ : أحسَنْتَ ، وجَوَّدتَ شَمَّكَ بالنظـــر ، كسماعِ أبي الطيب بالبصرِ حيث يقول (٣) :

---

(١) ديوانه : ١/٣٦٠ ، من قصيدة يمدح بها علي بن ابراهيم التنوخي . وأولهـــا :

أُحادٌ أم سداسٌ في أُحـــادِ لُيَيْلَتُنَا المنوطَةُ بالتَّنادِ

(٢) القصة والشعر في ديوان ابن رشيق : ٢٢٥ ، وفي بدائع البدائه : ١٢٠ ، ويرد اسم ابن حديدة : أبا حديدة ، ولعله أبو العباس بن حديدة القيرواني الذي أورد له ابن ظافر الأزدي شعراً في بدائعه ، انظر : ١٢٦

(٣) ديوانه : ١/١٦٨ ، من قصيدة يمدح بها أبا الفضل محمد بن العميد. مطلعها :

بادِ هـــواك صَبَرْتَ أم لـــم تصبرا
وبُكَاك إن لـــم يَجْرِ دَمْعُكَ أو جَرَى

خلفَتْ صفاتُكَ في العيونِ كَلامَهُ

كالخط يملأ ِمسْمَعَيْ من أَبْصَرا

وهذا – وإنْ لم يكن من هذا الباب من كلٍّ جهة – فهو من أولَى ما أُورِد معه .

وكذلك قولُ مهيار (١) :

خانَ بكاءُ العَيْنِ أجفانَهُ

فَنَاحَ ، والنَّوحُ بكاءُ الفَمِ [١٥٨]

لأنَّ النَّوحَ والبكاءَ ليسا عضوين :

ولابن رشيق في جوابِ كتاب (٢) :

أَسمعْتَ عيني ما اشتَهَتْ   بلسان هاتيك اليَرَاعَةْ

وقولُ الشريف الرَّضِي (٣) :

عَزَّني أنْ أرى الدِّيارَ بعيني (٤)

فلَعَلِّي أرى الديارَ بِسَمْعي

---

(١) ديوانه : ٤/٣١٣ ، وهو من قصيدة يمدح بها عميد الرؤساء أبا طالب ابن أيوب ، ويهنئه بالمهرجان ، ومطلعها :

عمي صباحاً بعدنا واسلمي   يادار صفراء على الأنعم

(٢) لم نجد البيت في ديوانه .

(٣) ديوانه ١/٦٥٨ ، من قصيدة قالها عند دخول الحجيج الى مدينة السلام ، وأولها :
عارضاً لي ركب الحجاز أسائلـ   ـه : متى عهده بسكان سلع ؟

(٤) في الديوان : فاتني أن أرى الديار بطرفي

وكان المملوك يوماً مع صديق له وهما سائران في الطريق ، فلقيهما ضرير ، فلمّا سَمِعَ وَقْعَ حوافر الدّوابّ ، جَعَلَ يتوقّفُ ويتحسّسُ ، وأخذ يتنصّتُ ويتجسّسُ ، فقال المملوك لرفيقه : تأمّلْ هذا الضّرير كيف يَتَبَصَّرُ بسَمْعِهِ ولم يكُنْ شيء من هذا الباب حينئذ على ذكره ، فاستجادَ العبارة ، واستَحْسَنَ الاستعارة .

ولأبي الطّيب (١) :

خيرُ أعضائنا الرؤوسُ ولكن فَضَلَتْهَا لقصدِكَ الأقدامُ

والحسنِ بنِ عبد الصمد :

تُعطي وسمْعك بالملام مشنّفُ

فكأنّ راحتَكَ الكريمةَ تَسْمَعُ

ولابن حَيُّوس (٢) :

قوافٍ هي الخمر الحَلالُ وكأسُهَا

لساني ولكن بالمسامع تُشْرَبُ [١٥٩]

(١) ديوانه : ٤/٩٩ ، وهو من قصيدة يمدح بها علي بن أحمد المري الخراساني ، ومطلعها :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضَامُ مُدْرِكٍ أو محاربٍ لا ينامُ

(٢) ديوانه : ١/٤١ ، وهو من قصيدة يمدح بها ناصر الدولة ابن حمدان ، ومطلعها :

لكم أن تجوروا مُعرضين وتغضبوا

وعادتكم أن تَزْهدوا حين نَرْغَبُ

وقد أجادَ ابن القـُمـّي وزاد بقوله :

ولي سَنَة" لـم أدرِ ما سِنَةُ الكرَى
كأنّ جفوني مَسْمعي والكرى العَذْلُ

ونظائره كثيرة •

قد قـَدّمَ المملوك في صَدْر هـذا الجزء اعتـذارَهُ في ذكر القليل وإيرادِهِ ، واحتجاجَهُ عـلى تَوَخّي اليسير واعتمادِهِ ، لما خَصّ به المقامَ الأعظم ــ ثَبّتَ اللهُ سلطانَهُ ــ من المهابة التي تحجز عن الإطالة ، وتمنـع من دواعي السآمة والملالة ، ولولا ذلك لتوسَّعَ فيما يجمَعُهُ ، واستكثر مما يصنعُهُ ، تَقَرُّباً إلى مالكِهِ باجتهاده ، وحرصاً على تَطَلّب الحظّ وارتياده ، والله تعالى يقضي له بارتضاء خِدَمِهِ وإن كانت مختَصَرَةً لطيفة ، ويجعـلُ السّعودَ ــ أبداً ــ مُحْدِقَةٍ بمجلِسِ مالكِهِ مطيفةً ، ويوزِعُهُ شُكْرَ النعمة فيما نالَهُ من إحسانِه وشَمِلَهُ ، ويبلّغُهُ في الخدمةِ الشريفة بغيَتَهُ ورجاءَهُ وأمَلَهُ ، بمنّه وطَوله وقدرته وحوله إنْ شاء الله عز وجل • [١٦٠]

(٥)

رِسَالةُ مُنَاجَاةِ شَهْرِ رَمَضَانَ



مُناجاة شَهْر رَمَضان (١)

أيامُ المواسم مُكَرَّمَة" مُفَضَّلَة" ، وأوقاتها مرفوعة" أعمالُها مُتَقَبَّلة" ، بدليل فضل شهر رمضان عند منْ عَلِمهُ وعرفَهُ ، وحصولِ الإجماع على ما شَرَّفَ الله تعالى به يوم عرَفة ؛ فالصائمُ إذا نادى لَبَّاهُ اللهُ ــ سبحانه ــ وأجابَهُ ، والمؤمنُ إذا ناجَى حرَّمَ اللهُ رَدَّهُ ومنع حجابَهُ ، لأنه كتَبَ على نفسه قبولَ ما كانَ له ــ جلَّ وعلا ــ فيه رضى ، وجعلَ فاعِلَ ذلك لا يخاف مخالفاً فيه ولا معترِضاً .

ولمَّا أهَلَّ شهرُ رمضان على المقام العالي المالكي السيديِّ الأجلي الأفضلي الجيوشيِّ ، سيف الإسلام ، ناصرِ الإمام ، كافلِ قضاة المسلمين ، وهادي دعاة المؤمنين ، عضد الله به الدين ، وأمتع بطول بقائه أميرَ المؤمنين ، وأدام الله قدرتَهُ ، وأعلى كلمتَهُ ، مؤذناً باتساع قدرةٍ تخدمها الأفلاك ، ومُبَشِّراً بانفساح مُدَّةٍ تخضع لها الأملاك ، وكانت الحضرَةُ العالية المالكة ــ ثبَّتَ الله دولتها ، ونَصَرَ ألويتها ــ مخصوصةً بالتوَفُّرِ [١٦١] على الخير والبر ، حَرِيصة على الطاعات في الجهر والسِّر ، متحقِّقَةً أنها الأفعالَ

---

(١) في الحاشية : (سنة تسع وخمس مئة) وهو فيما يبدو تاريخ كتابة الرسالة .

التي يُتَقَرَّبُ بها إلى الله تعالى ويُتَوَصَّلُ ، والذرائع التي يُتَحَرَّمُ بها عنده ويُتَوسَّلُ ، والدَّواعي إلى الثواب الجزيـــل في العاجلة والعُقْبى ، والمساعي التي من لزمها كان الله حِزْباً وللشيطان حَرْباً ، وقد عَلِمَتْ ــ خلَّد اللهُ مُلكها ، وأدام في أعداء الدين فتكَها ــ أنَّ المجتهدين في الأدعية اثنان : إمَّا سالكٌ في ابتهاله مسلكَ الطالب الرَّاغب ، أو مُعَدِّدٌ في مُنَاجاته ما لله عنده من المنائح والمواهب ، ولا خلافَ أنَّ من عَدَّد الإنعامَ أفضلُ ممَّن طلبَهُ ، ومن اعترفَ بالإحسان أشرفُ ممَّن رامَهُ وخطَبَهُ ، وأنه لا حُجَّة لها على الله ــ عزَّ وجَلَّ ــ لأنه استخلَفَها عــلى البسيطَة لما كانَتْ أفضلَ الخلق ، وارتضاها لتدبير الخليقة لما هي عليه من العَمل بالعدل ، والحُكْم بالحق ، وانتضاها مُحَامِيةً عن دينه الحنيف وتوحيده ، وشَرَّف اعترافها عن عدول الجاحد ومَحيده ، فأولى ما ناجَتْهُ به وصفُ نعمــه التي لا تُحْصَى بعَدَدٍ ، وشرحُ مِنَحِه التي يلزَمُها ذكرها دون [١٦٢] كلِّ أحد ، لأنها محظورةٌ على كافَّة أهل الأرض ، والناطقين فيها ، ومُحَرَّمَةٌ أنْ يتفَوَّه بها بشرٌ إلا أنْ يكونَ إيرادُهَا من شريف فيها . فلذلك خَدَم المملوك بهذه المناجاة التي عَظُم بها القَدْرُ عند الله تعالى والجاه ، وجعلها مشتمِلَةً على تَعْديد النِّعمة ، واستمطار الكرم والرحمة ، واللهُ تعالى يمدُّ عليه ظل مالكه ، ويُنْهضُه بخدمته ، ويُديمُ على الدنيا والدين عزَّ سُلطَانه ، وبَهْجَةَ دولتــه ، بِفَضْله ، وطولِه ، وحولِه ، وقُدْرَته .

وهذا ابتداء المناجاة

ربِّ ! قد آتيتَني من الملك .

اللهم إنك قد فَضَّلتني عـلى بَرِيَّتِـكَ ، ونصبتَني لتدبير خليقتك ، وارتَضَيْتَني محامياً عن كلمة توحيدك ، وعرّضتني بذلك لمُضَاعفتك النعمةَ عندي ومزيدك ، وخَصَصْتَني بما لم يَنَلْهُ ملِك في قديم الإسلام ولا حديثه ، وجعلتني ممن يَتَّفِقُ كلُّ ناطقٍ في وصفه ــ جلّ قولُه ــ وحديثه ، وعصمتني أنْ أجْحَدَ نِعَمَكَ [١٦٣] وأكفرَهَا ، وألْهَمْتَني أنْ أهَبَ الجرائم وأغفِرَهَا ، ما لم يكُنْ ذلك حائلاً عن إقامة الحدود ، أو حاجزاً عن الانتقام من أهل الشقاق والمرُود .

اللّهُمَّ إنك قـد حفِظْتَ بي من الـدين القَيِّم ما أضاعَهُ مُلُوكُ الوَقْتِ ، وجعلْتَ ذلك قاضياً لي بالمَحَبَّة وحاكماً عليهم بالمَقْتِ ، وحَبَوْتَني من الكافّة بصفاءِ الضمائر وخلُوصِها ، وساوَيْتَ بين سرائرهم في عُموم مشايعتي وخُصُوصها .

اللّهُمَّ إنه قد أشْرَفَ هذا الشَّهرُ الشريف الذي فَضَّلْتَهُ على جميع الشهور ، ومَيَّزْتَهُ في مُتَقَادَمِ الأزْمِنَةِ والدهور ، وعَظّمتَهُ بما أنْزَلْتَهُ في ذكرِهِ وَوَصْفِهِ ؛ فقلتَ في كتابك الـذي لا يأتيه الباطـلُ من بين يديه ولا من خَلْفِهِ : « شَهْرُ رَمَضَانَ الذي أُنْزِلَ فيهِ القرآنُ هدًى للنَّاسِ وبَيِّنَاتٍ من الهُدَى والفُرقان »(١) .

وجعلتَ فيه ليلة القَدْر التي لم تَزَلْ أعمالُ مَنْ أحياها إليك صاعِـدة ، والمخصوصَة بنزول القرآن إلى سماءِ الـدُّنيا فيها جملةً واحدةً .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥

اللهم [١٦٤] فأعِنّي على صيامِهِ وقُنُوتِه ، وأَنْهِضْني بما يَجِبُ له في أحيانِ ذلك ومَوَاقيتِه ، ووفِّقْني لما يرضيك من عَمَلِ نهارِهِ وليلِهِ ، وأَذْهِبْ عني رِجْزَ الشَّيطان الذي يجلبُ على المؤمنِ بِرَجْلِهِ وخيلِهِ ، واجعل نَصيبي من ثَوَابِهِ كمنزلتي من اصطفائك ، وحَظِّي من أجرِهِ أجزلَ حَظٍّ مَنَنْتَ به على عَبيدك وأوليائك .

اللَّهُمَّ إنك أعلمُ بمصالحي منّي ، وإنَّ أَيْسَرَ جزءٍ من إحسانك يتجاوزُ غاية التَّمَنّي ، فبِحُرْمَةِ ما تعلَمُهُ من باطني وسَريرتي ، وما تَطَّلِعُ عليه من صِحَّةِ عقيدتي وطهارة نِيَّتي ، وما ألهَمْتَني إياه من بَثِّ العَدْل في الرعية ، والعَمَل بمرضاتك في هذه البَرِيَّة ، إلا مَدَدْتَ في عُمْري وأَصْحَبْتني التأييدَ في جَميع أمري ، وجَمَعْتَ لي الحُسْنَيَيْنِ في القولِ والعَمَل ، وبَلَّغْتَني في طاعتك غاية المطلوبِ والأَمَل .

اللَّهُمَّ واقْضِ لي أنْ يكونَ هذا الشرعُ الشريفُ محروسَ النظام بي ، واجْعَلْ حمايتَهُ في عَقِبي كما كانت من قَبْلُ من أبي . [١٦٥]

اللَّهُمَّ وامْدُدْني من الحُظُوظ الملكوتيَّة والسُّعودِ اللاهوتيَّةِ بما أَمْدَدْتَ به أنبياءَكَ الذين حَكَمْتَ بعزَّتِهِم ، وحَتَمْتَ بقُوَّتِهِم ، وقضيتَ بانتشارِ دَعْوتهم ، وتأذَّنْتَ بظُهُورهم وإعلاءِ كلمتهم .

اللَّهُمَّ وألِنْ في طاعتي القلوبَ القاسية ، ومَكِّنْ قواعِدَ

مملكتي لتكونَ راسخةً راسية ، واجْعَلْ الألسنةَ بصالح الأدعية لي لا غافلةً ولا ناسية .

اللَّهُمَّ وأعِنِّي علـى ما استَرْعَيْتني ووَفِّقْني فيما استَصْلَحْتَني له وارْتَضَيْتَني ، وأيِّدني برُوحٍ منك لتصلحَ شؤوني ، ويَصحَّ تدبيري ، وأرشدني إلى ما يَحْظَى لديك عند مآلي إليك ومصيري ، يا مَنْ لا يَرُدُّ من أخْلَصَ في دعائِه ، ولا يحرمُ من وَثِقَ بعَطَائه ، ولا يُخَيِّب منْ استمسَكَ بالعُروة الوُثقى من تأميله ورجائه . إنَّك اللَّطيف الخَبير، وأنت على كلِّ شيءٍ قدير.

« وآخر دعواهم أنِ الحمد لله رب العالمين » (١) وصَلَّى الله على سَيِّد المرسلينَ ، محمدٍ خاتَمِ النبيين وعلى آله الطاهرين وسَلَّم تسليماً ، « وقالوا : حسبُنَا الله ونعم الوكيل » (٢) . [١٦٦]

(١) سورة يونس : ١٠ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٣ .



(٦)

رسالة عقائل الفضائل



رسالة سمّاها
عقائل الفضائل

أفضلُ الكلام أصدقُه وأنفعُه، وأشرفُ البيانِ أسبقُه إلى الفهم وأسرعُه؛ ولقد حُكيَ عن المأمون أنّه قال: أُريتُ في المنام رجلاً على الهيئة التي يُوصفُ الحكماءُ بها، خُيِّلَ إليَّ أنّه أرسطاليس، فتقدَّمتُ إليه، وسلَّمتُ عليه، وقلتُ له: أيّها الحكيمُ. ما خير الكلام؟ فقال: ما يستقيم في الرأي، قلت: ثم ماذا؟ فقال: ما يدُلُّ قليلُه على كثيرِه، قلت: ثم ماذا؟ فقال: مالا تُخشَى عاقبتُه، قلت: ثم ماذا؟ فقال: لا ثمَّ!

فإذا كان غاية الوصف الذي ختَم به مقالَه أنْ يكون المتكلِّمُ كفافاً لا عليه ولا له، فالكلام الذي يُوجب أجراً أوفى رُتبةً وأعلى، والمقالُ الذي يُذْهِبُ وِزْراً أسنى قيمةً وأغلى، وذلك لا يوجد إلا في تعظيمِ الله وحمدِه، ومُواصلةِ شكرِه الذي به استنجازُ وعدِه. والصلاةُ على سيِّدِ المُرْسَلين محمدٍ نبيِّه وعبدِه، وعلى أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ، أوّلِ من آمن به وتمسَّك بعهده، وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتِه، العاملِ كلٌّ منهم في سياسة الأمة بغاية [١٦٧] جُهدِه، ثم الثناءُ على كلِّ ملكٍ وقعَ الاتفاقُ على فضلِه، وتساوَتْ رعاياه في إنصافِه وعدلِه، وحاز الشكرَ بلسانِ الإجماع، وألقت شيمتُه التنافسَ بين الأبصار والأسماع.

ولمّا كان مولانا الملكُ أفضلَ ملوك هذه الدّار ، وأعدلَ من أُعينَ بمساعدة الأقدار ، وأشرفَ من خَدَمَهُ التوفيقُ في الإيراد والإصدار ، ومن أَبَى في أحكَامِ الأمّةِ سوى مساواتها ، ومَلَكَ القلوبَ فكان أحقّ بها من سُوَيداواتها ، وأولَى من النّعَمِ ما أوفى على السّؤْل والأرب ، وبَنَى للعَجَم من الشّرفِ مثلَ ما بناهُ رسولُ الله للعرب ، ولم يَرْضَ عند الله تعالى بدون المنزلة العظمى والدرجة العليا ، فاشترَى الدارَ الآخرةَ بحُسْنِ سيرتهِ وأفعاله في هذه الدار الدنيا •

كان أوفى ما استعمَلهُ الناطقُ ، وأولى ما استكثر من الإخبار به الصادقُ ، أنْ يُوردَ من خصائصه وصفاتهِ ، ويذكُرَ من أفعالهِ وحسناتهِ ما يَتَوَخَّى فيه قولَ الحق والصوابِ ، وينالَ به عند اللهِ [١٦٨] جزيلَ الأجر والثواب • وحين عزَمَ المملوك على ذلك رأى أنّ الكلامَ يَشْرُفُ بمَنْ يُنْسَبُ إليه ويُعْزَى، وجلالَةُ الموصوفِ تُكْسِبُ الواصِفَ افتخاراً وعِزّاً ، وقد قيل : إنّ القولَ يُعَظّمه قائلُه ، ولو قَلّت عقائلُه ، فكيف إذا جَمَعَ المَعْنَيَيْنِ ، ولم يَكْتَفِ بإحدى الحُسْنَيَيْنِ ؟! وقد وُصِفَ مولانا الملكُ من الأئمة الخلفاءِ ــ صلواتُ الله عليهم ــ بمالا يحصيهِ عددٌ ، ونالَ من ذلك ما لَمْ يَنَلْهُ قبلَهُ أحدٌ • والمملوكُ يقتصر من هذا الباب على فُصُولٍ من جملةِ ما أنشأهُ عن الحَضْرة الطاهِرة الآمريّةِ ــ صلّى الله عليها ــ مما ثَبَتَ في السّجلات . وصَدَر إلى الأعمالِ والجهات ، فَتَوّجَ فروقَ المَنابر ، وبَيّنَ عن الشرفِ الذي ورِثَهُ مولانا الملكُ كابراً عن كابر ، واستوطأ مِهاداً من قَلْبِ كلّ سامع ، وتَضَوّع أَرَجُ ذِكْرِهِ في المحافلِ والمجامع . فهو

ـ ثَبَّتَ اللهُ سلطانَهُ ـ مُسْتَقِرٌ في دار مملكتِـهِ السعيدة ، وأحاديثُ فضلِـهِ تجولُ في البلادِ القَصِيَّةِ والأماكنِ البعيدة .

فَصْــل ، [١٦٩]

اتفق في أسجاعِـه اللفظُ والخـطُ دون المعنى

ولقد انتضى اللهُ عَزَّ وجَلَّ لإعزازِ الـدين ، وارتضى لتدبيرِ الـدنيا من يُضاعِـفُ جزاءَهُ يوم الدِّين ، الملك السَّيد الأجـلّ الأفضل ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين ، وهادي دعاةِ المؤمنين ، الذي استظهرَت المملكةُ بعزماتِـهِ علـى كلِّ مُخَالفٍ ومُعَادٍ ، وأبَتْ مفاخِرُه كلَّ مُكَرَّرٍ من الصفات ومُعَـادٍ ، وحفِظَ معاقِدَ المِلَّةِ من أن تَخْتَلَّ أو تُحَلَّ ، وصان محظورات الشريعة من أن تُبَاح أو تُحَلَّ ؛ وساسَ أمورَ الكافَّة ببأسه الشديد ورأيِـهِ الصَّليبِ ، وصرَفَ عاليَ هِمَّتِهِ إلى إعزاز التوحيد وإذلال الصَّليب ، وأمضى في حياطـة الإيمان مُرْهفاً ماضيَ الغِرارِ ، وأسْهَرَ جفنَهُ في مصالِح الأُمَّةِ فما يَطْعم من الكَرَى غير الغِرار ، فالإجماعُ واقعٌ على أنَّهُ أشرفُ من رفَعَ للمجد علماً وراية ، والاتِّفاقُ حاصلٌ في كونِهِ أفْضَلَ من وقف على الخيرات نظره ورأيه، ولهذا نجح قَصْدُ راجيهِ وسائلهِ ، وأصبح لديه [١٧٠] تأميلُ مؤمّلهِ من أعظم وسائلهِ ، فلا زالَ بابُ اعتزامِهِ في فَلِّ الخطوبِ غيرَ مُرْتَجٍ ، وزندُ عطائه غَيْرَ كابٍ بِعنانٍ ولا مُرْتَجٍّ .

فَصْــــلٌ

فتدبيرُه أبرزَ الدولةَ الفاطميةَ في أجملِ المعارضِ ، وجعلَ آياتِ مجدها متلوّةً بلسانِ المخالفِ والمعارضِ ؛ لأنّهُ شيّدَ مبانيَها باصطفاءِ الأنجاد ، وحمَى الدّينَ وقد قعدَ الملوكُ عن النُّصرةِ له والإنجاد ، وانتصبَ لصالح الأمة يستمدُّ أسبابَها ويجتلبُها ، واجتهــــدَ في منافــــعِ الكافّةِ يستدرُّ أخلافَها ويحتلبُها ، فالأفهامُ متواطئةٌ علـى أنّ هدايتَهُ أرشدت الألباب الحائرة ، والأحوالُ ناطقــةٌ بأنّ معدلتَه أذهبت الأحكــام الجائرة . فاللهُ يُخلّدُ نظَرهُ ما تتابعَ ليلةٌ ويوم ، ويُشيِّدُ مجدَهُ ما تعاقبَ على الأجفانِ يقظةٌ ونوم .

فَصْــــلٌ

إنّ اللهَ عضدَ الخلافةَ منهُ بكفيلٍ تكفّلَتْ بحياطةِ الملّةِ صرائمُه ، وخليــــلٍ تجرّدتْ لإيالةِ الإسلام صوارمُه ، [١٧١] وحفيظٍ وضحَتْ مفاخرُهُ وضُوحَ ضياءِ الشمس ، وحسيبٍ اجتمَــع له فضيلتَا كرَمِ الأصلِ وشرفِ النّفسِ ، ومليكٍ أوجبَتْ خلالُهُ تشوّفَ الغدِ ، وقضَتْ بتلهّفِ الأمس ، ولذلك آتاهُ اللهُ من الخصائص التي فاضلَ بها عُظماءَ الأرضِ طُرّاً ، وحباهُ بالمآثر التي طــال بها ملوكَ العصْر شيماً كريمــةً وأفعالاً غُرّاً .

فَصْلٌ

وكيفَ يبلغُ الحمدُ مدى هِمَمِهِ ، أو يؤدّي القولُ فَحْوَى شِيَمِهِ ، وقد بَدَّد جموعَ الضَّلال ذُبَابُ (١) قواضبه القاضية ، وشَرَّدَ أسودَ الأقيال تغالُبُ أسنَّتِهِ الضارية ، وأورد دماءَ الأعداء حوائِمُ سهامِه الظَّامية ، واستنطقَ عَصْرُهُ مُفتخراً على الأيام الخالية ، بأيّامِه الحالية ، فبكفالته اغتباطُ الدولةِ وابتهاجُها ، وإلى مكارمِه معرجُ الآمال ومعاجُهَا ، وبتدبيراتِه الميمونة ظَهَرَ برهانُ الدولة الآمِرِيَّةِ وثَبَتَ احتجاجُهَا ، ولا خلافَ أنّ أعطافَ مَجْدِهِ لائقةٌ بها مَلابسُ التَّعظيم ، وأنَّ ملوكَ الأرضِ قد أقَرّتْ له بفضيلةِ التَّقديم ، وأنَّهُ قد حاز تالِدَ [١٧٢] الفخرِ وطارِفَهُ ، فلمْ يَحْتَجْ قديمُهُ إلى حَديثٍ ، ولم يَفْتَقِرْ حديثُهُ إلى قديم .

فَصْلٌ

مما كُتب به عندَ مقامِه بالفَرما (٢)

لتقرير أمر الجهاد وتدبيره ، والعمل بما يؤدّي

إلى هلاك العدو وتدميره

وأميرُ المؤمنين يقولُ مُخبراً ، ويوردُ مُقْتَصِداً مقتصِراً .

---

(١) ذباب السيف : حدُّه ، أو طرفه .

(٢) قال ياقوت : مدينة على الساحل من ناحية مصر ... بين العريش والفسطاط ... وبينها وبين بحر القلزم المتصل بمصر أربعة أيام . انظر معجم البلدان : ٤/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

إنَّ المِنَّةَ به أكبر من أنْ يُوَفَّى حَقُّها باعتدادٍ ، وأعظَمُ من أنْ يُؤَدَّى فرضُهَا بمبَالَغَةٍ في الشكر واجتهادٍ ، وأسْنَى من أنْ يُحيطَ بها وصفٌ أو شرحٌ ، وأعلى منْ أنْ يناهضها تقريظٌ أو مَدْحٌ ؛ إلا أنَّ البُلْغَةَ من أوصافِ مفاخِرِه واللُّمْعَةَ من فضائلِه الباهرة ومآثره ؛ أنَّهُ ملِكٌ يُؤَمِّن الخائفَ ، ويَقْهر الحائفَ ، ويبالغُ في شُكْرِ العطاءِ والجُودِ ، ولا يَتَعَدَّى الحَدَّ في إقامة الحُدود ، فحلالُ الدماء مطلول بشِفَارِ مشرفيَّتِه ، وحرامُهَا مَصُونٌ بدينِه الخالص وتَقيَّتِه ، يعملُ بما يقضي بجذَلِ الإسلام وابتهاجِهِ ، [١٧٣] ويَضْمنُ الطُمَأنينة والسكونَ في حركتِهِ وانزعاجِهِ ، وينهَضُ لنُصْرةِ الدين وقد صاحَبَتْهُ الميامِنُ والسعودُ ، ويفارق وطأتَهُ فراق السيفِ غِمدَهُ يُجَلِّي ظُلَم الحوادث ويَعودُ ، ولذاكَ أعمل ركابَهُ لتجهيز العساكر المُؤَيَّدة ، والأساطيل المُظَفَّرة ، واستسهل البُعد عن مقرِّ أمير المؤمنين في جَنْب ما يرجوهُ من إبادة أعدائهِ الكفرة ، لأن علمَهُمْ بنُهوضه جيشٌ ينفُذُ من الرُّعبِ ، ولأنَّ بُعْدَهُ الآن مُؤذِنٌ – بمشيئةِ الله – بدوامِ الدُّنُوِّ والقُرب ، فكمِ استخرجَتْ عزمتُهُ الدعةَ من النَّصب ، وكم استنتجتْ هِمَّته الراحةَ من التَّعب ، فلا زالت أقطار المملكة محصَّنةً بقواضي قواضبه ، والخطوبُ مخاطبةً عن حوزتها بألسنةِ كتائبه .

فإذا كان هذا جزءاً من ثناء أمير المؤمنين ، ويسيراً ممَّا تداولَهُ الخُلَفاءُ على مُتَقَادِمِ السنين ؛ فأين يقع منهُ اجتهاد مماليكه في إحسان ذِكرِه ؟ وكيف يطمع أحدٌ منهم بواجب حَمْد الله على تمليكه عليهم وشكرِه ؟

عُــذراً إليه فإننا من عجزِنَا وقُصورِنا عن مدحهِ نستغفرُ[١٧٤]

وهذه الفصولُ أنموذج في وصفِ مناقبهِ كافٍ ، وسبيلٌ إلى نشرِ فضائله غيرُ عافٍ ولا خافٍ ، والمملوك يقف عند هذا الحَدِّ ، ويقنَعُ بما أورده مما قد أمِنَ فيه من الرَّد ، ويشفَع ذلك من المُلَحِ بما يسنح ، ويُتبِعُهُ بما يميلُ القلبُ إلى مثلهِ ويجنح ، وهو وإنْ أورد منه ما نزرَ وقَلَّ ، فقَدْ نَبَّه به عــلى نظائره وَدَلَّ ، والله يُعينه من الخدمَةِ الشريفة على ما تضمرُهُ نفسُهُ وتنويه ، ويقضي له من الحظِّ بما يكسِبُه جزءاً من إشادةٍ وتنويــــه ، بجُودِهِ ، ومجدِهِ ، وكرمِهِ وفضلهِ .

من فضائل الملوك التي ذُكِرتْ إيماءً لكثرتها واتساع فُنُونها ، ولأن التخفيفَ والاختصارَ من شروط هذه الخدمة وقوانينها .

وذلك نوعٌ إذا استُشِفَّتْ ضُروبه ، وتَنَوَّعَتْ أساليبُهُ ؛ كان سَهْمُ مولانا الملكِ منها السَّهمَ المُعَلَّى ، وأُلفِيَ كلُّ مدحٍ في حَقِّهِ مُستَنْزَراً مُستَقَلاً ، ولو لم يكُنْ له من المناقب التي فضلَ بها وفاقَ ، وملأَ ذِكْرُها ووصفُها الآفاقَ ، إلا أنه قَوَّم الزمَان لمَّا [١٧٥] مال وانحرف ، وفعَلَ في تعديله ما أقَرَّ به الجاحدُ واعترَف ، فوَفَّقَ بين سَنَةِ الشمس وسَنَةِ القمر ، وأبانَ عن صحة الفكر ودقة النظر ؛ وكانت مسافةُ بُعدِهِما مُنافِرةً للعادة ، ومُدةُ تفاوتِهما ثلاثَ سنين وهي إلى الزيادة ، فَدبَّر ذلك على حسب سيرتهِ العادلة ، وسُنَّتِهِ الحسنة ، وجَعَل مقدارَ هذا التبايُنِ

مأموناً فيهما إلى مائة سنة ، وأمَرَ ـ أعلى اللهُ أمرَه ـ بما أُنْشِيء في هذا المَعنى مما تولَّى ـ خَلَّدَ اللهُ ملكَهُ ـ تهذيبَهُ ، وقَصَدَ إيصالَهُ إلى الأفهام وتقريبَهُ ، وقُرِيء على جميعِ منابر المملكة ، فعلم الكافةُ ما فيه من عموم النفع وشمول البركة ، وذلك مما عجز عنه الوزراءُ الذين هذا الفَنُّ صناعتهم ، والتصرفُ في الكتابةِ عُمدتهم وبضاعَتُهم ، فما يتنافسون إلا في طِلابها ، ولا يتوسَّلُون إلى الرئاسة إلا بها . وهو ـ ثَبَّتَ اللهُ دولتَه ـ (١) فهي أيسر حسناته ، وأقلُّ آلاته وأدواته ، وفضيلَتُهُ فيها فضلةٌ على ما هو أعلَى منها وأشرَفُ ، وعلومُهُ شاهِدَةٌ أنه أنفذ من مُدَرِّسيها وأعرَفُ . [١٧٦]

ولقد حكى الزعيم أبو العلاء [ثقة الملك] (٢) صاعدُ بن مُفَرِّج أنَّ أماثل مُتَوَلِّي الدواوين اجتمعوا عند بعض الوزراء (٣) في سنة نيفٍ وثلاثين ، وتفاوضوا في نقل السنةِ الخَرَاجية إلى الهلاليَّة ، وقصدوا ما رفع اللبْس وأزاله ، ووسَّعُوا القولَ رغبةً في إيضاح المعنى له ، فقال : ما أُوثرُ أن يجريَ هذا في أيامي ولا نظري ، فوالله ما وصَلَ إلى فهمي ، ولا عَلِق بتصوُّري ، وهذا يكون على يد غيري ، ويُخَبَّأُ لمن يأتي بعدي . فأمسَكُوا عنه ، وخرجوا من عنده وبقي ذلك مهملاً إلى سنة خمس مائة لأن الله تعالى ذَخَرَ الفضيلةَ فيه لمولانا الملك الذي أسبَغَ النِّعم العَميمة ، وأولى المِنَحَ الجسيمة ، ولم يَكْتَفِ بالإحسان إلى كافَّة البَرِيَّة حتى لاءَم بين السَّنَةِ الشمسية والسنة القمرية .

---

(١) كذا وردت ، ولا تخلو من اضطراب كما هو ملاحظ .

(٢) زيادة من الحاشية ، وثقة الملك هذا هو صاحب ديوان الجيش . وعنه أخذ المؤلف صناعة الترسل (انظر تاريخ : ٢/٨٧) .

(٣) في الحاشية : (هذا الوزير أبو القاسم ، علي بن أحمد الجرجائي) .

فالله تعالى يُديمُ بهجةَ الدنيا بامتداد ظلّه ، ويلهمُ أهلها ما يستوجبون به سُبُوغَ عدله ، ويجعلُ القلوبَ على طاعته مُتَّفقة ، كما تألّفَتْ عنده الفضائلُ التي غَدَتْ في الناس مُفترِقةً .

لا غروَ إنْ كان فيه الفَضْلُ مجتمعاً
والفضلُ مُفترِق في [سائرِ الأممِ] (١)

[١٧٧]فأحرُفُ الخَطِّ يحوي الطِرسُ جُملتَها
وقد تَفَرَّعَ منها سائر الكَلِمِ

ولا زالَتْ الأمَّةُ في شُكرِه قاضيةَ دَيْن ، وإحسانُه مُتَجَدِّداً أبداً على الجَديدين . فأما إرشادُهُ للمستخدمين ، وإيفاؤه على ملوك الأرض المتأخرين والمتقدِّمين ، فيكفي من ذلك ما شاع واشتهرَ ، ويُقْنِعُ منه ما بَهرَ مُذ ظَهَرَ ، ولا خلافَ أنه يَهدي الحُكّام في المشكلات إذا نزلَتْ ، ويُشجِّعُهُمْ في القضاء إذا ضَعُفَت القُوَى وانخزلت ، ويرسُم للكُتّاب ما يعتمدونَهُ في المستبهِمات إذا عَرَتْ ، ويُوضِحُ لهم طُرُقَ المعالي إذا صَعُبَتْ وتَوَعَّرتْ ؛ فأدامَ اللهُ ظِلَّهُ على هذا الخَلْق ، وأجابَ فيه دُعاءَ أهلِ الغَرْب والشرق ، بكرمِه وفَضْلِه وجُوده ، ومَجْدِه .

يُحكى أنَّ الصاحبَ أنشَدَ عَضُدَ الدولة فَنَّا خُسْرُوا قصيدتَهُ المعروفة بالّلاكنية لكثرة ما كرَّر فيها « لكنْ » وأولها (٢) :

(١) مطموسة في الأصل ، ولعلها كما أثبتنا .
(٢) ديوانه : ١٩١ ، ولا يوجد في الديوان من القصيدة اللاكنية إلا هذه الأبيات الثلاثة ، وقد قالها يحيي عضد الدولة عندما ورد الشاعر إليه بهمذان .

أُشَبِّبُ لكنْ بالمعالي أُشَبِّبُ
وأنسِبُ لكن بالمفاخِرِ أنسِبُ

وَلي صَبْوةٌ لكن إلى حَضْرة العُلا
وبي ظَمَأٌ لكن من العِزِّ أَشْرَبُ

[١٧٨] فلمَّا انتهى إلى قوله :

ضَمَمْتَ على أبناءِ تغلِبَ تَأْيَهَا (١)
فتغلِبُ ـ ماكَرَّ الجديدان ـ تُغْلَبُ

قال عَضُد الدولة : يكفي اللهُ كراهية لقوله : تُغْلَبُ ! والصاحبُ لم يتيقَّظْ لهذا النقد مع أنه لا يَصِحُّ في هذه اللفظة إلا بتغييرين : ضمة التاء ، وفتح اللام ، وإنما ذكَرَ أحدَهُما .

وقد سَلِم ابن حَيُّوس مما لزم الصاحب ، لمَّا كانَ مادحاً لبني تغلب ، وغير محتاج إلى بناءِ الفعل لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه في قوله (٢) :

إذا البيضُ كلَّتْ يوم حَرْبٍ فإنَّها
مَواضٍ قواضٍ أنَّ تَغْلِبَ تَغْلِبُ

---

(١) في الأصل : تأها وهو تصحيف ، والتصحيح من الديوان .

(٢) ديوانه : ١ : ٣٦ وهو من قصيدته التي يمدح بها ناصر الدولة بن حمدان . وأولها :

لكم أنْ تجوروا معرضين وتغضبوا
وعادتكم أن تزهدوا حين نرغَبُ

ومولانا ؛ فَقَدْ صانَ اللهُ مواقِفَه المعظمة ، ومقاماته المُكَرَّمةَ عن أنْ تكون الخِدَمُ بها إلا مُنَقَّحة ، والمِدَحُ لها إلا مُهذَّبة مُصَحَّحة ، وحماها ممَّا لم يَزَلْ سامِعُوه ينتقدونَه فيحتاجُ قائلوه إلى الاعتذار عنه بما يتأوَّلُونه .

كان أبو المناقِب (١) الشاعر قد خَدَمَ المقام العاليَ المالكيَّ الأفْضَليَّ ـ ثَبَّتَ اللهُ سلطانَهُ ـ بِعِيديَّةٍ أولها :

تُهَنِّيك ، كلا ! بل يُهَنَّى بك الدَّهْرُ

فقيل له : إنَّ لفظة « كلا » ها هنا غير مُسْتَحسنة ، فوافَقَ على ذلك وغَيَّرها فقال : [١٧٩]

تُهَنِّيك والأَوْلى نُهَنِّي بك الدهر

وهذا دليلٌ على أنَّ الأقدار بخدمةِ مولانا مُتَطَوِّعة ، والأفكارَ إلى مايُرتَضى غرضُهُ بعاليِ مجلسهِ مُتَوَثِّبة مُتَسَرِّعة .

ويُروَى أنَّ سيفَ الدولةِ عليَّ بن حمدان قال لابن خالويه : لم يأتِ على تصريف : رَحِمَ ، فهو راحِمٌ ، ورَحِيمٌ ، ورَحْمَانُ ؛ إلا قولُهم : سَلِمَ فهو سالم ، وسليمٌ ، وسلمانُ . ونَدِمَ فهو نادِمٌ ، ونديمٌ ، وندمانُ . فقال ابن خالويه : أعرفُ رابعاً في نسب الأمير ، قال : وما هو؟ قال : حَمِدَ فهو حامدٌ ، وحميدٌ ، وحمدانُ .

---

(١) لعله حظي الدولة أبو المناقب عبد الباقي وهو من شعراء الخريدة ، ومن معاصري ابن حيوس ، ومن شعراء القصر . قال عنه العماد : وهو ممن يذكر لاشتهاره لا لجودة أشعاره . انظر الخريدة (شعراء مصر) ٢/٥٢ ـ ٥٣ .

وهذه الروايةُ وإنْ شَهِدَتْ بفضيلةِ سيف الدولة وأدبهِ ، فقد أعْرَبَتْ عن إغفالهِ تَقَصِّي النظرِ في نَسَبِهِ .

وقد تَقَدَّم من وصف مولانا ما يدلُّ على معجزاتهِ ، وعُلِمَ معه أنَّ الاستدراكَ لا مجال له في معلوماته ، ولو أُودِعَ هذا البابُ ذكرَ خصائصه لأتى من توسيع القول وبسطهِ ما يقضي بتوَفُّرِ حَظِّ الإطناب وتضاعُفِ قسطهِ .

يقال : إنَّ رجلاً سأل شَرَفَ الدولةِ مسلمَ بنَ قريش حاجةً ، وسار في موكبهِ إلى أنْ وَصَلَ إلى حضرتهِ ، فقال له : [١٨٠] أيُّها الأمير لا تنسَ حَاجَتي، فقال له شرف الدولة : إذا قضيتُها نسِيتُها !

وهذا من الأجوبة الدَّالة على شرفِ القَدْرِ ، واستيجاب الصدر ، وهو جُلُّ البيت الثاني من قولِ ابن (١) قابوس عُمَرَ بنِ مسلم في يحيى بنِ خالدٍ البرمكيِّ :

رأيتُ يحيى أَتَمَّ اللهُ نعمَتَهُ
عليه يأتي الذي لم يأتهِ أحَدُ

ينسى الذي كان من معروفهِ أبداً
إلى الرجال ، ولا ينسى الذي يَعِدُ

ومن أَعْلى رُتَبِ البلاغةِ نَثْرُ المنظوم ونظمُ المنثور ، وقَلَّ من يجيد فيهما إلا من أعانَتْهُ دُرْبتُهُ ،وساعَدَهُ طبعُهُ وفطرَتُهُ .

---

(١) في الوفيات : ٦/٢٥٥ ، أبو قابوس الحميري ، والبيتان هناك .

وقد كان أبو سَعْدٍ عليُّ بن خَلَفٍ صَنَّفَ لبهاءِ الدولة أبي نَصْرِ بنِ عَضُدِ الدولة كتاباً في حَلِّ المنظوم ، ولَقَّبَهُ بالمنثورِ البهائي (١) واعتمد فيه على الحماسَةِ ، للإلْفِ لها ، والأُنس بها ، كما فَعَلَ أبو علي الفَارِسِيُّ في كتاب الإيضاح (٢) الذي عَمِلَهُ لأبيه عَضُدِ الدولةِ فَنَّا خسروا ، فإنه استشهد في باب « كان » بقول أبي تمام (٣) :

من كـــان مرعى عزمِهِ وهمومِـــهِ

روضُ (٤) الأمـــاني لم يزلْ مهزولا

قـال علي بن عيسى الربعي : قال لي أبو علي مَرَّاتٍ : [١٨١] ما أفرِّقُ بين شِعرِ الطائي والبحتري ، وبين حَجَرَيْنِ مُلْقَيَيْنِ في الطريق أَتَجَنَّبُ أنْ أَعْثُرَ بهما فأعدِل ! ثم اعتذر إليَّ من هذا البيتِ الذي ذكرَهُ في الإيضاح ، فقال : يا أبا الحسن ، لا تَظُنَّنَّ أني تغَـيَّرَ رأيي في الطائي ، أو ناقضتُ لذكري هذا البيت ، وإنما

---

(١) ذكر هذا الكتاب حاجي خليفة في كشف الظنون : ٦٩٢/١ لكنه قال : « ونثرها ــ أي الحماسة ــ أبو سعد (أبو سعيد علي بن محمد الكاتب المتوفى سنة أربع عشرة وسبع مائة ، وسماه المنثور البهائي لأنه نثر لبهاء الدولة بن بويه » . ويبدو أن حاجي خليفة قد وهـم في تاريخ الوفاة الذي ذكره .

(٢) الايضاح : ١٠٢/١ .

(٣) ديوانه : ٦٧/٣ ، وهو من قصيدة يمدح بها نوح بن عمرو السكسكي ، ومطلعهـا :

يوم الفراق لقد خلِقْتَ طويلا لم تُبْقِ لي جَلَداً ولا معقولا

(٤) في الديوان بالرفع فقط ، والمخطوط يورده بروايتي الرفع والنصب ، فقد علّق فوق الكلمة بلفظ « معاً » .

جَرَى في مجلس الأمير فعمِلْتُه لأنّه من حفظه لا أني جَعَلْتُه شاهداً (١) !

ولَعَمري إنّ أبا تمامٍ وغيرَه من المُحْدَثين لا يُسْتَشْهَدُ بأشعارهم في النحو ولا اللغة ؛ لأن الشواهدَ على ذلك إما لجاهليٍّ ، وإمّا لمُخَضْرَمٍ (٢) : بفتح الراء وكسرها . قال الأخفش : يقال : ماء" خِضرِم" إذا تناهَى في الكثرةِ والسَّعة،فمِنْه سُمِّيَ الرَّجُلُ الذي شهِدَ الجاهليةَ والإسلامَ مُخَضرِماً ؛ كأنّه استوفَى الأمرين .

قال : ويقال : أذُن" مُخَضْرَمَة" ، إذا كانَت مقطوعةً ، فكأنه قُطِع عن الجاهلية إلى الإسلام .

وإمّا لإسلامي كرُؤْبَةَ ، وذي الرُّمة ، وجريرٍ ، والفرزدق .

على أنّ ابن جني قال في شَرْح منهوكة أبي نُواس (٣) :

وبلدةٍ فيها زَوَرْ .

قال بعض أهل علم العَرَبِ : لولا ما كان أبو نُواسٍ [١٨٢] يخلط به شِعرَه من الخَلاعَةِ لاحتُجّ به في كتاب الله ـ عَزّ وجَلّ ـ ، وفي حديث رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم .

(١) انظر الوفيات : ٢/٨١ ، وهناك خبر يؤيد هذا ويدعمه .

(٢) علق فوقها : معاً ، أي بالفتح والكسر .

(٣) ديوانه : ٤٣٨ ، وهو صدر مطلع قصيدة في مديح الفضل بن الربيع ، وتمام البيت .

صَعْراءَ تخطى في صَعَرْ

رجعَ المملوكُ إلى حَلِّ المنظوم :

فمن فصول المنثور البهائي المُقَدَّم ذِكرُه :

ومتى استنهضْتَنَا لخَطْبٍ ، أو استنجدْتَنا في حربٍ ، أنجدكَ منا رجالٌ بأيديهم آجالٌ ، إذا أبدى (١) البأسُ ناجِذَيْه طاروا جماعاتٍ ووُحْدَاناً إليه ، وإنْ صَرَّح الشرُّ لهم ، وهو عُرْيانُ ، عَدَوا عليه عَدْوَةَ الليث وهو غضبانُ ، يرونَ بالقتلِ حياةً ، وفي الشرِّ نجاةً ، لا يَصُدُّون عن الحَرْب الزَّبُون فِراراً ، ولا يزدادون عليها إلا إصراراً ، ولا تَبْلى بسالتُهم وإن صَلُوا بها أطواراً ، إذا أحْلَبَت(٢) عليهم العدو المُبَاسِلُ (٣) اقتسمته الأسنَّةُ والسلاسِلُ ، وإنْ سَمَا لهم الجاهِلُ المُتطاوِلُ ، فما العُمْرُ منه بباقٍ ولا المدى مُتَطاول .

وهذا الفَصل جُلُّ أوائل الحماسة :

فأما نظمُ المنثور فلم يرَ المملوكُ تصنيفاً فيه إلا الحاتمية . وهو يُمَثِّله بشيءٍ مما حاضَر بهِ ، واتَّفَقَ له .

---

(١) في الأصل : أبدا ، وهو تصحيف .

(٢) أحلبت : أعانت ، وأصله الاعانة في الحلب خاصة ، ثم استمرت في الاعانات كلها .

(٣) المباسل : من البسالة ، وأجراه على لفظ العدو لا على معناه ، وهو يشير بهذه العبارة الى قول جعفر بن عُلْبَةَ الحارثي :

أَلَهْفَى بقُرَّى سحبلٍ حين أَحْلَبَتْ
علينا الولايا والعدو المباسل

انظر شرح الحماسة للمرزوقي : ١/ ٤٤ ـ ٤٥ .

قال يوماً لأميةَ بنِ عبد العزيز المعروفِ بأبي الصلتِ [١٨٣] في مذاكرةٍ بينهما : ما أحسَنَ قولَهُمْ : الأماني أحلامُ المُسْتَيْقِظِ ، فوافَقَ على استحسانهِ ، ونَظَمَهُ فقال (١) :

كم ضَيَّعَتْ منك المُنَى حاصِـــلاً
كـــانَ من الواجبِ أن يُحفظَـــا

فـــإنْ (٢) تعلَّلْتَ بأطْمَاعِهَـــا
فإنَّمـــا تحلـــمُ مُستيقِظَـــا

من الشِّعرِ المُسْتَحْسَنِ قولُ سيفِ الدولةِ صدقةَ بنِ مزيد يصف ناقةً :

وحَطَّا رحـــالَ الميسِ عنهـــا فإنَّهَا
أُنيخَتْ هلالاً بعـــد ما ثُوِّرتْ بدرا

ويُحكى أنَّهُ لم يَقُلْ قَطُّ إلا هذا البيت ، واقتصارُهُ عليه دليلٌ على أنَّهُ لم يستكرِهْ طبعَهُ ولا تعسَّفَ فِكرَهُ .

وهذه قضية قد اتَّفَقَتْ لجماعة من الفُضلاءِ في أنَّهم يقولونَ البيتَ المُفْرَدَ ، ولا يعمَلُون له ثانياً . فمنهم (٣) وقد رَقِيَ المنبرَ يومَ عيدٍ فأُرْتِجَ عليهِ ، فنزل وهو يقول :

---

(١) ديوانه : ١١٨ ، وبين البيتين بيت ثالث هو :

فالفظ بها عنك فمن حق ما   يخفي صواب الرأي أن يلفظا

(٢) الديوان : وإن .
(٣) في الحاشية : (أظنه ثابت قطنة) . والبيت في ديوانه : ٣٥ ، وانظر القصة في الشعر والشعراء : ٦٣٠ ، وفي وفيات الأعيان : ٦/٣٠٨ .

فإلا أَكُنْ فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جَدَّ الوغى لخطيبُ

فقيلَ له : لو قلْتَ هذا على المنبر كنتَ أخطبَ الناس !

ومنهم هشام بن عبد الملك ، فإنه كان يكثرُ التمثّلَ ببيتٍ قالَهُ ، ولم يقلْ غيره ، وهو (١) :

إذا أنت لم تعْصِ الهوَى قادكَ الهوى
إلى بعضِ ما فيه عليك مقالُ

ومنهم إبراهيم بن موسى بنِ جعفرَ في قولهِ لذي الرئاستين مُعَزِّياً بابنهِ العبّاسِ (٢) : [١٨٤]

خيرٌ من العبّاس أَجْرُكَ بعدَهُ
واللَّهُ خيرٌ منك للعبّاسِ

ومنهم عَمرو بنُ مسعدةَ — وَوَقَّعَ به — :

أعزِزْ عليَّ بأمرٍ أنت طالِبُهُ
لم يمكنِ النُّجْحُ فيه وانقضى أَمَدُهْ

وقال ابن عَبْدوس في كتاب : الوزراءِ والكُتّاب (٣) إنه لم يقل قطُّ غيرَهُ .

---

(١) البيت في فوات الوفيات : ٤/٢٣٩ .

(٢) وفيات الأعيان : ٤/٤٣ .

(٣) لم يرد البيت أو الخبر في كتاب الوزراء والكتاب لابن عبدوس الجهشياري .

ومنهم إبراهيمُ بن العَبَّاس الصُّولي في قوله (١) :

أَناةٌ فإنْ لم تُغْنِ أَعْقَبَ بعدها
وعيداً،فإنْ لم يُغْنِ أَغْنَتْ صَوارِمُه

ولم يقل أولاً ولا ثانياً .

وقد قيل : إنه بدأ به على أنه كلامٌ منثور ، فجاءَ موزوناً ، فأقرّه على ما هو به .

ولا يعلَمُ المملوك شِعراً في مكاتبةٍ سلطانية إلا هذا البيت .

ومما مُدِحَ الفضل بنُ يحيى به مفرداً (٢) :

ما لقِينَا من جُودِ فَضْلِ بن يحيى
يتركُ الناسَ كُلَّهم شعراءَ

فاستُجيدَ هذا البيتُ ، وعِيبَ بأنه مُفْرد ، فقال أبو العذافر (٣) :

---

(١) ديوانه : ١٧٩ (في مجموع الطرائف الأدبية للميمني) وانظر القصة في الوفيات : ١/٤٤ ، وفي معجم الأدباء : ١/١٦٤ .

(٢) البيت في الوفيات : ٤/٣٥ غير منسوب ، وكذا في الوزراء والكتاب : ١٩٥ . وهو في فوات الوفيات : ٤/٢٠٥ منسوب لنصيب الأصغر مولى المهدي .

(٣) اسمه : ورد بن سعد العمّي ، وانظر عنه : (معجم الشعراء للمرزباني : ٥١٢ ، والموشح : ٤٣٩ ، والورقة لابن جراح : ٣) . والبيت في الوزاء والكتاب : ١٩٥ ، والوفيات : ٤/٣٦ .

عَلَّمَ المُفْحَمِينَ أن ينطقوا (١) الأشـ ...

... عـارَ منّا والباخلينَ السَّخاءَ

ويُروى أنَّ ابنَ دارة (٢) واصَلَ هجاء رَجُلٍ من العَرب فلقيهَ المَهْجُوُّ يوماً وَحْدَهُ ، فقتلَهُ ، وقال (٣) :

محا السيفُ ما قال ابنُ دارةَ أجْمَعَا [١٨٥] •

ومنهم الشريف البياضي ، وكتَبَهُ على مروحَةٍ (٤) :

وا رحمتَا ليَ أنْ حَلَلْتُ بمجلس

ان لَحَّنوا فيه يكون كسادي

وهذا من أحسن ما هُجي به غِناء" •

ولبعضِ شُعراء المجلس العالي (٥) ــ ثَبَّتَ الله سلطانَهُ ــ في ملك غانةَ ، لمَّا وَصَلَ مصر يريد الحج ، وقد شاهد أهْلُ مملكةِ مولانا ما نالَهُ من الحِباءِ الذي سَهَّلَ حجَّهُ ، والعطاءِ المُوضح له سبيلَ مرادِهِ ونَهْجَهُ :

---

(١) في الحاشية : (أظنها ينظموا) وكذا في وفيات الأعيان ، وفي الوزراء والكتاب •

(٢) هو سالم بن مسافع وهو شاعر مخضرم •

(٣) الأغاني : ٢١/٢٧١ ــ ٢٧٢ ، وورد البيت كذلك منسوباً للكميت ابن معروف الفقعسي ، وتمامه :

فلا تكثروا فيه الضجاج فإنه محا السيف ما قال ابن دارة أجمعا

(٤) وفيات الأعيان : ٥/١٩٩ •

(٥) في الحاشية : (مجبر بن محمد الصقلي) •

كـــذا يجيبُ دُعَاءَ اللهِ من عَرَفَهْ

من غَانةٍ غايةِ الــدُّنيا إلى عَرَفَهْ

ولمّا اجتمع الملوكُ به طالبَهُ بعمــلِ ثانٍ فذكَرَ قصورَ قدرتهِ عنه .

مما أهمَلَهُ المُتقدمون وتركوه ، فتيقّظَ له أدباء هذا الوقت واستدركوه

تَضَمَّنَ كتابُ الصناعتــين للعسكري نقداً عــلى الفرزدقِ وابنِ هَرْمَةَ ، وهو :

قال الفرزدق (١) :

وإنك إذْ تهجُــو تميمــاً وترتشي

سرابيلَ (٢) قيسٍ أو سُحُوقَ العمائم

كَمُهْرِيقِ مــاءٍ بالفَــلاةِ وغَرَّهُ

سرابٌ أذاعتْهُ (٣) ريــاحُ السَّمائِم

وقال ابن هَرْمة (٤) :

وإنّي وتركي نَــدَى الأكرمِــينَ

وقَدْحي بكفِّيَ (٥) زنــداً شَحَاحا

(١) ديوانه : ٢/٨٥٦ ، وانظر الصناعتين : ١٥١

(٢) في الديوان : تبابين .

(٣) في الديوان : آثارته .

(٤) ديوانه : ٨١ ، والصناعتين : ١٥١

(٥) في الديوان : بكفيَّ .

كتاركـــــةٍ بيضَها بالعـــــراء

ومُلْبِسَةٍ بيضَ أخـرى جنَاحَا

والمنتَقَدُ أنَّ ثانيَ بيت الفرزدق يَصْلُح ثانياً لبيت ابن هرمة ، [١٨٦] وثانيَ بيت ابن هرمة يصلح ثانياً لبيتِ الفرزدق . ولم يَزَلْ إصلاحُ ذلك مهملاً إلى أنْ فاوَضَ المملوكُ بعضَ الأُدباءِ فيه ، فقال : ينبغي أن يكونَ قولُ الفرزدق :

وإنك إذ تهجـــو تميمـــاً وترتشي

سرابيــلَ قيسٍ أو سُحُوق العمائِمِ

كورقاءَ تُعْرِي للسَّفَاهةِ بيضَهَا

وتستُرُ بيضاً غــــيرَهُ بالقوادمِ

وقولُ ابن هَرْمة :

وإني وتَرْكي نـدَى الأكرمِـــينَ

وقـدحي بكفِّيَ زنـــداً شَحَاحَا

كمثلِ الـــذي يُهريقُ السقاءَ (١)

إذا ما الســـرابُ لعينَيْهِ لاحَـــا

---

(١) كذا في الأصل ، وواضح أن صدر البيت مختل الوزن ، كما أن الخبر الذي أورده صاحب الصناعتين لا يخلو من اضطراب أيضاً ، فقد جعل ثاني بيت الفرزدق ـ وهو من الطويل ـ ثانياً لبيت ابن هرمة ، وهو من المتقارب .... انظر الصناعتين : ١٥١ .

وهذا مما قَنَعَ المتقدمون بانتقادِهِ ، وأهملوا إصلاحَهُ وتقويمَ مُنآدِهِ ، حتى هَذَّبَهُ أدباء هذه الأيام الزاهرة ، وحَرَّرَهُ أنشاءُ هذه المملكة القاهرة ، وذلك لما فاضَ عليهم من أنوار مالكها فاسترشدوا به في طرق الصناعة ومسالكها .

ذكر الشريفُ المُرتضَى في كتابِ : طيف الخيال (١) قولَ البحتري :

هجرَتْنا يقظَى ، وكادَتْ على عا

دتِها (٢) ، في الصدودِ تهجُرُ وَسْنَى

وحكى كلامَ الآمدي عليه ، وتغليطَهُ للبحتري مع حسن رأيِهِ فيه ، ووافَقَهُ الشريف على ما ذهَبَ إليه ، مما مضمونُهُ أنَّ يقظَى وَوَسنَى حالان من ضميرها ، [١٨٧] وأنها لا تكون مواصلة في وسنها ، حتى يقول : كادت تهجر في هذه الحال !

وهذا البيت صحيح المعنى ، وهو من إحسان البحتري ، وذلك أنَّ يقظى جمعُ يقظان ، وهو حال من ضميرِ المتكلمين، لا من ضميرها ، ووَسْنَى جَمْع وسنان (٣) ، وهو مفعول تهجر ، وتقريبه :

---

(١) طيف الخيال : ٣٩ ـ ٤٠ ، وانظر ديوان البحتري : ٤/٢١٤٣ ، من قصيدة يمدح بها ابن الفياض ، وأولها :

ما تنقَضي لُبانةٌ عند لبنى والمُعنَّى بالغانيات مُعنَّى

(٢) في الديوان : عاداتها ، وفي الطيف : مذهبها .

(٣) في الحاشية : (فإن فعلى يأتي جمعاً لما كان ضرباً من آفة أو داء ، مثل :جريح وجرحى ، وكليم وكلمى . وقالوا : زمِنٌ وزمنى ، وضمِنٌ وضمنى ، وقد تتعاقب : فَعْلَى وفَعَالى ، لقولهم : أسير وأسرى وأُسارى) .

هَجَرَتْنَا في حَـــالِ يَقْظَتِنا ، وكادتْ تَهْجُرُ قوماً ذوي وَسَنٍ .

فالتأويل الأول يجعل البيت من إساءات البحتري ومعايبه .

والتأويل الثاني يجعله من حسناته وغرائبه .

من النقــــد

سمع المملوك من ينشـدُ (١) :

لا تُعلِمَـــنَّ مُؤالِفاً ومخالِفـــاً (٢)

حالَيْكَ في السَّـــراءِ والضَّـــراءِ

فلِرَحْمَةِ المُتَوَجِّعينَ مضاضَةٌ (٣)

في القَلْبِ مثـــلُ شماتةِ الأعـــداء

فقال :

يتوجَّهُ النقد في البيتِ الأول لكونهِ أجرَى المؤالِفَ مَجْرى المخالِف في النهي عن إعـلام حَالَيْهِ ، وإنما الواجِبُ أنْ يعلما حالَهُ في السَّرَّاءِ ؛ لِما في ذلك من مَسَرَّةِ المؤالِفِ ، وغيظِ المُخَالف ، وأن لا يَعلماها في الضَّرَّاءِ إشفاقاً من حُزْنِ المؤالف ،

---

(١) فوات الوفيات : ٣/٣٤٠

والبيتان لمحمد بن الحسين بن عبد الله بن الشبل البغدادي ، المتوفى سنة ٤٧٣ هـ .

(٢–٣) رواية الفوات :

لا تظهرن لعاذلٍ أو عاذر ....

فلرحمة المتوجعين حرارة ....

وشماتةِ المخالف . والوجه أن يكونَ البيت :

لا تُعْلِمَنَّ مؤالِفاً ومخالفاً بنوازِلِ البأساء والضَّــراءِ

[١٨٨] والدليل على ذلك تعليلُه إياهُ في البيتِ الثاني .

كان المملوك يوماً مــع إخوانٍ له ، وهم يتذاكرون أشياءَ من الأدب ، فأنشد بعضُهم قولَ ابنِ سعيدٍ الحلبيِّ (١) :

إذا أخَذَ المــرآةَ ينظُر وجْهَــهُ

حسِبتَهُمَا (٢) شمسينِ بينَهُما بَدْرُ

فأنشد آخَرُ في التشبيهِ بالمرآة :

والنجــمُ وجــهٌ مقبِلٌ والبــدرُ مرآةٌ صَدِيَّةْ

فقال المملوك : هذا البيتُ مما جمع تشبيهين بغــير أداة ، وفيه نقدٌ لا يُدْرَكُ لمجرد الأدب ، وذلك أنَّ هذا التشبيهَ لا يكونُ إلا في وقتٍ مخصوصٍ ، وهو إذا صار القمرُ بدراً في الثور ، وكان ذاهباً إلى مُقَارِبة الثُرَيَّا ، أو منصرفاً عنها ، لأنَّ النجمَ ــ عــلى مَذْهبِ العربِ ــ الثُريَّا . ألا تراهُ شَبَّهَهَا بالوَجْهِ ، ثم ذلك لا يكون والشمس في الثور ، إذْ كانت الثُريَّا من كواكبه ، وكلُّ كوكبٍ لا يَظْهَرُ إذا كانَت الشمس في بُرجِــهِ ، لأنــه يكون تحتَ شُعاعها .

---

(١) ابن سنان الخفاجي ، والبيت في ديوانه : ٥٢ ، ومعه بيت آخر .

(٢) في الديوان : ظننتهما .

ومن مليحِ ما قيل في المرآة :

قوراء تَحْويكَ وتحتويها

حاملة أشخاص حامليها

أعجِبْ بها ! ترِيك ما تريها

مُظْهِرَةٌ منك بها شبيها [١٨٩]

والحُسْنُ والقُبْحُ جميعاً فيها !

وعلى ذِكْرِ التشبيهِ ، فقد أحسَنَ بعض الشاميّين في قولِهِ — وكتَبَ به إلى صَديق له يدعُوهُ على عُجّةٍ — :

وعنديَ عُجّةٌ تَزْهَى بِحُسْنٍ

تناهَى فاستمالَتْ كلَّ نفسِ

ولم أر قبلَ صائغِها حكيماً

يصوغُ منَ الكواكِبِ عَيْنَ شمسِ

ومن مليحِ اللغز فيها قولُ الآخر (١) في أبياتٍ :

حُروفُها تُقرأ مَقْلُوبَةً :

ومرادُه : اسمُها ، لا قَلبُ حروفها .

وهذا يدخلُ في باب المحاضرة بقول الصقلّي :

---

(١) في الحاشية : (مجبر الصقلي) .

قد جاءَ بالنِّسْرينِ يَمْسَحُ خَدَّهْ ويَشُوفُهُ (1)
زَهْرٌ أَلَذُّ بِقُرْبِهِ ويَسُرُّني تَصْحِيفُهُ

ومرادُه أنَّ [هذه الكلمة التي هي] (2) يَسُرُّني ، تصحيفُ نسرين .

وقولُه أيضاً في كرسي :

وا وَحْشَتا لمفارقٍ قد كان عَيشي أنسُهُ
فاعذِرْ أخاكَ فإنَّهُ شيءٌ يَسُرُّكَ عَكْسُهُ

ومرادُهُ : عكسُ يَسُرُّكَ .

ومن فضلاءِ الشاميين السابقُ المعرِّيُّ (3) ، وله رسالةٌ وسَمَهَا بتحيَّةِ الندمان . قال :

ولهذا اللقَب معنيانِ : أحَدُهما ، رَضيعُ المُدامةِ ، والآخرُ ، فعلانُ ، من الندامة .

فمن محاسنِها قولُه :

صِرْتُ إلى حلبَ ، والزمنُ مَوْشِي الجلبَابِ ، مُقتَبِلُ الشباب ، [190] قد تَمَّ عِذَارُهُ ، ونَمَّ بمحاسِنِ وَجْهِهِ آذاره .

---

(1) في الحاشية : (يشوفه : يجلوه) .

(2) الزيادة من الحاشية .

(3) هو محمد بن الخضر بن الحسن بن القاسم من شعراء القرن الخامس . وانظر ترجمته في : (فوات الوفيات : 3/345 ، والوافي بالوفيات : 3/39 ، والخريدة (قسم شعراء الشام) 2/125 ، والمحمدون من الشعراء : 310) .

وذكر المملوك بهذا الفَصلِ قولَ محمدٍ القيرواني ـ وقد كتَبَ إجابةً لمن سأل عمَّا آلَ إليه حالُ الجدب ـ :

وأما ما انعَجَم عليك من حالِ حَوْلِنا فَقَدْ بَرِىء ـ بحمدِ الله ـ عليلُ بُرانا ، وأثرَى فقير ثرانا ، بطَالِع وَسْمِيٍّ دنا فأسَفَّ ، وتابِع وَلِيٍّ وكَفَ فما كفَّ ثرثارا قطرُهُ ، محجوباً شمسُهُ وبَدْرُهُ ، حتّى إذا ركِبَ بالطامِّ ، وخِيفَ منه انحطامُ الأَطام ، مُزِّق عن الرَّقعاءِ (١) صحيحُ إهَابِها ، واختُزِنَ دُرُّ البُرِّ في أصداف تُرابها •

وللملوكِ رسالةٌ في مُضَاهاة هذهِ الإجابة منها :

وأما استقراؤك حال سَنَتِنا التي وَصَفْتَها بالمُجْدِبة وهي المُجْدِية ، ووسَمْتَها بالمهلِكَة وهي المُحْيِية ؛ فقد كانَت البلادُ مُغْبَرَّةً مقشعِرَّةً فيها ، وجاء ـ من كرم الله ـ ما يُذْهِبُ عنها الشدائدَ وينفيها ، فأتَتْ جيوشُ النعم متوافرةً مقتحمة ، ودنَتْ ضروبُ المِنَحِ متكاثرةً مزدحمةً • فتأمَّلِ الألطافَ كيفَ تستبقُ ولا يُخَافُ من فَوْتِها ، وانظُرْ إلى أثرِ رحمةِ الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتِها وذلك أنَّ السحابَ [١٩١] أنجمَ ثم أثْجَم ، والغيثَ ارتَفَع ثم اندفَعَ ، بهطلٍ لا يُخْشى ضيمُهُ ، في يومٍ ستارتُهُ غيمُهُ ، تخالُ مُزْنَهُ للشَّمسِ عاشقاً ، وتظُنُّهُ بها مُغْرَماً ولها وامِقاً ، فكلَّمَا جعلَتْ تحتجِبُ ظلَّ لعدمِها يبكي وينتحِبُ ، فعاد نسيمُ وقتِنَا عليلاً مريضاً ، وغدا أديمُ أرضِنا صحيحاً أريضاً ، قد أحيا انهلالُ القَطْرِ بجرعاتها مَوَاتاً ، واستُحْفِظَتْ من الحبِّ سراً فوشَتْ به نباتاً •

(١) الرقعاء : من الشاء ما في جنبها بياض ، والمرأة لا عجيزة لها (القاموس)

رجع المملوك إلى تحية الندمان .

فمن فصولها :

ولقد نَشِطتُ يوماً للنزهَةِ في جماعةٍ من الغرباء وَطَناً وفَطِناً ، فَمَرَّ لنا يومٌ خَنِثُ الشمائل، غَنِجُ الضُحى والأصائل، فلمَّا قَبضَ المغيبُ روحَ الشمس ، وصارَتْ من الظلام في رمس ، حَثَثْنا الصغير بالكبير ، وَحِدنا عن شُربِ القليل إلى الكثير .

والمملوك يقول : إن قوله : وطَناً وفَطِناً ، من تركيب قول البديع : فما أجرنا حزناً حتى هبطنا بطنا .

وقد أحسن البحتري في قوله (١) :

جُلْنَ في يابس التراب فما رِمْـ ...

... ـنَ طعاناً حَتّى وطِئْنَ الطينا

فأمَّا وصفُه الشمسَ في مغيبها ، وما استعارَهُ لها عند غُروبها ؛ فهُوَ ممَّا أغربَ وأبدَعَ فيه ، وأتى بإحسانٍ [١٩٢] لا يَقْدِرُ الحاسِدُ يَكْتُمُهُ ولا يُخْفيه .

وقد أحسن الآخرُ في وَصْفِها عند أُفُولها بقولِه :

فجلِيَتْ عروسُ الشمس في الاصفرار ، وأخَذَ الليل يُدَنِّس ثوبَ النَّهار .

---

(١) ديوانه : ٢١٦٧ ، وهو من قصيدة يمدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الصامتي ومطلعها :

هم أَلي رائحون أم غادرنا عن فراقٍ ممسونَ أمْ مصبحونا

وذكرُهُ هاهنا تدنيس الثّوب مع جلاءِ العَروس من المعاني التي تبتهجُ بها القلوب ، وتنشرحُ لها النفوس .



في محاسن أهل الوقت

فمن ذلك : قولُ قاسم (١) بن علي مُعارضةً لأبي عُبادةَ البُحتري .

قال البحتري من قَصيدةٍ أولُها (٢) :

بَاتَ نديماً ليَ حَتّى الصَّبَاحْ
أغْيَدُ مجدولُ مكانِ الوِشاحْ

مشبِّهاً للثغر :

كأنما يَبْسِمُ (٣) عن لؤلؤٍ
مُنَظَّمٍ أَوْ بَرَدٍ أَوْ أَقَاحْ

وقال القاسِم بن علي (٤) [الحريري] :

(١) هو القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات .

(٢) ديوانه : ٤٣٥ ، وهي قصيدة يمدح بها أبا نوحٍ عيسى بن ابراهيم .

(٣) في الديوان : يضحك .

(٤) مقامات الحريري ، المقامة الحلوانية : ١/٥١ ، ويقارن الحريري هناك بين بيت البحتري المذكور وبين بيتيه ، ويفضلهما .

نفسي الفـــداءُ لثغرٍ راقَ مَبْسِمُهُ
وزانَـهُ شنـبٌ ناهيك من شَنَـبِ

يَفْتَرُّ عن لؤلؤٍ رَطْـبٍ وعن بَرَدٍ
وعن أقـــاحٍ وعن طَلْعٍ وعن حَبَبِ

فالبحتري شَبَّهَ الثغـر بثلاثةٍ ، والقاسمُ شَبَّهَهُ بخمسةٍ وهذا أكثَرُ ما يمكن في بيتٍ .

وإذا اسْتُحسِنَ قولُ الوأواء (١) :

وأسبَلَتْ (٢) لؤلؤاً من نرجسٍ فسَقَتْ
ورداً وعضَّتْ عـــلى العُنَّاب بالبَرَدِ

[١٩٣] وفيه خَمْسَةُ تشبيهـات بخمسة مُشَبَّهـــات فأنْ تُستَحسنَ هذه العِدَّةُ لِمُشَبَّهٍ واحدٍ أَجْدرُ .

والقاسِمُ هذا باهرُ الفَضْلِ ، فائِقُ الطَّبْعِ ، غزيرُ الأدبِ ، كثـيرُ المُلَـحِ فمِمَّا أعرَبَ فيه عن براعتهِ ، وأبانَ عن بديـعِ صناعتهِ ، أنَّهُ يمدَحُ الشيءَ فيُحْسِنُ في مدحِهِ ، ثم يَذُمُّهُ فيكشِفُ عن قُبْحِهِ ، كقولِهِ يمدَحُ الدينار (٣) :

---

(١) هو أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني المشهور بالوأواء الدمشقي ، والبيت في ديوانه : ٨٤

(٢) في الديوان : وأمطرت .

(٣) أورد الحريري هذه الأبيات والتي تليها في مقامته التي سماها بالمقامة الدينارية : ١/٦٩ ـ ٧٠

أكرِمْ به أصفَرَ راقَتْ صُفرَتُه
وَحُبِّبَتْ إلى الأنــــام غُرَّتُه
كــم آمرٍ به استَتَبَّتْ إمرَتُــه
وجيشِ هَـــمٍّ هَزَمَتْــهُ كَرَّتُه
وَحَقِّ مولى أَبْدَعَتْــهُ فِطرَتُــه
لولا التُّقَى لَقُلْتُ : جلَّتْ قدرتُه !

وقولُهُ يَذُمُّه (١) :

تَبّاً لــه من خَـادعٍ مُمــاذِقِ
أصفَرَ ذي وجهــين كالمُنَـافِقِ
وحُبُّــهُ عنـــدَ ذوي الحقـائق
يـدعو إلى ارتكـابِ سُخطِ الخالق
وشَـرُّ ما فيــه من الخَـلائقِ [١٩٤]
أنْ ليس يُغـني عنـك في المضائق
إلا إذا فَــرَّ فِـرارَ الآبِــقِ
واهــاً لِمَنْ تقــذفه (٢) من حالِقِ
ومن إذا ناجَــاهُ نَجْوى الوامِقِ
قَــالَ لـه قولَ المُحِقِّ الصَّادِقِ
لا رَأْيَ في وَصْلِكَ لي ، ففارِقِ

(١) المصدر السابق : ٧٣ ـ ٧٤

(٢) في المقامات : يقذفه ، وفي الحاشية : (واها ، تعجب واستعطاف) .

وقد جَعَل هذا الشعرَ على وجهِ اللغز ، وهو كثيرُ الاستعمالِ بهذه الطريقة . ومن مليحها ما صَنَعَهُ على لسان السَّروجي وَوَلدِه وقاضٍ تقدَّما إليه ، فالذي نَسَبَهُ إلى السَّرُوجي (١) :

أيَّدَ الله القاضي ، إنه كانت لي مملوكة" رشيقةُ القَدِّ ، أسيلةُ الخَدِّ ، صبورةٌ(٢) على الكَدِّ ، تَخُبُّ أحياناً كالنهد، وترقدُ أطواراً في المهد . ذاتُ كفٍّ ببَنَان ، وفمٍ بلا أسنان ، مطبوعة" على المنفعة ، مطواعة" في الضِّيق والسَّعةِ ، وطالما خدمتْك فَحَمَّلت ، ولربَّمَا جَنَت عليك فآلَمَت ومَلْملت ، وإنَّ هـــذا الفَتى استخدمنيها لغرض . فأخدمْتُهُ إياها بلا عِوضٍ ، على أنْ يجتنيَ نفعَهَا ، ولا يُكَلِّفَهَا إلا وُسْعَهَا ، فأولَــج فيها متاعَهُ ، وأطـــال بها استمتاعه؛ [١٩٥] ثم أعادها وقد أفضاها، وبذل عنها قيمةً لا أرضاها .

والذي نَسَبَهُ إلى الوَلَد :

أما الشيخ فأصدَقُ من القطا ، وأمَّا الإفضاءُ فَفَرَطَ عن خطا ، وقد رهنتُه على أَرْشٍ ما أوهنته مملوكاً لي متناسِبَ الطرفين منتسباً إلى القين ، نقياً من الدَّرَنِ والشَّيْنِ ، يقارِنُ مخلَّه سوادَ العينِ ، يُغَذِّي الإنسان ، ويتحامى اللسان ، إنْ سُوِّد جَادَ ، وإنَ (٣) وُسِم أجــاد ، وإذا زُوِّدَ وَهَبَ الزَّاد ، ومتى استُزيد زاد ،

---

(١) المقامات ١/: ١٥٠ المقامة المَعَرِّيَّةِ .

(٢) في المقــامات : صبور ، وهــو الصحيح ، لأن وزن فعول يستوي فيه المذكر والمؤنث .

(٣) في المقامات : أو وَسم .

لا يستقِرُّ بمغنى ، وقلّمَا يَنْكِحُ إلا مَثْنى ، يسخو بموجُوده ، ويسمو عند جُودهِ ، وينقاد مع قرينته ، وإنْ لم تكُنْ من طينَتِهِ .

والذي نَسَبَهُ إلى القاضي :

إما أنْ تبِينا ، وإلا فَبِينا !

فقال الولد :

أعــــارني إبرةً لأَرْفَأَ أطـــــماراً عفاهَا البِلَى وسَوَّدَهَا

فانخرمَتْ في يدِي على خطأٍ   منّيَ لمّا جَذَبْتُ مِقْوَدَها

فاعتاق ميلي رهناً لديــه ونا   هيك بهـــا سُبّةً تزوّدها

فالعينُ مَرْهى لرهنِهِ ويدي   تقصُرُ عنْ أنْ تَفُكَّ مِرْوَدَها

وقال الشيخ (١) :

أقسمْتُ بالمشعَـــرِ الحَــرامِ ومن
ضَمَّ من الناسكـــــين خيفُ منى

لو ساعفتني الأيـــامُ لــم ترَني
مُرتهِنـاً ميلَهُ الـــذي رَهَنـا

ولا تصَــــدَّيتُ أَبْتَغِي بــدلاً
من إبْـــرةٍ غَالَهـا ولا ثمنـــا [١٩٦]

(١) هذه الأبيات والتي قبلها ذكرها الحريري في مقامته المعرية : ١/١٥٤ ــ ١٥٧ مع زيادة في الأبيات هناك .

لكنَّ قَوْسَ الخُطوبِ ترشُقُني
بمُصْمِيَاتٍ من ها هُنَا وهُنَا

وخُبْرُ حالي كَخُبْرِ حالته
ضُراً وبُؤساً وغُربةً وضَنَا

قد عَدَلَ الدهرُ بيننا فأنا
نَظيرُهُ في الشَّقاءِ وهو أنا

لا هو يَستطيعُ فَكَّ مِرْوَدِهِ
لمَّا غَدَا في يَدَيَّ مُرْتَهَنَا

ولا مجالي لضيقِ ذات يَدي
فيه اتّسَاعٌ للعَفْوِ حين جَنَى

فهذهِ قِصَّتي وقِصَّتُهُ
فانظُرْ إلينا وبيننا ولنا !

وقال في وصفِ كَرَمِ الخُلُق (١) :

أنا (٢) أُرَاعي الجارَ ولو جارَ ، وأبذلُ الوصالَ لمن صَالَ ، وأسْتَقِلُّ الجزيلَ للنَّزيلِ ، وأَغْمُرُ الزَّميلَ بالجميلِ ، وأودِعُ مَعَارِفي عَوَارِفي ، وأُولي مُرَافِقِي مَرَافِقي ،

(١) المقامات ، المقامة الدمياطية : ٨٠/١

(٢) في المقامات : آرعى ·

وأُلينُ مَقالي للقالي ، وأُديم تَسْآلي عن السَّالي ، وأقنعُ من الجزَاءِ ، بأقلِّ الأجزاءِ ، ولا أتظلَّمُ حين أُظْلَمُ ، ولا أنْقَمُ ولو لدغَني الأرقَمُ .

وقال في عكسِ ذلك :

أنا لا آتي غيرَ المُوَاتي ، ولا أُصَافي من يأبَى إنصافي ، ولا أُوَاخي من يُلْغي الأَواخي ، ولا أُمالي من يُخَيِّبُ آمالي ، ولا أُدَاري من جَهِلَ مقداري ، ولا أبذُلُ وِدادي لأضدادي ، ولا أَدَعُ إبعادي للأعادي ، وإلا فَلِمَ أَعْلِقُكَ (١) وتُعلِقُني ؟ وأُقلِقُكَ وتستَقلِقُني ؟ [١٩٧] وأجرَحُ (٢) لك وتجرحُني ؟ ومتى أصحَبَ (٣) ودٌّ بعسفٍ ؟ وأيُّ حُرٍّ رضِيَ بخُطَّةِ خَسْفٍ ؟

قد كِلْتُ لِلخِلِّ كما كَالَ لي
على وفاءِ الكَيْلِ أو بَخْسِهِ

ولستُ بالموجِبِ حَقاً لمن
لا يُوجِبُ الحقَّ على نفسِهِ

ومن مليح شِعرِهِ قولُه (٤) :

لقد أصبحْتُ موقوداً (٥) بأوجاعٍ وأَوْجَالِ

---

(١) هكذا في الأصل ، وفي المقامات : أَعلِقُكَ .

(٢) في الحاشية : (أجرح : اكتسب) .

(٣) هكذا في الأصل ، وفي المقامات : أَصْحَبَ .

(٤) المقامات ، المقامة البرقعيدية : ١/١٣٤ ـ ١٣٦ .

(٥) في المقامات : موقوذاً .

وخــوّانٍ من الإخـوا ن قـــالٍ لي لإقـــلالي
فكمْ (١)أخطِرُ في بـــالٍ ولا أخْطُرُ في بـــالِ
فسحــرابيَ أحْــرَى بي وأسمالــيَ أسْــمى لي
فهَــلْ حرٌّ يرَى تخفيــــف أثقــالي بمثقـــالِ

وقوله (٢) :

إني امــرؤٌ أبْــدِعَ بي بعـــد الوَجَــا والتّعَبِ
فَـزَفْرَتي في صَعَــدٍ وعَبْــرتي في صَبَــبِ (٣)
وأنتُــمُ مُنْتَجَــعُ الــــراجي(٤) ومَرْمَى الطَّلَبِ
لُهَاكُــمُ مُنْهَــلّةٌ ولا انهـــلالَ السُّحُبِ
وجــارُكُمْ في حَــرَمٍ وَوَفْرُكُــمْ في حَــرَبِ
ما لاذَ مُرْتــاعٌ بِكُــمْ فخــافَ نـابَ النُّوَبِ
ولا استَــدَرّ آمِــلٌ حِبَاءكُــمْ فمــا حُبِي !

[١٩٨] فأما قوله :

فـــزفرتي في صَعَـــدٍ وعَبْـــرتي في صَبَـــبِ

فمن المعاني التي تصَرّف فيها الشّعَراء وتفنّنُوا ، وتوسّعُوا

---

(١) في المقامات : وكم .
(٢) المقامات ، المقامة المكية : ٢/ ٥١
(٣) نسب هذا البيت للمعتمد بن عباد ، وهو في ديوانه : ٣ وفي المختار من شعر شعراء الأندلس : ١١٤
(٤) في المقامات : الرجي

توسعاً أجادوا فيه وأحسنوا ، فمن ذلك قول ابن أبي سعيد (١) :

شَتَّان في الحالين (٢) ما بينَنا وبيننا في المنظرين اشتباه
يا عجباً من حُرُقاتِ الهوى تصعدُ نيراناً وتجري مياه (٣)

وهـذا أصنَعُ من بيت القاسم بن علي ، لأن القاسم جَعَل الزفْرَةَ غير العَبْرة ، فهذا في ارتفاعٍ والتهابٍ ، وهذه في انحدارٍ وانصبابٍ ، وابن أبي سعيدٍ جعلهُمَا شيئاً واحداً إذا صَعد كان ناراً ، وإذا جَرَى كانَ ماءً ، فالنارُ علةُ الماء ؛ لأن صُعودها يُجرِيه .

وقد عكسَهُ الآخر في قوله :

ولم أرَ مثلَ الدَّمْعِ ماءً إذا جَرَى
تلهَّبُ منهُ في الأصابعِ نارُ (٤)

فجَعَل الماءَ علة النارِ ، وأنَّ جَرَيانه سببٌ لتلَهُّبِهَا .

وقد أحسنَ الصاحبُ غايةَ الإحسان في قوله :

---

(١) ابن شرف القيرواني ، والبيتان في المطرب من أشعار أهل المغرب : ٦٩

(٢) في المطرب : شتان في النطقين

(٣) في الحاشية : (عبد المحسن الصوري :

حُرَقُ الهوى زفراتهن بكاء فشرار تلك النار هذا الماء

وقال : . . . . الكلام مطموس . .)

(٤) أورد في الحاشية أبياتاً لابن رشيق ، فقال : (ابن رشيق :

دعه وإجراء الدموع فإنما تجري مياه الشوق من نيرانه

وله :

رأيت الماء يطفىء كل نار ونار الشوق تشعلها الدموع

وله : . . الكلام مطموس لم يقرأ . .)

لا تحسبَنّ دموعي البيضَ غيرَ دمي
وإنما نَفَسي نارٌ تَصَعّدُ [...][1]

ولابن عَبّاد أحدِ سلاطين الأندلس :

نارٌ وماءٌ صميمُ القلبِ أصلُهما
متى حَوَى القلبُ نيراناً وطو[فانا][2]

ضِدّانِ ألّفَ هذا الدهرُ [3] بينهما
لقد تَلَوَّنَ فِيَّ الدهرُ ألوا[نا][4]

[١٩٩] وأما قولُ القاسم :

وجاركُمْ في حَرَمٍ ووفركم في حَرَبِ

فمعنى متداول أيضاً . ومن مليح ما قيل فيه :

لك العَرَضُ المُبَاحُ لمن بَغَاهُ
من العافين والعِرْضُ المَصُونُ

وجارُكَ ضِدُّ مالِكَ منذُ أمّا
محلّكَ ، ذا يُعِزُّ ، وذا يُهِينُ

(١) طمس في الأصل ، ولم نجد البيت في ديوان الصاحب
(٤.٢) في الأصل طمس لم يقرأ ، والتكملة من ديوان المعتمد : ١٦٦ ، والبيتان أيضاً في المختار من شعر شعراء الأندلس : ١٢٠
(٣) في الديوان : صرف الدهر ، وكذا في المختار

وعلى ذكر قاسمٍ ، فللقاضي الرشيد محمد بن قاسم ــ وكتبَ به إلى صديق له كانَتْ جاريته تزور دارَهُ، فجاءت على عادتها ، وسألها أهلُه أن تُقيم عندهم ــ فاستزار مولاها بقوله :

سيدةُ الرُّومِ رامَ عِترتُهـــا (١)
مُقامَهـــا عندهـــم إلى العَتَمَـــه
فَكُنْ صـــلاةَ العشاءِ زائرَنـــا
والنونُ للجَمْـعِ ليس للعَظَمَـــه

ولقد ملَّح ابن قاسمٍ وتظرَّف ، كما تنوَّع قاسمٌ وتَصَرَّف .

الغَزَّالي (٢) :

حَلَّتْ عقـــاربُ صدغـهِ في خَدِّه
قمـــراً فجـــلَّ بهـا عن التشبيهِ
قد كنتُ أعهَدُهُ يَحُـلُّ ببُرجِهَـا
فمن العجائبِ : كيف حلَّتْ فيـهِ ؟ !

ولما أنشد المملوكُ هذين البيتينِ ابن مِكْنسَةَ عَمِلَ بديهاً (٣):

(١) في الأصل : أسرتها ، ثم شطبت ، وكتب فوقها : عترتها

(٢) هو الامام أبو حامد الغزالي .
والبيتان في الوفيات : ٤/٢١٨ . والخريدة قسم (شعراء مصر) ٢/٢٠٧

(٣) الأبيات في الخريدة (شعراء مصر) ٢/٢٠٧

قلتُ ـ إذْ دَرْفَنَ (١) الدلا   لُ على خدِّه الشَّعَرْ
هذه آيةٌ بها   ظَهَرَ الحُسْنُ واشتَهَرْ

ما رُئِي قبلَ صُدْغِه (٢)
عَقْرَبٌ حَلَّتِ القَمَرْ [٢٠٠]

وعلى ذِكْرِ القمر والعقربِ فقد أحسَنَ ابن المغربي في قوله ـ وقد لسَبَتِ العقربُ جاريةً كان يهواها ـ :

كم تَسْتَحِمُّ العينُ فيك بمائها
حتَّى كأنَّ بها جُنونَ المُذهب

إنْ كان نَالَكِ مؤلمٌ من عَقْرَبٍ
فالبدرُ مُمْتَحَنٌ ببرج العَقْرب

وبرجُ العقرب: هبوط القمر . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن السَّفَرِ إذا كان القَمَرُ في بُرج العَقْرب .

ولمحمود بن القاضي المُوَفَّق :

لامَ العواذلُ مُغْرَماً   في حُبِّ مُلْهِيَةٍ وقَيْنَهْ
وَلَوَ انَّهُنَّ رَأَيْنَ تَأْ   ثيرَ الغرامِ به وَقَيْنَهْ

---

(١) في الخريدة : إذ عقرب

(٢) في الخريدة : ما رئي قط قبل ذا

وهـــذا تجنيسٌ لفظي خطّيٌّ تركيبي ، فأما الخطُّ واللفظُ فواضحان ، وأما التركيب فالكلمتان في عدته متساويتان ، وذلك أن الواوَ في الأولى عاطفة ، وهي في الثانية من أصل الكلمة ، والنونَ في الأولى من أصل الكلمة ، وفي الثانية ضمير جماعة المؤنث ، فأما الهاء فهي في الأولى تاءُ التأنيثِ المبدلةُ هاءً في الخطِّ والوقف ، وفي الثانية ضميرُ المفعول الذي هو المغرم •

وهو يُكثِرُ من استعمال هــذه الطريقــة ، وهي من أحسنِ ضروبِ التجنيس ، فمن ذلك قولُه : [٢٠١]

وقـــدْ كان رأيُك ركني الـــذي
عليــه اعتمـــادِي وهَا قَدْ وَهَى

ومن هذه الأبيات :

ترى الشمسَ يسمو بهـــا أَوْجُهَـا
إذا قابَلَـتْ منهـــمُ أَوْجُهَـــا

والمملوكُ يختم هذا الجزءَ ببعض ما لهذا المملوكِ محمودٍ من الخِدَم الشريفة،تَحَرِّياً للصدق الذي لايشوبُهُ إفك،وعملاً بقول الله ــ عز من قائل ــ : « خِتامُهُ مسك »(١) فمن ذلك قولُه من قصيدة :

لي مُهجـــةٌ جفنـــاك قــد فتناهــا
وبغى العـــدوُّ أذاتَهـــا فتَنَاهَى

(١) سورة المطففين : ٢٦

ما كـــان أفتاهـــا بوصلي رحمـــةً
فمنِ الـــذي بقطيعـــتي أَفْتَاهَا ؟

آهاً لمـــا صَنَـعَ الهوى بـــل واها
فيـــه تَلَـــذُّ نفوسُنَا بلواهـــا

نَدِيَّةُ الأردانِ يفعـــم نَشْرُهـــا
فكأنَّـــهُ أوصـــافُ شاهنشاهـــا

هادي الدُّعَاةِ الأفضلُ الملكُ الـذي
فَخَرَ الزمـــانُ بما أتـــاهُ وتاهـا

قـد كان عُدم العـــدل أقنطَ أنفساً
فَجَعَلْتَهَا تَقْوَى عـــلى تقواهـا

وقولُه من قصيدةٍ أخرى :

إنِّي لأشكر بَدْرَ الخِدْرِ حينَ بَدَا
وقـــدْ تقـــاربَ حيَّانَا فحَيَّانـا

يُرضي الهَوَى والتُّقَى والعاذلاتِ فما
ينفكُّ يجمَـــــعُ إحْصَاناً وإحسانا

إن طـالما أوضَعَتْ في الغَيِّ راحلـتي
فقـد حَمَانيهِ وَصْفُ الأفضلِ الآنا

سيفُ الإمامِ الذي فَخْرُ الملوكِ بأنْ
غَدَتْ تعفّرُ في ناديـــهِ تيجـــانا [٢٠٢]

يَقْرِي العيونَ جمالاً والعُفاةَ جَدَىً
مِلءَ الأمـــانيِّ والجانـــينَ غُفرانا

أغليتَ قيمةَ هـــذا النظـــم فارتفعَتْ
وكان كَـــلّاً عـلى الأذهانِ إذْ هَانَا

فما يجورُ زمـــانٌ أنت مالِـكُــــهُ
ولا يُرَوِّعنــا ما دُمْـــتَ تَرْعَانا

قد أورد المملوك في رسالتهِ ومُخْتَصرِه ما يدُلُّ على عَجْزِه عن مُفْترطِ الخدمــةِ الشريفة وحَصَرِه ، ولا غَرْوَ أن يكونَ اجتهادُهُ متأخراً عما يلزمُ ويجِبُ ، إذ كانَ المقام الأعظَمُ ممَّا يخفِقُ كلُّ قلبٍ لمهابتهِ ويجِبُ ، واللهُ ــ سبحانه ــ يحرس عليه رأيَ مالكهِ وسلطانهِ ، ويُقرِّهُ من خـدمتهِ فيما يليق بمساكنِ مثله وأوطانه ، بجوده السابغ وإحسانه ، وفضله الغـامر وامتنانه ، إن شاء الله عزَّ وجلَّ . [٢٠٣]



(٧)

رسالة التدلي على التسلي



رِسالةٌ

سَمّاها التّدَلّي على التّسَلّي

من دلائل تَفَرُّد الله بتدبير بَرِيَّتِه ، وشَوَاهد جَرْي الأمور على إرادته ومَشيئته ، وحُجَجِ وَحْدَانِيَّته التي منْ جَحَدَها أبانَ جَهْلاً وعَنَتاً ، وبراهين ما أخْبَرَ به في قوله : « لو كانَ فيهمَا آلهةٌ إلا اللهُ لفَسَدَتا » (١) أنَّهُ سبحانَهُ يُحْمَدُ على ما يَسْلُبُهُ كَمَا يُحْمَدُ عَلى ما يَهَبُهُ ، ويُشْكَرُ عَلى مَا يُزْعِجُ وَيَضُرُّ كَمَا يُشْكَرُ عَلى مَا يُبْهِجُ وَيَسُرُّ ، فَجِيءَ القُلُوبَ ما يُحدثُ فيها انصداعاً ، وَدَهِمَ العُقُولَ ما يكادُ يُطَيِّرها شَعَاعاً ، لم يَلْفِتْها الجزَعُ عن حَمْدِه ــ جَلَّ وعزَّ وعَلا ــ ولم يَمْنَعْهَا الولَهُ من الرِّضى بقضائه ، وإنْ تحمَّلَتْ منه باهِظاً مُثْقِلا • فالحمد لله الذي لا يُحْمَدُ عَلى المكروهِ سواهُ ، ولا يخرجُ شيءٌ من مصنوعاته عن الشهادة له بأنَّهُ إلهٌ ، وصَلَّى الله على سَيِّدنا محمدٍ نبيِّه الذي حباه الشرفَ الباهرَ ، وآتاهُ الفضائلَ الجمَّةَ والمفاخِرَ ، وأحسَنَ العزاءَ لأُمَّتِه في قوله : « لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ » (٢) • وعلى أخيه وابن عَمِّه أميرِ المؤمنين عليِّ بن أبي طالب الذي تَوَلَّى

---

(١) سورة الأنبياء : ٢٢

(٢) سورة الأحزاب : ٢١

[٢٠٤] من رسولِ الله ـ صلى الله عليه ـ ما أبان به عن حُسنِ صَبرِه ، واعتزل أمورَ الدنيا جانباً إلى أن واراه ـ عليه السلامُ ـ في قبره ، مع ما تداخَلَ النفوسَ يومئذٍ من الحسرات ، وفُجِعَتْ به من الطوارق المُستَنكَرات ، حَتّى غدا ذوو الجَلَدِ في قَبْضَةِ الهَلَع مُوثَقين أُسارَى ، وظَلّوا كما قال الله ـ عَزّ من قائل ـ : « وتَرَى الناسَ سُكارَى وما هُمْ بِسُكارَى » (١) وعلى آلهما الأئمةِ الأبرار ، الذين اهتُضِموا حيث حَلّوا من الأرض وكانوا ، وظُلِموا فما وَهَنُوا لما أصابهم في سَبيلِ اللهِ وما ضَعُفُوا وما استكانوا ، إلى أن استَثمَرُوا من الصَّبْرِ استعادَةَ حَقِّهم ، وضَيَّقُوا على أعدائهم مسالِكَ طُرقِهم ، وسَلّم عليهم أجمعين تسليماً ، وزادهم تشريفاً وتكريماً وتعظيماً •

وإنّ من حكمةِ الله ـ تعالى ـ وقُدرتِه ، وخَفِيِّ علمِه في تدبير خليقتهِ ، أن جعل أهل الدنيا فيها متفاضلين ، وعند فراقها متساوين متماثلين ، إذا نَزَل بهم حَدَثُ الموت لم يَتَمَيَّزْ فيه قَوِيٌّ من ضعيف ، وإذا تَجَرّعوا كأسَهُ لم يَختَصّ بِمُرِّ مَذاقها مَشْرُوفٌ دون شريف ، وذلك يقينٌ لا مجال للشكّ فيه ، وحق لا يَطُورُ الباطل بناحية من نواحيه ، [٢٠٥] وقد أَخْلَدَتِ النفوسُ إلى صِحَّتِه وركَنَتْ ، واطمأنّتِ القلوبُ إلى حقيقته وسكَنَتْ ، لأنه أمرٌ حَتْمٌ قد عُلِمَ بالفطرة ، وغامضٌ من غَوامض الحكمة ، وسِرٌّ من أسرار القدرة ، وفي الصَّبْرِ على أَلَمِه المُوجعِ ، وترك الجَزَعِ الذي هو غير نافعٍ ولا مُنْجع ، إيضاحٌ للتذلّلِ والخشوع ، وإظهارٌ للتَّضَرّعِ والخُضُوع ، وإبانةٌ عن الإخباتِ

(١) سورة الحج : ٢

لله ـ جَلَّ وعَزَّ ـ فيما شاءَهُ ، ودلالةٌ على رضى المخلوقِ بحكمِ خالقِه فيما سَرَّهُ وساءَهُ ، وذلك مُوصِلٌ إلى السَّلوةِ بأقوَى الأسبابِ وداعٍ إلى نيلِها مع إحراز الأجر الجزيل والثواب • ومن أبَى في الرُّزءِ إلا الأسى كانَ بُكَاهُ مُنتهى جُهدهِ • وما أحسَنَ قولَ الحسَنِ البَصْري : (الحمـدُ للهِ الـذي كلَّفَنَا ما لو كلَّفَنَا غَيْرَهُ لصِرنا فيه إلى معصيَتِه ، وآجَرَنا على مالا بُدَّ لنا منه)•

يقول : كَلَّفَنَا الصَّبْرَ ، وأكلَفَنا الجزَعَ ، لم يُمكنّا أن نُقيم عليه وَأَجَرَنا على الصَّبْرِ ولا بُدَّ من الرُّجوعِ إليه •

ثم إنَّ التأَسِّيَ يُسَهِّلُ المصاعب ، ويُهَوِّنُ المصائب ، فلله ابنُ دريدٍ في قوله (١) :

وفي خُطُوبِ النَّاسِ للناس أُسَى

[٢٠٦] وإنْ كانت الخنساءُ قد غَلَبَتْ عـلى هـذا الباب في المشهور من قولها (٢) :

ولـــولا (٣) كَثْرَةُ الباكـــين حولي

عـــلى إخوانهـــم لقَتَلـــتُ نفسي

---

(١) هو عجز بيت من المقصورة ، ورواية البيت بكامله

هيهات مهما يُستَعَرْ مسترجَعٌ وفي خطوب الدهر للناس أسى

انظر ديوانه : ١٣٤

(٢) ديوانها : ١٥٢ ـ ١٥٣

(٣) في الديوان : فلولا

وما يبكــون مثـــلَ أخي ولكـــنْ

أُعَـــزِّي النفسَ عنـــه بالتأسِّي

وقد جَعَلَتِ العُذْرَ في تركها قَتْلَ نفسِها كثرةَ الباكين حولها • وأينَ هذا من قول الآخر :

ولقــد هممْتُ بقَتْلِ نفسي بعــدَهُ

أسفــاً عليــه فخِفْـــتُ ألا نلتقي

فذكر أن عِلَّةَ ما هَمَّ به من قَتْلِ نفسِه الأسفُ على مَنْ فَقَدَه ، على أنَّ ذلك في قوة قولِ الخَنْساء • وإن علةَ الامتناعِ ما جاءَ في الحديث من أن قاتلَ نفسِه في النار•وقد وَثِقَ بحُصُولِ من فَقَدَهُ في الجَنَّة ، وطمِعَ بها إذا لحقَهُ غيرَ قاتلٍ نفسَهُ • وهذا العُذرُ أَشْرَفُ من عُذرِ الخنساءِ ؛ لأنه للمخافَةِ من عَدَمِ اللقاءِ في المآل ، وعُذر الخنساءِ إنما هو للتأَسِّي •

فأما قولُ ابن الرومي (١) مناقضاً لهـــذا الباب ، وذاكراً أنَّ التأسِّيَ غيرُ مُخَفِّفٍ للمُصَاب :

وما راحةُ المَرْزُوءِ في رُزْءِ غــيرهِ

أيحمـــلُ عنـــه بعض ما يتحمَّـــلُ

وضربٌ من الظلـــمِ الخفِيِّ مكانهُ

تُعَزِّيك بالمرزُوءِ حـــين تأمَّـــلُ

(١) ديوانه (اختيار سيد كيلاني) ٤٥٧

لأنّكَ يأسُوكَ الـــذي هو كَلْمُــهُ

بــلا سَبَبٍ لو أنّ رأيك يعـــدِلُ (1)

وقوله (2) :

ومُعَــــزٌّ عن الشبــــاب مُؤَسٍّ

بمشيبِ اللّـــــداتِ والأصحــابِ (3)

قلت ـــ لمــا انتحى يَعُـــدُّ أُسَاهُ

من مصـــابٍ شَبَابُــهُ فَمُصَابِ[207]

ليس تأسو كُلُـــومُ غــيري كُلُومي

ما بــــه مــا بــهِ ، ومــا بيَ ما بي

وقولُ الآخر :

رأيــتُ التأسِّيَ ممـــا يَهِيـــجُ

عـــلى المـــرءِ ساكنَ أوصابـــهِ

وما نـــالَ ذُو أُسْوَةٍ سَلْـــوةً

ولكِـــنْ أتَى الحُـــزْنُ من بابــــه

(1) في الديوان : بلا جرم لو أن جورك يعدل .

(2) ديوانه (ط . حسين نصار) ٣٣٥ ، من أبيات يندب فيها شبابه وأولها :

يا شبابي وأين منّي شبابي ؟ آذنتني حبالُه بانقضاب

(3) في الديوان ، والأتراب

تَذَكَّرَ في مثلِهِ أو رآهُ
فأَذْكَرَهُ ما بِهِ ما بِهِ

فذاكَ من تمويهِ الفصيحِ وخُدَعِهِ ، وتَصَرُّفِ البليغِ وتَنَوُّعِهِ ، وإلا فالأولُ هو الصحيحُ الذي جاءَ في الكتابِ والسُّنَّةِ • قال الله ــ تعالى ــ : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبراهيمَ والذين مَعَهُ »(١) وقال : «لَقَدْ كانَ لكم فيهم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » (٢) •

ولولا أنَّ الاجتماعَ يُخَفِّفُ كلَّ ما ينوءُ ، والاشتراكَ يُهَوِّنُ صَعْبَ ما يَسُوء ، لما قال الله تعالى : « وَلَنْ ينفعَكُمْ اليومَ إذْ ظلمتُمْ أنكُمْ في العذابِ مُشْتَرِكون » (٣) لأنه نَفَى عنهم الانتفاعَ بالاشتراك في العَذَاب تغليظاً عليهم لما قدَّموه من الظُّلمِ •

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تأسَّوْا في مصائبكم بي) •

وذلك في كلامِ البُلَغاءِ ، ونَظْمِ الشُّعَراءِ أكثر من أنْ يُحاطَ به •

معلوم أن مالكنا الملك السيدّ الأجل الأفضل ، ونعوته والدعاء

---

(١) الممتحنة : ٤

(٢) الممتحنة : ٦

(٣) الزخرف : ٣٩

له [.........] (١) سَيِّدُ مُلُوكِ الزَّمن ، ومن فاز بجزيلِ [٢٠٨] ثَوَابِ اللهِ في حَالَتَيْ المَسَرَّةِ والحَزَنِ . أمَّا المَسَرَّةُ؛ فلأنَّهُ يشمل بها جميع عَبيدهِ ورَعِيَّتِهِ ، ويستخلِصُ دعاءَ كلٍّ منهم بكريم فِعْلِهِ وجميل نِيَّتِهِ ، وأمَّا في الحَزَنِ ؛ فإنَّهُ يَسْتَعْمِلُ حُسْنَ الصَّبْرِ في الأُمورِ التي لا حيلة في دَفعِها ، وَيَدُلُّ بذلك على استحقاقِه ما خَصَّهُ اللهُ بهِ من إعلاءِ المنزلةِ عندَهُ وَرَفْعِها ، لا يُرى في العَظَائمِ إلا صابراً مُسْتَرجعاً . ولا يَنْفَكُّ وَجْهُهُ إلا مُسْفِراً وإنْ كانَ مُتَوَجِّعاً مُتَفَجِّعاً، إذا نازَلَهُ هَمٌّ لقِيَهُ من الرِّضَى والتسليم بالجيشِ اللَّجِبِ المَجْرِ ، وإذا سَمَا إليه خَطْبٌ عَرَفَ شَرَفَ ما ينالُهُ في الصَّبْرِ عليه من جزيلِ الأَجْرِ ، على أنَّ مَحلَّهُ أَعْلى وأعظَمُ من أنْ يكونَ من الأقدارِ إلا مخدَوماً ، ومكانَهُ من اللهِ ــ جلَّ وعزَّ ــ يكادُ يجعله من الأمور الحَتْميَّةِ مُوَقًّى مَعْصُوما . ولمَّا طُرِق ــ خَلَّدَ الله ملكَهُ ــ بالحادثِ الجَلَلِ ، ودُهِمَ بالرُّزْءِ الذي لولاهُ لَرُمِيَ عَرْشُ المملكةِ بالثلل ، من وفاة أخيهِ من جهة نسبتهِ ، ووَلدِه لكفالته إيَّاهُ وتربيتهِ :

ومن كان يَسْتَعْفي الإلهَ إذا اشتكى

من الأجر في الشكوى وإن عَظُم الأجر

الأجَلّ المُظَفَّر ، سيف الإمام ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين ، الذي حلَّت وفاتُهُ من كلِّ عين عَقْدَ وكائِها ، وأَجْرَى فَقْدُهُ سواد النواظر [٢٠٩] في نجيع

---

(١) في الأصل بياض بمقدار كلمة .

بكائها . وبَغَتَ القضاءُ فيه بأَجْوَرِ حُكْمِهِ ، وأَنْكَرِ فعلِهِ ، وشُوهِدَ من يومِهِ الأَنْكَدِ الشنيعِ ما لم تتمخَّضِ المَنُونُ بمثلهِ :

ما إنْ سَمِعْنَا بطَوْدٍ قَبْلَهُ طَفِقَتْ
أناملٌ تتهادَاهُ ورَاحَاتُ

تنافسَتْ أَعْيُنُ الباكينَ حين بَكَوْا
كأنَّمَا أعْيُنُ الباكينَ ضَرَّاتُ

ولقد عَفَّتْ منيَّتُهُ سبيلَ التماسُكِ والجَلَدِ ، وأتَتْ غبطَتُهُ بما لم يَجْرِ في الخاطرِ ولا جَالَ في الخَلَدِ ، لأنَّهُ ـ قَدَّس اللهُ روحَه ـ صار إلى رَحْمةِ اللهِ ورضوانِهِ ، وانتقَلَ إلى جوارِهِ وسُكْنَى جنانِهِ ، وهو في ريعانِ عُمرِهِ وأوَّلِهِ ، وشَرخِ شبابِهِ ومستقبلِهِ ، مع حُسْنِ تركيبِهِ وبِنيتِهِ ، والحكماء في خدمتِهِ وتدبيرِ صِحَّتِهِ :

بنفسيَ مولى أسْلَمَتْهُ عَبِيدُهُ
ومرتحِلٌ لم ينتظِرْ أنْ يُوَدَّعَا

لقد راضَهُ الموتُ الكريهُ مذاقُهُ
ولو لم يُرَضْ لم يَرْضَ بالأرضِ مَضْجَعَا

ولا اتَّخَذَ الغَبْرَاءَ دارَ إقامةٍ
وقد كانَ مَثْواهُ من النَّجمِ أرفَعَا

فلستَ ترى إلا مختنقاً بِعَبْرته ؛ مُتَنَفِّساً عن نار حَسْرته ، عادماً لسُكُونه وَصَبْره ، باكياً على انقطاع أمله ، وانفصام ظَهره :

والناسُ مأْتَمُهُمْ عليه واحِدٌ
في كلِّ دارٍ رَنَّةٌ وزَفيرُ

فما يغتبطُ بدُنْياه مَنْ تأمَّلَ هذا الحَيْن ، ولا يأمن فيظَ [1] النفس [٢١٠] إلا من طمِعَ بالصَّبر وأينَ وأينَ ؟

وكلُّ أسى لا تذهبُ النَّفْسُ بعدَهُ
فما هُوَ إلا من قَبيلِ التَّصَنُّعِ

ولئن مَضَى إلى جوار اللهِ الكريم ، وانتقلَ إلى ما أُعِدَّ لهُ من النَّعيم المُقيم ؛ فللكَافَّةِ من مالكها ـ ثَبَّتَ الله دولتَهُ ـ مَنْ دوامُ ظِلِّه مُسَلٍّ عن كلِّ مُوَلٍّ ، وبقاؤُهُ مُحْسِنٌ الخَلَفَ عن كلِّ من مَضَى وسَلَف :

لم يَستحقَّ الدهرُ كونَكُمَا معاً
فيه فَعَوَّضَ قاطِناً بِمُوَدِّعِ

واللهَ يجعَلُ كلَّ الأعمار زيادَةً في مُدَّته وعُمْره ، ويجيب فيه ما يرفَعُهُ الحريصُ في سرِّه وجَهْره • بكرمه ، وطَوْله ، وقُدْرَته وفَضْله •

---

(1) الفيظ : الموت

ولمّا كانَتْ خِدْمَةُ مجلسِهِ العالي ـ ثَبَّتَ اللهُ سلطانَهُ ـ فرْضاً على عَبيد مملكته ، وحَقّاً لاعُذْرَ في التَّخَلُّف عن تأديته ، وقد صَنَعَ شُعَرَاءُ المقامِ الأشرف ـ ضاعفَ اللهُ سعودَهُ ، ونَصَرَ أحزابَهُ وجنودَهُ ـ في هذا البابِ ما أرْبَوْا فيه على من سَبَقَهُمْ ، وآيَسُوا غيرهم من أنْ يلحقَهُمْ ؛ بادرَ المملوكُ بهذه الخدمة ، وأنشأ ما يأتي ذِكْرُهُ في هذه الحادِثَةِ المُلِمَّةِ على ما هو عليه من الحالِ التي ضَلَّت معها العقول ، وحَجَزَتِ الأحزانُ فيها بين القائلِ والمَقُول .

والذي صَنَعَهُ المملوك : [٢١١]

إن كان الدَّهْرُ قد فَجَعَنِي بفادِحِ المُصيبةِ ، ورَمَى بسهامه المُصْمِيةِ المُصيبَةِ ، وبالَغَ في الفجيعةِ الفظيعةِ ، وسَعَى بين الأرواحِ والأجسامِ بالفِراقِ والقطيعة ، وطرقَ من المُصَابِ بالأَجَلِّ المُظَفَّرِ ـ كرَّمَ اللهُ مثواهُ ـ بما مَنَعَ الطَّرفَ وسَنَهُ ، وفَتَحَ من الصَّبرِ مُسْتَحسَنَهُ ؛ فما حَكَّمَ مُداهُ إلا في مفاصِلِه ، ولا مكَّنَ ظُبَاهُ إلا من مقاتِلِه ، ولا سَطَا إلا على قَمَرِه المُنيرِ فأخْفَاهُ ، ولا عَدَا إلا على رَوْنَقِهِ المُونِقِ فَطَمَسَهُ وعَفَّاه :

إنْ خـــانَ فيه الدهرُ عنــدي إنمــا
في نقصِــهِ وعـــلى محاسنِــهِ سَعَى

في كـــلِّ يومٍ عَثْرةٌ من صرفِـــهِ
لا تُسْتَقَالُ بأنْ يُقَالَ لهــا : لَعَا

فيا للهِ ! ما أعجَبَ فِعْلَهُ ، وأبينَ جَهْلَهُ ، وأقبَحَ إساءتَهُ إلى نفسِهِ ، وأشنَعَ سَوادَ يومِهِ بَعْدَ بياضِ أمسِهِ :

يومٌ أظَلَّ بغمّةٍ لا ينثني فيها الهُدَى وبغمّةٍ لا تنجلي

وأعجَبُ من ذلك انطلاقُ الأيدي بعده ـ شَرّف الله ضريحَهُ ـ بتحقيق خَبَرِ فَقْدِه ، والإقدام على التّعزية عنهُ وقد عُدِمت العقول من بعده ، فوا لهفَاهُ على مُضيّه وذهابِه ! ووا أسَفَاهُ على ما فَعَلَهُ الدهرُ ، ودهَى به ! ووا حَسْرَتاهُ ! ما أمَرَّ العيشَ لما مَرَّ ! ووا حربَاهُ ! لقد أساءَ القدَرُ فيه بعد ما سَرَّ : [٢١٢]

لئن حَسُنَتْ فيه المراثي وذِكْرُهَا
لقد حَسُنَتْ ـ من قبلُ ـ فيه المدائحُ

ولله مطيع بن إياسٍ في قوله (١) :

يا أهْلِ ، بَكّوا لقلبيَ القَرِحِ
ولِلدُّموعِ الهَوامِلِ السُّفُحِ

يا خَيْرَ من يَحْسُنُ البكاءُ له الـ ...
... يومَ وإن كانَ أمسِ للمِدَحِ

ومَعَ هذه الحال فلَيْسَ إلا التسليمُ والرّضى ، والتّقبّلُ لما حكَمَ اللهُ به وقَضَى ، والتّصَبّرُ وإنْ كانَ عن لا تجِدُ النفوسُ منه عوضاً . على أنّ النعمة بالمقام الأعظمِ المالكي ـ ثَبّتَ

(١) البيتان في الأغاني (ط الثقافة) ١٣/٢٩٠ ، وهما من أبيات في رثاء يحيى بن زياد ، وانظر شرح الحماسة للمرزوقي : ٨٥١ ، وفي وفيات الأعيان : ٤/٩٠ البيت الثاني فقط .

اللهُ سلطانَهُ ـــ قد ألانَتْ قلوباً على الدَّهرِ قاسية ، والموهِبَةَ في امتداد ظِلِّهِ قد غَدَتْ مُصْلِحَةً لهذا الكَلْمِ آسِيَةً :

صَبَرْنَا على حُكْمِ الزمانِ الذي سَطَا
على أنَّهُ لولاكَ لم يُمْكِنِ الصَّبْرُ
عَرَانَا بِبُؤسَى لا يُماثِلُهَا الأسَى
وإِنَّكَ نُعْمَى لا يقومُ بهَا الشكرُ
فأوجَبَتِ الأولى الملامَ فَلَمْ يُلَمْ
وأنَّى له لَوْمٌ وأنتَ له عُذْرُ !

فالحمد لله الذي جعَلَ المقامَ المالكيَّ الأفضليَّ مُسْتَسْقياً للدِّماء ، مُجَدِّداً ملابسَ النَّعماءِ ، مُسْتَقِرَّةً به الرَّأْفةُ في الأرضِ كما استقرَّتْ الأدعيةُ في السَّماءِ ، وضاعَفَ اللهُ للأمَّة بتخليد مُلكهِ ضُروبَ المِنَنِ ، وجَعَلهُ من حوادثِ الدَّهرِ في أَمْنَعِ المعاقِلِ وأحْصَنِ الجُنَنِ ، بِمَنِّهِ ، وطَوْلِهِ ، وقُدْرَتِهِ ، وحَوْلِهِ .

[٢١٣] والمملوكُ يَتْبعُ ذلك بلُمْعةٍ من أَحْسَنِ ما يَرْويهِ المتأخرين في بابِ التعازي نظماً ونثراً . على أنَّ منها ما يُلْهِبُ في الضُّلوعِ ناراً ، ثم يَسْتَخْرِجُها من العُيونِ أدمعاً غِزاراً :

يا عجباً من حُرَقَاتِ الجَوَى
تَصْعَدُ نيراناً وتَجْري مياه (١) !

(١) البيت لابن شرف القيرواني ، وقد ورد مع بيت آخر قبل صفحات ، وسبق تخريجه ، وكان برواية : حرقات الهوى .

والناسُ ــ وإنْ رغّبوا في التسلّي ، وحثّوا على حُسْنِ التّعزّي ؛ عالمون أنّ في إفاضة الكئيبِ لدمعتهِ ما يُذْهِبُ من لوعتهِ ، وفي إرسالهِ لعبرتهِ ما يُعينُه على سَلْوَتهِ .

يُروَى عن سليمانَ بنِ عبد الملك أنه قال ــ عند مَوْتِ ابنه أيّوب ــ لعمرَ بن عبد العزيز ورجاءِ بن حَيْوَةَ : إني لأجِدُ في كبدي جَمْرةً لا تُطْفِئها إلا عَبْرَةٌ ، فقال عمر : اذكرِ اللهَ يا أمير المؤمنين ، وعليك بالصّبر . فنظر إلى رجاءِ بن حَيْوَةَ ــ كالمُستريحِ إلى مَشُورتهِ ــ فقال رجاءٌ : أفِضْها يا أمير المؤمنين فما بذاك من بأسٍ ؛ فقد دمَعَتْ عَيْنا رسولِ الله ــ صلى الله عليه وسلّم ــ على ابنهِ إبراهيمَ ، وقال : تَدْمَعُ العينُ ، ويحزَنُ القلبُ ، ولا نقول ما يُسْخِطُ الرّبّ ، وإنا عليك يا إبراهيمُ لَمَحْزُونُون . فأرسل سليمانُ عينَهُ فبَكَى حتّى قَضَى أَرْباً ، ثم أقبَلَ عليهما ، فقال : لو لم أَنْزِفْ هذه العبرةَ لانْصَدَعَتْ كَبدي . ثم لم يَبْكِ بعدَهَا ، لكنّهُ لمّا دفَنَهُ ، وحثا عليه التّرابَ [٢١٤] قال: يا غلامُ ، دابّتي، ثم التَفَتَ إلى قبرهِ ، فقال متمثّلاً(١) :

وَقَفْتُ عـــلى قبرٍ مُقيمٍ بقَفْرَةٍ
مناخٌ (٢) قليـــلٌ من حبيبٍ مُفَارقِ

فمن مليحِ هذا الباب قولُ الشّريف الرّضي (٣) :

(١) القصة والبيت في كتاب التعازي والمراثي : ١٤٤ ــ ١٤٦

(٢) في التعازي : متاع قليل ...

(٣) ديوانه : ٢/٢٠٢ ، وهما من قصيدة يرثي فيها الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عباد ، ومطلعها :

أكذا المنونُ تقنطرُ الأبطالاَ أكذا الزمانُ يضعضعُ الأجبالا

خَبَرٌ تَمَخَّضَ بالأَجِنَّةِ ذكـــرُهُ

قتَلَ النفوسَ (١) وأسلف البلبا [لا] (٢)

الشكُّ أبــــرد للحشَى في مثــلهِ

يا ليتَ شَكِّي دامِ (٣) فيه وطا [لا] (٤)

ينظر إلى هذا المَعْنى قول مهيار (٥) :

كم قـــد تَعَلَّلَتِ المُنَى بك تــارةً

أمنٌ ، وطـــوراً خيفَةٌ وحِـــذَارُ

وتخالفَتْ فيكَ الرُّواةُ فَسَـــرَّني

وتَلَوَّنَتْ بحـديثِكَ الأخبـــارُ

ولقـــد ظنَنْتُ بهـــا وراءَ لثامِهَا

خـــيراً ، فكشَّفَ قبْحَهَا الإسفارُ

(١) في الديوان : قبلَ اليقينِ

(٢) طمس في الأصل ، والزيادة من الديوان

(٣) في الديوان : فيه دام

(٤) طمس في الأصل ، والزيادة في الديوان

(٥) ديوانه : ١/٤٢٤ ، والأبيات من قصيدة يرثي بها الصاحب أبا القاسم ابن عبد الرحيم ومطلعها :

منْ حاكمٌ وخصوميَ الأقدارُ كثُرَ العَدُوُّ وقلّتِ الأنصارُ

ما كنتَ أولَ كوكبٍ نَزَلَ الــدُّنَا
وسَمَـا إلى نُظَرائــهِ فَتَعَـالى (١)

لا رُزْءَ أعظَـمُ من مصابك إنَّـهُ
وَصَلَ الـدموعَ وقَطَّعَ الأوصَالا

ألا أقالَتْكَ الليــالي عَثْــرةً
يا مَنْ إذا عَثَرَ الزَّمــانُ أقالا

لِمَنِ الصَّوارِمُ عُرِّيتْ أمطاؤُهَا
حَوْلَ الخِيَامِ تنـازِعُ الأطوَالا (٢)

بُدِّلْنَ من لُبْسِ الشَّكيمِ مقاوِداً
مربوطَــةً ومن السُّرُوجِ جِـلالا

فُجِعَتْ بمُنْصَلِتٍ يُعَرِّضُ للقنـا
أعناقَهـا ، ويُحَصِّنُ الأكفـالا

★ ★ ★

وهذا من قَوْلِ أبي الفرج البَبَّغَاء (٣)

---

(١) انتقل المصنف انتقالاً مفاجئاً من أبيات مهيار الى هذه الأبيات اللامية السابقة التي هي للشريف الرضي كما في ديوانه : ٢/٢٠٢ ــ ٢٠٣ .

(٢) في الديوان : لمن الضوامر ..... الأمطالا

(٣) ورد البيت في اليتيمة : ١/٢٨٣ ، مع بيتين آخرين ، وقد سبق تخريجه

يلقى الطّعـــان بصدرٍ منـــه ليس له

ظهرٌ وهَادِي جوادٍ ما له كَفَـــلُ

★ ★ ★

إنْ طوّحَ الفَعَّـــالَ دَهْرٌ ظالـمٌ

فلقَـــدْ أقـامَ وخلّـدَ الأفعـــالا (١)

طلبوا التّراثَ فلم يَرَوا من بعـــده

إلا عُـلى وفضائِلاً وجَـــلالا [٢١٥]

هيهـات فاتَهـُــمُ تراثُ مُخاطِرٍ

حفِظَ الثّنَـــاءَ وضَيَّعَ الأَمْوالا

قد كان أعرَفَ بالزمـــانِ وصرفه

من أنْ يُثَمِّرَ أو يُجَمِّـــعَ مالا

وأَرَى الكمال جَنَى عليـه لأنّهُ

غَرضُ النوائبِ من أُعـــير كمالا

صَلّى الإلــهُ عليك من مُتَوَسِّدٍ

بعـــد المِهَـــادِ جَنَادِلاً ورمالا

طرَحَ الرّجـــالُ لك العمائمَ حَسْرَةً

لمَّا رأوكَ تَسِيرُ ، أو إجـــلالا

---

(١) الأبيات من القصيدة السابقة للشريف .

يريـد : حسرةً وإجـلالا ، وأو ها هنا بمعنى الواو ؛ قال الله ــ تعالى ــ : « ولا تُطِـــعْ مِنْهُـمْ آثِـماً أَوْ كَفُورا » (١) ،
وقال الشاعر (٢) :

أتَى الخلافَةَ أو كانَتْ له قَـدَراً
كما أتى رَبَّهُ موسى عـلى قَدَرِ

وقال آخر :

وقد زَعَمَتْ ليـلى بأنّي أُحِبُّها
لنفسي تُقَاها أو عليهـا فجورُها

وقال مهيار (٣) :

كنتَ خبيئاً ترقُبُ الأيـامُ في
ظهـورِه (٤) الميقـاتَ أو تراصِدُ

---

(١) الانسان : ٢٤

(٢) البيت لجرير ، انظر ديوانه : ١/٤١٦ ، وروايته هناك :
نال الخلافة إذ كانت له قدراً
وهو من قصيدة يمدح بها عمر بن عبد العزيز ، مطلعها :
لَجَّتْ أمـامةُ في لومي ومـا عَلِمَتْ
عَـرْضَ السماوة روحـاتي ولا بُكَـري

(٣) ديوانه : ١/٢٩٤ ، وهو من قصيدة كتب بها في النيروزة الى أبي الحسن جابر يهنئه وينتصِرُه على قوم كان يستضرُ بمعاملتهم في معيشته له ، وأولها :
جَمَّ لها الوادي وعَزَّ الذائد — وطابَ ما حَدَّث عنها الرائدُ

(٤) في الديوان : إظهاره

ولا يصحُّ الوزنُ بالواو ؛ لأنَّ الكفَّ لا يجوز في الرجز •

قالوا ــ وقد فُجِئوا بنعشِكَ سائراً ــ

من مَيَّلَ الجَبَـلَ العَظيم فمـالا (١)

وهو يُكثر من هذا المَعْنى كقولِه (٢) :

أتنظـر كيف تَسْفَـعُ بالنَّواصي

ليالينـا وتعثـر بالجبـالِ

وقولـه (٣) :

جَبَلٌ هَوَى لو خَرَّ في البَحْرِ اغتدى

من وقعِـهِ مُتَتَابِـعَ الإزْبـادِ

ما كُنتُ أحسبُ (٤) قَبْلَ حَطّكَ في الثَّرَى

أنَّ الثرى يعلـو عـلى الأطـوادِ

وقولـهِ (٥) :

إنْ كـانَ ذاكَ الطَّوْدُ خَرَّ فبعدما استَعْلَى طويلا[٢١٦]

---

(١) البيت من قصيدة الشريف الرضي السابقة •

(٢) لم نجده في ديوان الشريف الرضي

(٣) ديوان الشريف : ١/٣٨١ ، من قصيدة يرثي بها أبا إسحاق إبراهيم ابن هلال الصابيء ومطلعها :

أعلمتَ مَن حَمَلُوا على الأعـوادِ

أرأيتَ كيف خبا ضيـاءُ النـادي

(٤) في الديوان : أعلم •

(٥) ديوانه : ٢/١٩٤ ، وهو مطلع قصيدة له يذكر فيها أيام الخليفة الطائع لله لما خلع ويرثيها •

وقوله دعاءً لمريض (١) :

لا زَعْزَعَتْكَ الخُطوبُ يا جَبَلُ •

وقولـــه (٢) :

أيُّ طـــودٍ لك من أيِّ جبـــالِ
لَقِحَتْ أرضٌ بهِ بعـــد حِيَالِ

ما رَأَى حَيًّا (٣) نزارٍ قَبْـــلَهُ
جبـــلاً سارَ عـــلى أيدي الرِّجـال

ومن مليح مافي هذه القطعة :

عجبـــاً أصبحـــتُ للضَّيـــم وما
نَثَـــر الطَّعنُ أنابيـــب العَـــوالي

لا أرى الدَّمْـــعَ كِفَـــاءً للجوى
ليس أنَّ الدَّمْـــعَ من بعـــدك غالي

وبرغمي أنْ كسَوْنـــاك الثَّـــرى
وفرشْنَـــاك زرابيَّ الرِّمـــال

---

(١) ديوانه : ٢/١٣١ ، وهو صدر مطلع قصيدة قالها في الملك قوام الدين ، وقد ورد الخبر بشكاة عرضت له ، ثم نهض منها واستقل ، والبيت بتمامه :

لا زعزعتك الخطوب يا جَبَلُ   وبالعدا حلَّ لا بك العِلَلُ

(٢) ديوانه : ٢/١٩٧ ، وهما مطلع قصيدة يرثي فيها الخليفة الطائع لله •

(٣) في الديوان : حيُّ نزار

وهَجَرْتَاكَ عــلى ضنٍّ الهَــوَى
رُبَّ هجرانٍ على غـيرِ تَقَــالِ

كــلُّ مأسورٍ يُرَجَّى فَكَّــهُ
غيرَ من أصْبَحَ في قيدٍ (١) الليالي

لا تَقُــلْ تلك قبــورٌ إنَّمــا
هي أَصْدافٌ عــلى غُــرٍّ (٢) لآلي

وقولــه أيضاً (٣) :

أرواحُنَــا دَيْــنٌ وما أنفاسُنَا
إلا قضاءٌ والزمــانُ غَريمُهــا

لم يشفَعِ الدهرُ الخَؤُونُ لمُهْجَــةٍ
في العُمرِ إلا عــاد وهو خَصِيمُها

يا دَهْرُ كم أسْهَرْتَ (٤) لي من ليلة
قد كُنْتُ قبْــلُ ، أنامُهَا وأُنِيمُهَا

---

(١) في الديوان : في قيد

(٢) في الديوان : على غير .

(٣) ديوانه : ٢/٤٠٦ ـ ٤٠٨ من قصيدة يُعَزِّي فيها الوزير أبا منصور محمد بن الحسن بن صالح عن والدته ، ومطلعها :

هي ما علمتَ فهــل تَرُدُّ همومُهَــا
نُوَبٌ أراقِــمُ لا يُبِــلُّ سليمُهَــا

(٤) في الديوان :

كم أسهرتني . . . . قد كنت فيك . . . .

إنْ كان رُزْؤكَ ذا جسيماً فالـــذي

يُنْمَى إليك من الأمورِ جَسيمُهَـا

فَتَعَزَّ (١) ، إنَّ من العَزَاءِ شجاعـةً

وأجَــلُّ (٢) ما عَزَّى نفوساً خِيمُهَا

وقولـــه أيضاً (٣) :

إنَّ المنـايا مُعـــدَّاتٌ (٤) لأنفُسِنَا

وإنْ أُمِــــدَّتْ بأعــوامٍ وأعــوامِ

نسعَى بأقدامِنَا عنهـــا فَتُدرِكُنَا

سَبْقَ الجيـــادِ وما تسْعَى بأقدامِ

مالي بِطَيِّ الليـــالي غـيرَ مُكْتَرِثٍ

وما ورائيَ منهـــا كانَ قُـــدَّامي ؟! [٢١٧]

إنَّ الحياة وإنْ عَزَّتْ (٥) مخائِلُهـا

ظِلٌّ ، وإنَّ المُنَى أضغاثُ أحـــلامِ

(١ـ٢) في الديوان : وتعزَّ ، وأعزُّ ..

(٣) ديوانه : ٢/٤١٣ ، والأبيات من قصيدة يرثي بها الملك أبا الفوارس شرف الدولة ابن عضد الدولة ومطلعها :

هـــل كـــان يومك إلا بعـــد أيامِ

سَبَقَتْ فيهـــا بإنعـــامٍ وإرغـــامِ

(٤) في الديوان : مُغِرَّات

(٥) في الديوان : غرَّت

نامي البقـــاءِ إلى الـذاوي تـُراجِعـُه
كـــلا ، وما يرجعُ الـذاوي إلى النامي

وقولـــــه (١) :

نغـــالِبُ ثـم تغلبنــــا الليــــالي
وكـــم يبقى الرميُّ عـــلى النّبَــالِ

ونطمَـــعُ أنْ يَمَـــلَّ من التقاضي
غريـــمٌ ليسَ يَضْجَرُ بالمِطَـــالِ

يحطُّ السيلُ ذِروَةَ كـــلِّ طَـــوْدٍ
ويُهْوِنُ (٢) بالجنادِلِ والرِّمـــالِ

هي الأيـــامُ جـــائرةُ القَضايــــا
وملحِقَـــــةُ الأواخِـــرِ بالأوالي

ولأبي الفرج الببغاء :

خَلَفَ المــــدائحَ بعدَكَ التأبـــينُ
عن أيِّ حادثـــةٍ يُعزَّى الــــدينُ

ما كان في الـدنيا كيومِكَ مَشْهَـــدٌ
بَهَرَ العقـــولَ ، ولا أراهُ يكـــونُ

---

(١) ديوانه : ٢/٢١٢ ، والأبيات مطلع قصيدة يرثي بها تقية بنت سيف الدولة علي بن حمدان بن عبد الله بن حمدان ...

(٢) في الديوان : رُهوناً

لم يُبْقِ مَحْذُوراً فكــلُّ مصيبةٍ
جَلَلٌ لديهِ ، وكــلُّ خطبٍ دونُ

قَــرَّتْ عُيونُ المشركــين وطالمــا
قَــرَّتْ بـه للمسلمــين عيــونُ

ولابن مُعَلَّى الأندلسي (١) :

أمعتنِقَ الصَّعيد وكــانَ يَغْــدُو
عليــهِ وهو معتقِــلُ الصِّعــاد

أرى لُبْسَ الحِــدَادِ عليك ِممَّــا
يَشُقُّ عــلى المُهَنَّدةِ الحِــدادِ

ومن كلام الوزير أبي القاسم بنِ المغربيِّ :

ولقد سمعتُ نبأً من هذا الحادثِ الرائع ، وذَرْواً من هذا الخبرِ المكروهِ الطَّلائــعِ ، فكنتُ كالظَّبي أفزَعَهُ القَنَّاصُ ، وكالهارب لاحَتْ له الأشخاصُ ، فدافَعْتُ بتصديقهِ ، وتصامَمْتُ عن تحقيقِهِ ، فلمَّا صَرَّحَ [٢١٨] مَخْضُ الاستخبار عن محضِ الحِذار ، فَقَدْتُ الحِسَّ فلا أدَّعي ألماً ، وذقْتُ سُكونَ الموتِ فما أشتكي سَقَماً ، وغرِقْتُ في أمواجِ الوساوِسِ ، وضــعِتُ

(١) هو الشاعر أبو إسحاق ابراهيم بن مُعَلَّى الأندلسي أحــد شعراء الذخيرة وترجمته فيها : ٣/٨٤٠ ، والبيتان هناك من قصيدة رثاء طويلة أولهــا :

فلا تَغْرُرْك بهجة مستحيلٍ   إذا ما الجمر عاد الى الرماد

بين أجبالِ الهواجس ، فلقَدْ كنتُ يومئذٍ ــ وكُلَّ يومٍ يومئذٍ ــ عجباً لِمُعْتَبِرٍ ، ومثلاً لِمُفْتَكِرٍ .

فأمّا قوله : دافَعْتُ بتصديقه ، وتصامَمْتُ عن تحقيقه ، فهو من قول أبي الطَّيِّب (١) :

طوَى الجزيرةَ حتى جاءني خَبَرٌ
فزِعْتُ فيه بآمالي إلى الكذب

وقد أخَذَهُ ابن سَعيد الحلبي (٢) ، فقال ، وأحسَنَ :

أتاني وعَرْضُ البيد بيني وبينَهُ
حديثٌ لأسرارِ الدُّموعِ مُذِيعُ
تصامَمْتُ عن راوِيهِ حتى أرَبْتُهُ
وإني على ما غالني لسميعُ

ولمّا سمِعَ ابن مكْنسة إذاعةَ سِرِّ الدموع قال :

دعوها تَفِضْ بَعْدَ دَمْعٍ نَجِيعا
نَهَاهَا النُّهى فأبَتْ أنْ تُطِيعا

---

(١) ديوانه : ١/٨٧ ، من قصيدة يرثي بها اخت سيف الدولة ــ وقد توفيت بميافارقين ــ ومطلعها :

يا أختَ خيرِ أخٍ يا بنت خيرِ أبِ
كناية بهما عن أشرف النسب

(٢) هو ابن سنان الخفاجي

وسِرٌّ تَبَدَّدَ في عَبْرَةٍ
وكنتُ جمعْتُ عليه الضّلوعَا

ومن قطعة ابن سعيد :

فَلَهْفي على الآمالِ فيك فإنَّها
ثوابتُ لم يُقْدَرْ لهُنَّ شروعُ

وعزَّ على ساري الدُّجَى أن يجوبَهُ
وما لك من بين النجوم طلوعُ

ألومُ عليك الوَجْدَ وهو مُبَرِّحٌ
وأعتِبُ فيك الدَّمْعَ وهو نَجِيعُ

وأعلمُ أنّي ما منحتُكَ طائلاً
وهَلْ هي إلاّ زفرةٌ ودموعُ

وقول الوزير : فلقد كنتُ يومئذٍ ـ وكلّ يومٍ يومئذٍ ـ [٢١٩] فالأصلُ فيه قولُ الأضْبَطِ بن قُرَيع ـ وكان سَيِّدَ بني سَعْدٍ ، وكانوا يؤذونَهُ ، فلما انتقلَ عنهم رأى غيرهم يَفْعَلُ فِعْلَهُم ، فقال ـ : بكلِّ وادٍ بنو سَعْدٍ (١) . فذهبَتْ مثلاً .

وأخَذَ هذا المَعْنى مُتَمِّم بن نويرة ، فقال يرثي أخاهُ مالكاً (٢) :

(١) انظر الخبر والمثل في البخلاء : ١٨٩

(٢) من أبيات الحماسة : ٧٩٧ ، وقبلهما بيت ثالث ورواية الأبيات :

وقالوا : أتبكي كــــلَّ قبرٍ رأيتَهُ
لقبرٍ ثوَى بـــين اللِّوى فالــدكادكِ

فقلتُ لهـــم : إنَّ الأسى تبعث الأسى
دعـــوني ؛ فهـــذا كلُّهُ قبرُ مالكِ

وقال الحجَّاج في خُطبةٍ له :

يا أيها الرجلُ ـ وكلكم ذلك الرجل ـ ...

ولأبي تمام (١) في هذا المعنى :

فلا تَحْسِبَنْ (٢) هنداً لها الغدرُ وَحْدَها
سجيةَ نفسٍ كــلُّ غانيـــةٍ هِنْــدُ

لقــد لا مني عنــد القبور عــلى البكــا
رفيقي لتــذراف الدمـــوع السـوافك

فقـــال : أتبكـي كــل قبــر رأيتَــهُ ؟
لقبــرٍ ثوى بين اللـــوى فـالـدوانك

فقلتُ له : إنَّ الشَّجــا يبعث الشجــا
فدعني فهــــذا كلُّــــه قبرُ مالك

وردت الأبيات في الوفيات : ٦/١٧

(١) ديوانه : ٢/٨١ ، وهو من قصيدة يمدح بهـا محمد بن الهيثم بن شُبَانة ، مطلعها :

تَجَرَّع أسى قــد أقفَرَ الجَرَعُ الفَرْدُ
ودَعْ حِسْيَ عَيْنٍ يحتَلِبْ ماءها الوجدُ

(٢) في الديوان : تَحْسَبَنْا

وللبحتري (١) :

بَلَوْتَهُمُ واحِداً واحِداً   فكلّهُمُ ذلك الواحِدْ

ومن أحسن ما خُوطب به المُعَزّى قولُ أحمدَ بنِ سليمانَ (٢):

جاءكَ هـذا الصَّبْرُ (٣) مستجدياً
أَجْرَكَ في الصَّبْرِ فـلا تُجْدِهِ

سَلِّمْ إلى اللهِ فكلُّ الذي
ساءكَ أو سَرَّكَ من عندِهِ

إنَّ الـذي الوحشةُ في دارِه
تؤنِسُهُ الرَّحْمَةُ في لَحْدِهِ

ولمهيار (٤) :

كلحَ الصَّبَاحُ بموتـهِ عن ليلةٍ
نَفَضَتْ على وجهِ الصَّباحِ ظلامَها

---

(١) لم نجده في ديوانه

(٢) أبو العلاء المعري . والأبيات في ديوانه (سقط الزند) ٣/١٠٢٦ـ ١٠٢٧

(٣) قال في الحاشية : (أظنه الرزء) وفي الديوان : الحزن .

(٤) ديوانه : ٣/٣٦٧ . وهما من قصيدة يرثي بهـا الشريف الرضي ، مطلعهـا :

من جَبَّ غاربَ هاشم وسنامها   ولوى لؤَيا فاستزل مقامها

فلئن مَضَى بِعُلاهُ (١) دَهْرٌ صانَها

فلقد أتَى بِرَداهُ يومٌ ضامَها

وتَصَرَّفَ في معنى البيت الأول، فقال (٢) :

صَبَغَتْ وفاتُكَ فيه أبيضَ فجرِه

يا لَلعيُونِ من الصَّباحِ الأسْودِ [٢٢٠]

ثم قال (٣) :

ولئن غَمِزْتَ من الزمان بلِيِّنٍ

عن عَجْمِ مِثلكَ أو عُضِضتَ بأدردِ

فالسيفُ يأخذُ حُكمَهُ من مِغْفَرٍ

وطُلىً، ويأخُذُ منه سِنُّ المِبْرَدِ

وأخَذَ هذا المعنى الخفاجي فقال :

لِتَطُلْ ليالي الدَّهْرِ بعدكَ إنه

سِيَّانَ بينَ صباحِهِ وظلامِهِ

---

(١) في الديوان : بعلاك .

(٢) ديوان مهيار : ١/٢٥١ ، وهو من قصيدة في رثاء الشريف الرضي مطلعها :

أقريشُ، لا لفمٍ أراكِ ولا يدِ

فتواكلي، غاض النَدى وخلا النَّدِي

(٣) من القصيدة السابقة

سَوَّدْتَهُ في ناظِرَيَّ كأنَّما
خَلَعَتْ لياليهِ على أيامهِ

وقال :

أشكو فراقَكَ ثم أعلَمُ عندَهُ
أنَّ السَّبيلَ إلى لحاقِكَ مَهْيَعُ

وألومُ طولَ اللَّيْلِ أرقُبُ فَجْرَهُ
أو ما ظلامُ الليلِ بعدكَ أسفَعُ

وقال :

قد سألنا أطلالكُمْ فأجابت
ومن الصَّمْتِ واعظٌ ونذيرُ

يا سوادَ الهُمومِ صرتَ على الأَيَّ ...
... ـامِ لمَّا ضاقَتْ عليك الصُّدُورُ

ولمهيار مما لا يجوز أنْ يتمثَّل بثانيه إلا شاعر (١) :

أبكيك لا ما تَسْتَحِقُّ وجهدُ ما
تسعُ الصبابةُ أنْ تَسيلَ محاجري

(١) ديوانه : ١/٣٤٧ ، والبيتان من قصيدة يعزي فيها الشريفين الرَّضي والمرتَضَى عن خالهما أبي الحسين بن الناصر العلوي ، وكان توفي فجأة ، ومطلعها :

خدَعَ الزمان مودةٌ من ثائر ومنى الحياة وتيرة من غادر

وأشـــاركُ النُّوّاحَ فيـــك بأنّني

أبكيكَ (١) ، والتأبينُ نَوْحُ الشاعرِ

وهذا المعنى أيضاً مما تَصَرَّف فيه فقال (٢) :

خـانَ بكـــاءُ العـــينِ أجفانَهُ

فَنَاحَ ، والنوحُ بكـــاءُ الفَـــمِ

وقـــال (٣) :

إنْ أنفدَتْ (٤) عيني عليكَ دُمُوعَها

فليبكينَّكَ بالقـــوافي مِقْـــولي

وما أحسنَ قولَهُ في هذه القصيدة :

ما كنتُ أحسبُ ـ والزمانُ مُقَاتِلي

يَرمي ويُخطىء ـ أنَّ يومَكَ مَقْتَلِي

وقـــال (٥) [٢٢١]

---

(١) في الديوان : أرثيك

(٢) ديوانه : ٤/٣١٣ ، وقد سبق تخريج هذا البيت

(٣) ديوانه : ٣/١٠٨ ، وهو من قصيدة يرثي بها الشيخ المفيد أبا عبد الله محمد بن محمد بن النعمان الفقيه ومطلعها :

ما بعد يومِك سلوةٌ لمعلَّلِ — منّي ولا ظفرتْ بسمع معذِّلِ

(٤) رواية الديوان : أو أنفدَتْ ...

(٥) ديوانه : ٢/٢٦٤ ، قال في الديوان في مناسبة هذه القصيدة : (وأُنشِد قصيدة من مراثي أهل البيت من مرذول الشعر .. وسئل أن يعمل أبياتاً في وزنها . على قافيتها فقال هذه في الوقت) ومطلعها :

مشين لنا بين ميلٍ وهيفٍ — فقل في قناةٍ وقل في نزيف

أمَرَّ بفيَّ عليكَ الزُلالُ

وآلم جلدِيَ وَقْعُ الشفوفْ (١)

أتحمِلُ فقدَكَ ذاكَ العظيمَ

جوارحُ جِسْميَ هذا الضعيفْ ؟!

وهذا يُنشَدُ مطلقاً ومقيداً ، فإذا أطلِقَ كان من الأول من المتقارب ، وإذا قيِّدَ كان من الثاني منه .

وقال (٢) :

نعم ! هذه يا دهرُ أم المَصائِب

فلا تُوعِدَنّي بعدها بالنوائبِ

هتكتَ بها ستر المُجامِل بيننا

ولم تلتَفِتْ فيها (٣) لِبُقْيا المُراقِبِ

سَدَدْتَ طريق الفَضْلِ من كلِّ وِجْهةٍ

ومِلتَ على العلياء من كلِّ جانبِ

أمِنْ بعده يا دهرُ (٤) أحظى براجِم

من العَيْش أو آسَى على إثر ذاهبِ ؟

(١) في الحاشية (معاً) ويقصد إطلاق الروي وتقييده .

(٢) ديوانه : ١/٥٥ ـ ٥٩ ، وهذه الأبيات من قصيدة يرثي بها أبا الحسين أحمد بن عبد الله ، والبيت الأول هنا هو مطلع القصيدة في الديوان .

(٣) رواية الديوان : فينا .

(٤) في الديوان : أبعد ابن عبد الله ....

تُنَافِثُ عن جَمْــرِ الغضا نادِباتُهُ

كـأنَّ فؤادي في حُــلوقِ النوادبِ

بكَتْ أدمُعـاً بيضاً ودمَّتْ جباهُهَا

فتحسَبُهـا تبكي دمـاً بالحواجبِ

متى (١) دنَّس الحُزنَ السُّلُوُّ غسلتُهُ

فعـاد جديداً بالـدموعِ السواكبِ

وهذا تصرُّفٌ في معنى قولِ ابن المعتز (٢) :

إذا دَنَّسَ الليـلُ أثوابَهَـا

غَدَتْ في ثيـابِ صَبَاحٍ جديـد

وقـال (٣) :

ذهَبَ الـذي كانت تجاملني له الدْ

دُنيـا وتسقُطُ دونيَ الأخطـارُ

عجباً (٤) ، يكون الجوُّ بعـدَكَ ساكناً

واليـومُ أبيضُ ما عليـه غبـارُ

---

(١) في الديوان : إذا ...
(٢) لم نجده في أي طبعات ديوانه .
(٣) ديوان مهيار : ١/٤١٩ ، والأبيات من قصيدة يرثي بها الصاحب أبا القاسم بن عبد الرحيم ، ومطلعها :
من حاكم وخصوميَ الأقدار كثُرَ العدوُّ وقلَّتِ الأنصار
(٤) رواية الديوان : أو أن يكون الجو ...

وكـأنَّ كفَّكَ لـم تَبِنْ في ظهرِهَا

قبَلُ الملوكِ وتَشْهَـدُ الآثـارُ

ويخِفُّ بـين بنانِهـا إنْ حُمِّلَتْ

ضَبْطُ الحُسَام ويثقُـلُ الدينارُ

وقـال (١) :

بَكَرَ النَّعِيُّ فسَكَّ فيـه مسامِعِي

وأعـاد صُبحي جنـحَ ليـلٍ أَليَلِ [٢٣٢]

الغايةُ في هذا المَعنى قولُ أبي تمام (٢) :

أَصَمَّ بك النَّاعي وإنْ كانَ أسْمَعَا

رَحَـلَ الحمـامُ بها غنيمـةَ فائزٍ

ما ثـار قَطُّ بمثلهـا عـن مَنْزِلِ

كانَتْ يَدَ الـدين الحنيفِ وسيفَهُ

فلأبكِيَـنَّ عـلى الأشَلِّ الأعزلِ (٣)

---

(١) ديوانه : ٣/١٠٧ ، من قصيدته في رثاء الشيخ أبي عبد الله الفقيه ، وقد سبق تخريجها قبل قليل

(٢) ديوانه : ٤/٩٩ وهو صدر بيت من مطلع قصيدة يرثي بها أبا نصر محمد بن حميد والبيت بتمامه :

أصمَّ بك الناعي وإن كان أسمعا وأصبح مَغْنى الجود بعدك بلقعا

(٣) البيتان من قصيدة مهيار ، سالفة الذكر ، والتي يرثي بها الشيخ المفيد أبا عبد الله بن محمد بن النعمان الفقيه . وانظرها في ديوانه : ٣/١٠٣ .

ولابن حَيُّوس (١) :

وليس يَعْلُو قِرَى الغبراء من أحدٍ
ولا يكونُ لأضيافِ المنون قِرَى

حَوَادثٌ لم تُمَيِّزْ في تَصَرُّفِهَا
من ضَيَّعَ الحَزْمَ ممن أكثَرَ الحذرا

قَضَى وما إن قَضَى من لَذَّةٍ وطراً (٢)
وكم قَضَتْ منه آمالُ الورى وطرا

ومن كلام حسن بن عبد الصَّمد المعروف بابن أبي الشخباء :

غيرُ بِدعٍ من الزمان أن تنتكِثَ حِبالُهُ ، وتصْرَدَ (٣) نِبالُهُ ، وتَفْهَقَ (٤) بالغَدْرِ فِجاجُهُ ، ويُجْدَحَ (٥) بالسُّمِّ أُجَاجُه ، وتراشَ في قَصْدِ الكرام سِهامُه ، ويثارَ في قَبْضِ

---

(١) ديوانه : ١/٢٨٤ ، والأبيات من قصيدة يمدح بها أمير الجيوش الظاهر لاعزاز دين الله علي بن الحاكم الفاطمي العُبيدي ، ويهنئه بجلوس ولده المستنصر بالله سعد بن الظاهر ، ومطلعها :

لو أنَّ شامخَ قدرٍ دافعٌ قدراً
لم يُخْتَرَمْ من الاعزاز الهُدَى ظهرا

(٢) في الديوان :

حتى قضى ما قضى من لذة وطرا . . .

(٣) صرد السهم : نفذ حدُّه ، وصرده الرامي وأصرده : أنفذه

(٤) فهق الاناء فهْقاً وفَهَقاً : امتلأ ، والفَيْهق : الواسع .

(٥) جدَّحَ الشيء تجديحاً : لطَّخَهُ .

النفوس عجاجُه ؛ ولـذلك عَرَفَتِ النفوسُ مواقعَ نُكرِه ، وأنِسَتْ بغرائب غَدْرِه ومَكْرِه ، واطمَأنَّتِ الضُّلوعُ وقد أصْمَتْ صوائبُه ، وهَجَعَت العُيونُ وقد استيقظَتْ نوائِبُه ، ولمّا طَرَقَ الحـادثُ بمن لا أُسَمّيه تفاديـاً من تحقيق الخَبَرِ بمصرعـه ، وَصَوْناً له عن مورد الحِمامِ ومَشْرَعِه ؛ رأيتُ المحامِدَ ذاتَ نور خامد ، والمآثرَ ذات عِقدٍ متناثر ، والقَمَرَ وقد سَئِمَ هالتَه ، والصُّبْحَ وقد خَلَع الليلُ عليه غِلالتَه . [٢٢٣] وشاهدتُ الفَضْلَ وقد اسوَدَّتْ سَحنتُه ، واشتدَّتْ على الزمان إِحْنَتُه ؛ إذ طرق بما يتجاوَزُ القَدرَ ويُوحِشُ الأضالع من صُحبةِ الصَّدرِ . هذا ــ واللهِ ــ هو المصاب الذي تستعذِبُ فيه الحلومُ هَفَواتِها ، وتفارِقُ له القلوبُ سويداواتها ، وتستخِفُّ النفوسُ فيه حَمْلَ الأوزار ، وتأنَفُ العيونُ من لقائه بغير الدموع الغِزَارِ ، حتى تجعَلَ ذلك دابَها ، وتخضِبَ بالتَّجيع أهدابَها . إلاّ أنه نَزَلَ بمن لا يُصبِحُ الجزَعُ مالِكَه ، ولا تخطِبُ الخطوبُ تهالكَه ؛ فلذلك سَاغَ للعبيد أنْ يُخلوا الخِدَمَ من الإرشاد إلى مواقف التسليم ، والحضِّ على الصَّبْرِ على الحادثِ الأليم ، ويقتَصِروا على الرغبة إلى اللهِ في أن يَهَبَ له عُقْبى الدار ، ويُغْفِلَ عنه جوامحَ الأقدار ، ويُسعِدَ بني الدنيا بسعادةِ حَدِّه ، ويصونَ عن دَرَجةِ الكسوفِ شُموسَ مَجْدِه :

إذا صَفَحَتْ عنك الليـالي وأعرَبَتْ
بحفظِكَ فينا هـان كـلُّ مُضيَّعِ

ولابن سنان :

وكيفَ يفـوز الغيثُ فيكَ بمنّـةٍ
إذا كنتُ لا أَرْضى سحائب أَدْمُعي

وليسَ بكـاءُ العَيْنِ إلا خيانـةً
ولا اللـؤم إلا أنهـا بَقِيَتْ معي

وأين وفائي ! لا مَدَى الدّمـعِ بالغٌ
رِضايَ ولا جُهْـدُ الصبابة مُقْنِعي

تصامَمْتُ عن ناعِيك حتى أربتُـهُ
ودافَعْتُ فيك القولَ من كلِّ مَدْفَعِ

ولمّـا أبَى إلا يقينـاً حـديثهُ
فزِعْتُ إلى جَفْنٍ من الدّمعِ مُتْرَعِ [٢٢٤]

فأيُّ حُسَامٍ حالتِ الأرضُ دونَـهُ
وكانَ متَى يُضْرَبْ به الخَطْبُ يَقْطَعِ

وهـذا الحَدَثُ فالملوكُ يقفُ عندَهُ ، ثم يُعْطِشُ قلَمَهُ بعدَهُ ، لما يلزَمُ في باب المُصاب إذا رَمَتْهُ الليالي وراءَ ظهرها ، وأَبْعَدَتِ الأيـامُ عَهْدَهُ بِسَرِّها ، من الاكتفاءِ من القول بيسيرِه ، والاستغناءِ عن كثيرِهِ بقليلِـهِ ، كراهيةً لتجديد الحُزْنِ وتَطْرِيَتِـهِ ، وإشْفَاقاً من تشييدِ ما يجِـبُ الحِرْصُ عـلى تَعْفِيَتِـهِ ولا سِيَّما هذا الفادحَ الذي نَبَّهَ خَامِلَ الثَّرَى .

ومَنَــعَ الجفونَ من مصافحَةِ الكَرَى ، وأحزَنَ مليكَ الأرضِ وسلطانَ الوَرَى :

وَتَرَ الرَّدَى من لو تنــاوَلَ سيفَهُ

يوماً لنـــالَ من الـــرَّدَى ما شاء

وهذا الخَطْبُ وإنْ رَمَى العقولَ بالخَبَلِ ، وعَمَّ بالغَمِّ أهْـلَ السَّهـلِ والجَبَلِ ، ولم يَسْلَمْ أحَدٌ فيه من رُزْءٍ ، ولا خَلا من الأَخْذِ منه بأوفرِ جُزْءٍ ؛ فالذي يُسَهِّلُ صَعْبَهُ ، ويُنَفِّسُ كَرْبَهُ ، ويُسيغُ صابَهُ ، ويُخَفِّفُ أوصابَهُ ، أنَّ مالِكَنا ــ خَلَّـدَ الله دولتَـهُ ــ مكفوفٌ بالحماية ، مشمولٌ بالوقاية ، محفوظٌ بعناية الله وكفايته ، مَخْصوصٌ بإطالةِ العُمرِ وإطابَتِـهِ ، جارٍ على عادتهِ في تدبير مملكتهِ ، وَكِلاءَةِ رعيَّتِـهِ ، وإعزازِ دين الله ــ تعالى ــ ونُصْرتهِ . والله ــ تعالى ــ يجعـلُ مُنتقِصَ المُدَدِ زيادةً في مُدَّتِهِ ، ولا يُخْلي البسيطةَ من رُواءِ سُلطانهِ وبهجتِـهِ . بِفَضْلِـهِ وطَوْلهِ ، وحَوْلهِ ، وقُدْرَتهِ . [٢٢٥]

قال الشيخ أبو القاسم المُصَنِّفُ :

كنتُ أنفذْتُ نسخةَ هذه الرسالة إلى بعض الرؤساء الكُبَراء ممَّنْ كان يُؤثِرُ الوقوفَ على ما أعمَلُهُ ، فبلغني أنَّ كاتِبَهُ قال لمَّا رأى ترجَمَةَ هذه الرسالةِ قبلَ الوقوفِ عليها :

هـــلا قـــال : الغَلوَةَ في السَّلْوة وأنْـكَرَ التَّـدَانِّي ؛ فكَتَبْتُ إليه :

بالغ عبدُ الحضرة ما انتقد عليه في ترجمة ما خدم به.
وما استبعد من التدلي العائد بدنو النائي وتقربه ، وقد كان يجب أن يبقي على من عمل عجلاً ، وترجم مرتجلاً ، ولم تكن له مهلة لتنقيح ألفاظه وتهذيبها ، وإبرازها في معارض تستحسنها النقدة وتهذي بها ، وإن بعض من انتقد عليه قال : هلا كانت الترجمة : الغلوة في السلوة ؟

وعبدها يقول :

أما الغلوة فهي : المرماة ، والمغلاة : السهم ، فالغلوة : غايته . وهذا ضد مراده ، وذلك أن التدلي إنما هو التوصل ، تدليت على الشيء إذا توصلت إليه . ومنه أدلى فلان بحجته إذا توصل بما أتى به إلى بغيته ، ومن ذلك قوله تعالى : « ثم دنا فتدلى » (١) وهذه الآية من باب قوله سبحانه : « ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة » (٢) . وهو من المقلوب ، أي : تنوء بها العصبة أولو القوة و : ثم تدلى فدنا .

وقد قال الشاعر :

لا تقتلوها وادلوها دلوا

إن مع اليوم أخاه غدوا [دوا] (٣)

---

(١) النجم : ٨

(٢) القصص : ٧٦

(٣) مطموسة في الأصل ، وقد أكملناها من لسان العرب : فالبيت هناك (دلا)

وتَقَلْتُواها : تَبعدَاها ، وادلُواها : قَرَّباها ، والدَّلْو من هذا ؛ لأنها تُقَرِّبُ الماءَ بَعْدَ بُعْدِه .

فقولُ عَبْدِها : التَّدَلِّي على التسَلِّي إنما معنَاهُ : التَوَصُّلُ إلى السَّلْوةِ بأسبابها من التأسِّي ، وطَلَبِ الثَّواب ، وغير ذلك .
وقولُ من قال : الغَلوَةُ في السَّلْوةِ ، إنما هوَ الوُصولُ إلى غايتها ، والفَرْقُ بين من قَصَدَ التَّوَصُّل ، وبَيْنَ من بَلَغ الغاية لا يَخْفَى عن أحدٍ ، فقد بانَ تَضَادُّ الترجمتين ، وتنافي الغَرَضَيْن ، وما ضَرَّ من انتقد لو صَبَر [٢٢٦] إلى أنْ يقِفَ على الرسالة ، ثم يقول ما يختار ، ولا يَعْجَلُ بأنْ يَضَعَ منِّي ما صَدَرَ عَنِّي ، فالله المستعانُ وصَبْرٌ جميلٌ .

قال الشيخ أبو القاسم : كانت وفاةُ الأَجَلِّ المُظَفَّرِ — رضي الله عنه — يوم الخميس تاسع جُمادَى الأولى من سنةٍ أربعَ عَشْرة وخمس مائة ، وكانت ولادَتُهُ في سنة تسعٍ وسبعين وأربع مائة (١) .

الحمد لله رب العالمين ، وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وعلى آلهِ الطاهرين ، وسلَّم تسليماً ، حَسْبُنا الله ونعم الوكيل .

★ ★ ★

---

(١) بعد هذا طمس بمقدار خمسة سطور .



المراجـــع

ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا،لأحمد بن علي المقريزي ـ دار الفكر العربي ١٩٤٨ م .

ـ أخبار مصر ، ليوسف بن جلب المعروف بابن ميسر ـ مصر ١٩١٩ م.

ـ الأعلام ، لخير الدين الزركلي ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩ م .

ـ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ـ طبعة دار الكتب .

ـ الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ـ طبعة دار الثقافة .

ـ إنباه الرواة على أنباه النحاة ، لعلي بن يوسف القفطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م .

ـ الأوائل ، لأبي هلال العسكري ـ تحقيق محمد المصري والدكتور وليد قصاب ـ دمشق ـ ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ م .

ـ البخلاء ، للجاحظ ـ تحقيق طه الحاجري ـ القاهرة .

ـ بدائع البدائه ، لعلي بن ظافر الأزدي ـ ١٢٧٨ م .

ـ البديع لابن المعتز نشره كراتشكوفسكي ـ طبعة لندن ١٩٣٥ م .

ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى الضبي ـ طبعة مصورة عن طبعة مجريط سنة ١٨٨٤ م .

ـ بغية الوعاة ، لعبد الرحمن السيوطي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ القاهرة ١٩٦٥ م .

ـ تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ـ مطبعة السعادة ١٣٤٩ هـ/١٩٣١ م .

ـ التعازي والمراثي ، لأبي العباس المبرد ـ تحقيق الدكتور محمد الديباجي ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٦ م .
ـ التنبيه على حدوث التصحيف ، لحمزة الأصفهاني ـ تحقيق الدكتور محمد أسعد طلس ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ـ ١٩٦٨ م .
ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء الشام) للعماد الأصبهاني الكاتب ـ تحقيق الدكتور شكري فيصل ١ ـ ٤ ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .
ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء العراق) ـ للعماد الأصبهاني الكاتب ـ تحقيق محمد بهجت الأثري ـ بغداد .
ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر) ـ للعماد الأصبهاني الكاتب ـ نشره أحمد أمين ، وشوقي ضيف ، وإحسان عباس ـ القاهرة ١٩٥١ .
ـ خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء المغرب) .
ـ دمية القصر وعصرة أهل العصر ، للباخرزي ـ طبعة دمشق ـ تحقيق محمد التونجي ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م .
ـ ديوان (شعر) الأحوص بن محمد الأنصاري، جمع وتحقيق الدكتور إبراهيم السامرائي ـ النجف ١٣٨٨ هـ/١٩٦٩ م .
ـ ديوان الأعشى.تحقيق الدكتور م. محمد حسين . المطبعة النموذجية.
ـ ديوان البحتري ، تحقيق وشرح حسن كامل الصيرفي ـ القاهرة دار المعارف .
ـ ديوان أبي تمام ، بشرح الخطيب التبريزي ـ تحقيق محمد عبده عزام ـ القاهرة دار المعارف .
ـ ديوان جرير ، شرح محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ـ القاهرة ١٣٥٣ هـ .

ـ ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، شرح عبد الرحمن البرقوقي ـ مطبعة مصطفى محمد ١٣٤٧ هـ ـ ١٩٢٩ م •
ـ ديوان حسان بن ثابت ـ حققه الدكتور وليد عرفات ـ لندن ١٩٧١ م •
ـ ديوان ابن حيوس ـ تحقيق خليل مردم بك ـ المجمع العلمي العربي بدمشق ـ ١٣٧١ هـ/١٩٥١ م •
ـ ديوان ابن دريد ـ جمعه محمد بدر الدين العلوي ـ مصر ـ ١٩٤٦ م •
ـ ديوان دعبل ، صنعة محمد يوسف نجم ـ بيروت •
ـ ديوان ابن رشيق ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن ياغي ـ بيروت •
ـ ديوان ابن الرومي ، مع شرح الشيخ محمد شريف سليم ـ القاهرة ١٩١٧ م •
ـ ديوان ابن الرومي : اختيار كامل كيلاني ـ مصر ـ مطبعة التوفيق الأدبية •
ـ ديوان ابن الرومي ، تحقيق الدكتور حسين نصار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٦ م •
ـ ديوان زهير بن أبي سلمى ، شرح ثعلب ـ القاهرة ١٩٦٤ م •
ـ ديوان ابن زيدون ، تحقيق علي عبد العظيم ـ القاهرة ١٩٥٧ م •
ـ ديوان السري الرفاء، نشره حسام الدين القدسي ـ القاهرة ١٣٥٥ هـ •
ـ ديوان الشريف الرضي ـ المطبعة الأدبية ١٣٠٧ هـ •
ـ ديوان الشريف المرتضى ـ حققه رشيد الصفار المحامي ـ القاهرة ١٩٥٨ م •
ـ ديوان الصاحب بن عباد ـ تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ بيروت ١٩٧٤ م •

ـ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ، تحقيق وشرح الدكتور محمد يوسف نجم ـ دار بيروت ١٩٥٨ م .
ـ ديوان أبي العتاهية ـ (أبو العتاهية ، أشعاره وأخباره) ـ عني بتحقيقه الدكتور شكري فيصل ـ دمشق ١٩٦٥ م .
ـ ديوان علي بن الجهم ـ تحقيق خليل مردم بك ـ من مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٤٩ .
ـ ديوان كثير عزة، جمعه وشرحه الدكتور إحسان عباس ـ دار الثقافة بيروت ١٩٧١ م .
ـ ديوان كشاجم ، تحقيق خيرية محمد محفوظ ، بغداد ١٩٧٠ م .
ـ ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وتقديم الدكتور داود سلوم ـ بغداد ١٩٦٩ م .
ـ ديوان أبي الطيب المتنبي ، بشرح البرقوقي ـ مطبعة السعادة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
ـ ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح العكبري ـ طبعة بولاق ١٢٧٨ هـ .
ـ ديوان مسلم بن الوليد (شرح ديوان صريع الغواني) حققه الدكتور سامي الدهان ـ القاهرة .
ـ ديوان ابن المعتز (عبد الله) ، (شعر عبد الله بن المعتز) صنعة أبي بكر الصولي ـ استامبول ١٩٥٠ م .
ـ ديوان ابن المعتز ، طبعة القاهرة ١٣٠٧ هـ .
ـ ديوان المعتمد بن عباد ، القاهرة ١٩٥١ م .
ـ ديوان مهيار الديلمي ، دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٥ .
ـ ديوان أبي نواس، جمعية المستشرقين الألمانية ـ تحقيق ايفالد فاغنر .
ـ ديوان أبي نواس ، جمعه حمزة بن الحسن الأصبهاني ـ تحقيق محمود واصف ـ مصر ١٨٩٨ م .

ـ ديوان الوأواء الدمشقي ـ تحقيق الدكتور سامي الدهان ـ مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٥٠ م .
ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ـ القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ م .
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد الحنبلي ـ نشره حسام الدين القدسي سنة ١٣٥٠ هـ .
ـ شرح الحماسة للتبريزي تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١٣٥٨ هـ .
ـ شرح الحماسة للمرزوقي ، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٥١ م .
ـ شرح مقامات الحريري للشريشي ـ طبعة بولاق ١٣٠٠ هـ .
ـ شروح سقط الزند ، لأبي العلاء المعري ـ لجنة إحياء آثار أبي العلاء المعري ١٩٤٥ م .
ـ شعر دعبل بن علي الخزاعي ، صنعة الدكتور عبد الكريم الأشتر ـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٦٤ م .
ـ شعر عروة بن أذينة ، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري ـ بغداد .
ـ شعر ابن اللبانة ، تحقيق محمد مجيد السعيد ـ البصرة ١٩٧٧ م .
ـ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ـ القاهرة .
ـ الصناعتين ، لأبي هلال العسكري ـ طبعة القاهرة ١٩٠٧ م .
ـ طبقات الشعراء ، لابن المعتز ـ تحقيق عبد الستار فراج ـ القاهرة ، دار المعارف .
ـ الطرائف الأدبية ، لعبد العزيز الميمني الراجكوتي مصر ١٩٣٧ م .
ـ العقد الفريد ، لابن عبد ربه الأندلسي ـ تحقيق محمد سعيد العريان ـ مطبعة الاستقامة ١٩٤٠ م .
ـ العمدة ، لابن رشيق القيرواني ـ طبعة القاهرة ١٩٠٧ م .

ـ عيون الأخبار، لابن قتيبة ـ دار الكتب المصرية ١٣٤٣هـ/١٩٢٥ م.
ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة ـ المطبعة الوهبية ١٨٨٢ هـ .
ـ فهرس المخطوطات المصورة في معهد المخطوطات العربية لفؤاد السيد طبع في القاهرة ١٩٥٤ .
ـ فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبي ـ طبعة محيي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٥١ .
ـ فوات الوفيات.لابن شاكر الكتبي ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس.
ـ القاموس المحيط ، للفيروزابادي ـ طبعة القاهرة ١٣٤٤ هـ .
ـ الكامل في التاريخ ، لابن الأثير ـ طبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧ م .
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ـ تركيا ١٩٤١ م .
ـ لسان العرب ، لابن منظور ـ طبعة بولاق ١٣٠٨ هـ .
ـ المحمدون من الشعراء ، للقفطي ـ تحقيق محمد معامري ـ الرياض ١٩٧٠ م .
ـ المحمدون من الشعراء ، للقفطي ـ تحقيق الأستاذ رياض مراد ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٥ م .
ـ المطرب من أشعار المغرب ، لابن دحية الكلبي ـ تحقيق إبراهيم الابياري ورفيقيه ـ الأميرية بالقاهرة ١٩٥٤ م .
ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، للمراكشي ـ تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ـ مطبعة الاستقامة١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.
ـ معجم الأدباء أو إرشاد الأديب ، لياقوت الحموي ـ طبع بمطبعة دار المأمون ، القاهرة ١٩٣٨ م .
ـ معجم البلدان ، لياقوت الحموي ـ طبعة صادر ـ بيروت .

ـ معجم البلدان ، لياقوت الحموي ـ طبعة ليبزغ ١٨٧٣ م ٠
ـ معجم الشعراء ، للمرزباني ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ مطبعة البابي الحلبي ١٣٧٩ هـ/١٩٦٠ م ٠
ـ معجم المؤلفين ، لعمر رضا كحالة ـ دمشق ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ م ٠
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، لمحمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٤٥ م ٠
ـ المغرب في حلى المغرب ، لابن سعيد ـ تحقيق شوقي ضيف ـ طبعة دار المعارف ١٩٥٥ م ٠
ـ المغرب في حلى المغرب ، قسم مصر ـ طبعة ليدن ١٨٩٩ م ٠
ـ ميزان الاعتدال في نقد الرجال ، للذهبي ـ تحقيق علي محمد البجاوي ـ مطبعة البابي الحلبي ١٣٨٢ هـ/١٩٦٣ م ٠
ـ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، للمقري ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ١٩٦٨ م ٠
ـ هدية العارفين ، لإسماعيل باشا البغدادي ـ استانبول ١٩٥١ م ٠
ـ الوافي بالوفيات ، للصفدي ـ طبعة المستشرقين الألمان ٠
ـ الورقة ، لابن جراح ـ دار المعارف ١٩٥٣ م ٠
ـ الوزراء والكتاب ، للجشهياري ـ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م ٠
ـ وفيات الأعيان ، لابن خلكان ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس بيروت ١٩٦٧ ٠
ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ مطبعة السعادة ١٣٧٥ هـ/١٩٥٦ م ٠

★ ★ ★



الفهـــارس

فهرس الآيات الكريمة
منسوقة على السور

رقم الآية	الآية الكريمة	رقم الصفحة
	١٠ ـ سورة يونس:	
١٠	(وآخرُ دعواهُم أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين)	٣٠
	١٣ ـ سورة الرعد :	
٦	(وإنَّ ربَّكَ لذو مغفرةٍ للناسِ على ظُلمهم	١٨
	١٤ ـ سورة إبراهيم :	
٧	(وإذْ تأذَّنَ ربُّكُم لَئِنْ شكرتُمْ لأزيدنَّكُمْ ولَئِنْ كفرتُمْ إنَّ عذابي لشديد)	
	١٦ ـ سورة النحل :	
١١١	(وتُوفى كلُّ نفسٍ ما عَمِلت)	١٩٢
	٢١ ـ سورة الأنبياء :	
٢٢	(لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ الله لفَسدَتا)	٢٨٧
٣٣	(كلٌّ في فَلَكٍ يَسْبَحون)	٨١
٨٣ــ٨٤	(وأيوبَ إذ نادى ربَّه أنِّي مَسَّنِي الضُّرُّ وأنتَ أرحمُ الراحمين فاستجبْنا لهُ فكشفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ ...)	٢٨
	٢٢ ـ سورة الحج :	
٢	(وترى الناسَ سُكارى وما هُمْ بِسُكارى)	٢٨٨

★ ★ ★



فهرس الأحاديث



فهــرس الشــعر

حرف الخاء

حرف الدال

أول البيت	القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
إني لممتَنٍ	وجلادِ	٢	محمد بن عمار الأندلسي	٥٩
جنيتَ	الملدِ	٥	محمد بن عمار الأندلسي	٥٦
هيهات	الانفرادِ	٢	ــــ	٧
فإن تعفُ	القلائدِ		ــــ	١٢
تحت البراقع	خد ندِ	٢	ابن جاخ	٧٨
أمولاي	يستعدي	٢	أبو إسحاق الصابئ	٢٨
إن أسرق	المجدِ	٤	ابن الرومي	٣٨
لاح	القدُّ	٣	المعتمد بن عباد	٥٢
أمعتنق	الصعادِ	٢	إبراهيم بن مُعَلّى	٣٠٩
وأسبَلَتْ	بالبردِ	١	الوأواء	٢٧٠
وا رحمتا	كسادي	١	الشريف الرضي	٢٥٩
كأنّه	رقادِ	١	المتنبي	٢٢٧
لما غدوت	وتعديدِ	٢	ابن الصيرفي	٢٠٢
لا يبلغ	والقودِ	٢	ابن الصيرفي	١٩٩
وطول مقام	تتجددِ	٢	أبو تمام	١٦٠
ومن بني	سعدِ	٢	مهيار	١٧٣
أبا جعفرٍ	الحدادِ	٣	جعفر الرقي	١٧٦
ملكتَ	مستعبدِ	٣	محمد النحاس	١٧٠
جبلٌ	الإزبادِ	٢	الشريف الرضي	٣٠٤
إذا دنّسَ	جديدِ	١	ابن المعتز	٣١٨
الراح	جمدْ	٢	الخليع الشامي	٥٠
من ينس	مساعدَهْ	٢	الصنوبري	٥٢
الملك	بعدَهْ	٢	ــــ	١٢٣
أكثر	أحدْ	١	ــــ	١٢٤

أول البيت	القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
لو كانَ	الصدفِ	١	المتنبي	١٧٤
أَمَتَّ	الشفوفِ	٢	مهيار	٣١٧
يستوجب	اقترفْ	١	الشهرزوري	٢٧
كذا يجيب	عرَفَهْ	١	مجبر بن محمد الصقلي	٢٦٠

حرف القاف

أول البيت	القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة
من شك	خلاّقُ	٢	—	٣٦
غادرتَها	الأشواقُ	٢	ابن سنان الخفاجي	٥٦
وهل تخفى	زُرْقُ	١	مهيار	٦٠
وهل يفات	لا تطرقُ	١	السري الرفاء	٦٦
ومديرٍ	والرحيقُ	١	مهيار	١١٢
إذا ملكتْ	آبقُ	١	الحسن التنيسي	١٣٤
من النفرِ	ضيقا	٢	مهيار	١٧٥
مواهب	متسلقا	١	—	٢١٣
ولقد هممت	نلتقي	١	—	٢٩٠
وقفتُ	مفارقِ	١	—	٢٩٩
لما غدوت	مخلوقِ	٢	ابن الصيرفي	٢٠٦
فَبِلْ	الأرزاقِ	١	ابن الرومي	١٦٢
ما الذهب	الناطقِ	١	إبراهيم بن شعب	٥٣
قال	لاقِ	١	—	٨٢
إذا سكنتم	الأرقِ	٢	عبد الله بن سعيد	١١٢
لا يبلغ	والتوقِ	٢	ابن الصيرفي	٢٠٠
تباً له	مذاقِ	١١	الحريري	٢٧١

حرف الكاف

حرف اللام

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

أول البيت	القافية	عدد الأبيات	الشاعر	الصفحة

حرف الياء

* * *



فهرس الأعلام

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء

★ ★ ★



الخطأ والصواب

الصفحة والسطر	الصواب	الخطأ
١٠	ولا ودٌ	ولا ودُّ
٦٨	قدُ	قدْ
٨٠/٥	ضافيةٌ	ضافيه
٨٠/٦	جاريةٌ	جاريه
١١٦/١٢	محمود القاضي الموفق	محمود بن القاضي الموفق
١٥٧/١	لذةٍ	لذةٌ
٢٠٢/١٢	التواريخَ	التواريخُ
٢١٧/١٣	أشطان	أشطانُ
٢٢٢/١٦	بابٍ	بابَ
٢٢٨/١٠	اليراعةٌ	اليراعه
٢٦٤/٩	صديّة	صديّه
٢٧١/١	صفرتهُ	صفرته

الفهرس العام

البحوث	الصفحة



